رواية

جِزوالدو بوفالينو

أكاذِيبُ اللَيلِ

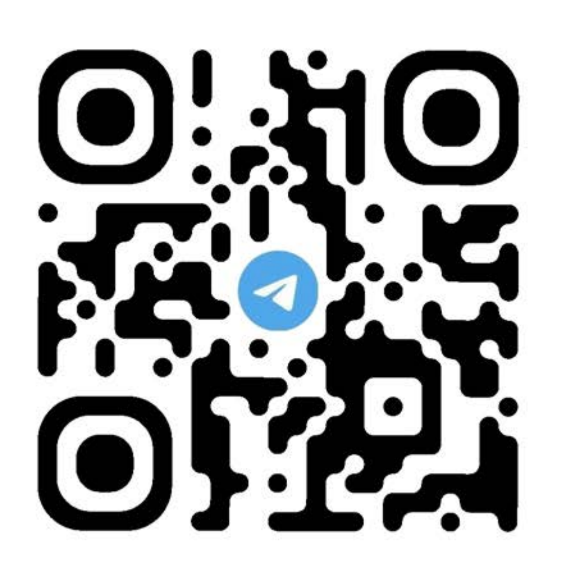
مكتبة 1647

جائزة ستريغا 1988

ترجمة

بسَّام حجَّار وأمارْجي

دار الرافدين



أَكَاذِيبُ اللَّيلِ

أكاذيبُ اللّيل

جزوالدو بوفالينو
ترجمة: بسّام حجّار و أمارجي

العنوان بالأصل:

Le Menzogne Della Notte

العنوان بالإنكليزي:

Night Lies

By Gesualdo Bufaliano

Translated by Bassan Hajjar & Amarji

الطبعة الأولى: أغسطس ـ آب، 2021 (1000 نسخة)

تمت ترجمة ونشر هذا الكتاب *أكاذيبُ الليل*، بالإتفاق مع **الوكالة الأدبية الإيطالية**، ميلانو

This Translation of *Le Menzogne Della Notte* is Published by arrangement
with **The Italian Literary Agency**, Milano - Italy





بغداد ـ العراق / شارع المتنبي عمارة الكاهجي
تلفون: 9647714440520+ / 9647811005860+

info@daralrafidain.com
daralrafidain@yahoo.com
www.daralrafidain.com
dar alrafidain
Dar.alrafidain
@daralrafidain

ISBN: 978 - 9922 - 643 - 57 - 1

رواية

جِزوالدو بوفالينو

مكتبة | 1647

أكاذِيبُ اللّيلِ

ترجمة
بسَّام حجَّار

أمارجي



www.daralrafidain.com

الفهرس

إلينا، معًا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

I

أين

أكلوا زَهْدًا أو أعرضوا. فالطَّعامُ، وإن بدا باذخًا، خلافًا للمعتاد، بحسنة السَّجَّان القيِّم على المطبخ، كان مذاقه مُرًّا، وما من لُقمةٍ زَقِمَها الحلقُ إلَّا كان طَعْمُها رمادًا؛ إذِ الشَّائعُ في أمسياتِ الوداع أن تفقد النَّفس شاهية الطَّعام. لقد عُيِّنَ بزوغُ الفجر موعدًا لتنفيذ حكم الإعدام، وهو ذا البارون يستشيط غضبًا لرؤية هذا المقدار من المشتهَيات التي تُقَدَّم عبثًا ونِفاقًا، ساعةَ الغَلَسِ، لمحكومين بالموتِ، والأحرى، ما داموا على عتبةِ الآخرة، أن يُطْعَمُوا سُمًّا.

«بئسَ المِيتةِ على بطنٍ خاوٍ»، قال بحسرةٍ، «وعند بزوغ الفجر، حينَ الضَّوءُ أُخْذَةٌ للقلوب...».

وافقه ساليمبيني بأساليبه الشِّعريَّة المعتادة إذْ قال: «الأحرى أن يتمَّ ذلك عند الغروب بضوئِهِ نصفِ المأتميِّ وغيومه الوطيئة وظلاله القرمزيَّة والأرجوانيَّة التي تستدرجك برفقٍ إلى الرَّاحة الأبديَّة. أمَّا عند الفجر، فلن يكون لنا إلَّا أن نشعر بأنَّنا نُقصَى من الحياة بعمليَّة إخلاءٍ تعسُّفيٍّ».

أطرق الجنديُّ صامتًا كأنَّه يُطيل النَّظر إلى حذائه. وكان قد فَرَدَ ياقة

قميصه إلى أعلى رقبته كأنَّه يشعر بالبرد. ولكنَّ نَرتْشِيزو[1] غَمْغَمَ قائلاً: «مساءً أو صباحًا، ما الفرق؟» وأجهش، مثل طفلٍ، في البكاء.

القلعة هي المكان الوحيد المأهول في الجزيرة. نقول الجزيرة، والأحرى أن نقول النُّتوء الصَّخريّ. لأنَّها ليست أكثر من كتلةٍ من الصَّخر البركانيِّ نَمَتْ على نفسها على هيئة أنفٍ هائلٍ؛ شديدةِ الانحدارِ هنا وهناك؛ والمنحدراتُ في أكثر الأحيان جرداء. وتفصلُ النُّتوءَ عن اليابسة قناةٌ عرضُها مَدُّ العين الباصرة. غير أنَّ التَّيَّارات والمهبَّاتِ، على حدٍّ سواء، تُحيلها مَكْسِرًا للصَّواري وأذرعِ السَّبَّاحين: لم يركب فارٌّ مخاطر فعلته إلَّا وعُثِرَ عليه حطامًا مزدانًا بالطُّحلُبِ، منخورًا بِشَرَهِ الأسماكِ، ملفوظًا على تضاريس «الرَّأس الأسود».

يمتدُّ نِطاقُ المكان ميلًا، أو ميلًا ونصف الميل. والبذورُ، إنْ حملتها الرِّيحُ، أنبتَها الوعرُ حيث تُلائم التُّربةُ القبَّارَ والنَّدْغَ. لا كلأَ هناكَ يُسمِنُ بهيمةً، إلَّا شرذمةً من مِعازٍ شَحيحة اللَّبنِ وطائفةً من حميرٍ سائبةٍ دائبة التَّجوال بمحاذاة الشُّطوط أسفلَ المنحدراتِ، يتردَّدُ نهيقها الشَّاكي في ليالي كانون القارسة...

للسَّالكِ، مِن ثمَّ، دربًا متعرِّجًا صُعُدًا، أن يشمل بناظريهِ اتِّساعَ البحرِ ذي الزُّرقة المتماوجة أبدًا حتَّى بوَّابةِ الأفق الغربيَّة، من جهةٍ؛ ومن الجهة الأخرى، فيما وراء اللِّسان المائيِّ، البرَّ الرَّئيسَ الذي تتراءى منه، منضودةً على هيئة قوسٍ، كوكبةٌ من البيوت القزمة على كتفِ ميناءٍ مقفرٍ

(1) اللَّفظ الإيطاليُّ لكلمة نرسيس أو نرجس؛ (أ).

وهامدٍ، تحت سماءٍ مقفرةٍ بالقدر نفسِه، لا يَعْبُرُ فلاتها سوى طائرٍ يكرِّر تحليقه المستوحد بين الجزيرة والمملكة، رسولَ أحكامٍ سرِّيَّة.

فإذا بلغ السَّالك أخيرًا، وقد جازَ المنعطفَ تلوَ المنعطف، صحنَ القمَّة، قمَّة الأنفِ الذي ورد ذكره من قبل، بدا الأنف مجدوعًا، وترامَتْ أرنبته سهلًا منبسطًا انتصبت عليه، منيعةَ الأسوار، القلعة المشيَّدة بحجارة الصَّوَّان كأنَّها كتلةٌ صمَّاء لا فُرجة فيها سوى دفَّاف المدخل. والدَّاخل منه، بعد أن يستوقفه حرَّاسٌ مدجَّجون بالسِّلاح ريثما يتعرَّفون كلمة السِّرِّ فيجيزون العبور، لا يطأ حُرمة الجوفِ خطوةً، وفي أذنيه لم يتلاشَ بعدُ صريفُ مِفْصَلَات البوَّابة، إلَّا وفي الرَّوعِ خِشيةٌ، ثمَّ فَزَعٌ يطمئنُّ لرؤيةِ النَّعلةِ الحَجَر المثبَّتةِ أعلى عقدٍ بارزٍ وقد حُفرت فيها العبارة التَّالية:

Donec sancta Themis scelerum tot monstra catenis

vincta tenet, stat res, stat tuta tibi domus. [1]

وإذ يتوغَّل الدَّاخلُ قُدُمًا، مُتفكِّرًا في مغزى العبارة، عابرًا الفِناء، حريصًا على اجتنابِ الثُّقوبِ التي تكسو أرضيَّته متجرِّعةً مياه المطر، مُلتفتًا أحيانًا إلى الكنيسة الصَّغيرة المخيِّمة في صَحْنِه لإقامةِ القداديس إذا دَعَت الحاجة إلى ذلك طالما أنَّ الحياة، هنا، هي العَرَضُ وفرصُ الموت أكثر من أن تُحصى: الزُّحار المزمن الذي ينتخب جسوم السُّجناءِ موئلًا، وقساوة الرِّفاق الذين يبرعون في

(1) العالَمُ باقٍ ودارتك آمنةٌ، ما دامت ثيميس، القدِّيسة، تعتقل مسوخ الجريمة؛ (ب.ح).

استعمالِ السِّكِّين، وعقوبة الإعدام التي يوزِّعها الحاكم كيفما يشاء، حتَّى للجُنحِ الطَّفيفة.

في زوايا الفِناء الأربع، مَراقِبُ أربعةٌ تقي الحرَّاس تقلُّبَ الجوِّ ومصابيحُ غازٍ ثمانيةٌ تنير ليلهم. غير أنَّ هذا لم يَحُل دون شكوى رئيسهم، مرارًا وتكرارًا، من زوايا مظلمةٍ متبقِّيةٍ قد تكون ملاذًا طيِّبًا لبعض النَّوايا الخبيثة. ما حدا بضابط الإعاشة إلى الرَّدِّ عليه قائلًا: «فليعمدوا إلى الفرار إذن بعد طول مكْثٍ، علَّ عدد الأفواه يقلُّ وتزداد طعوم الأُركة».

بنظرةٍ أكثر شمولًا، وبأسلوبٍ مجازيٍّ، يمكن القول إنَّ شكل البناء أقرب إلى مِشْبَكَي عقربٍ يتضامَّان تاركَين مساحةً تكاد لا تتَّسع لعبور عربة. ومن هنا، إذا ألقى الواقفُ نظرةً على البرجِ الرَّئيس، أمكنه أن يرى الأسوار الشَّاقوليَّة العالية المطرَّزة بمئة كوَّةٍ هي، في الوقت نفسه، مئة مكمنٍ يتراءى من فرجاتها مئة طيفٍ يرمقون الوافد الجديد بعيونٍ فاحصة.

«هيَ ذي دارةٌ پُمْپِيانِيَّةٌ[1]»، قال ساليمبيني ممازحًا حالما عَبَر الباب المُحرَّب. «نولي العالمَ ظهرنا وعيوننا على ملذَّات الدَّاخل. هو ذا مرتعٌ للمتبطِّلين، منتجعٌ لأجلَّاء القَدْر...».

شعرَ الضَّابط الذي كان يُفرغُ مثانته على مقربةٍ بالإهانة دون أن يفهم كلامه، فدنا منه ليُدخل سبَّابته اليُسرى مع إبهامه الأيمن في الأصفاد. كانت خمس دقائق أكثر من كافيةٍ لكي يُدرك السَّجين، تحت وطأة الشَّمس العموديَّة على السُّطوح، أنَّه قاب قوسين أو أدنى من الجحيم.

---

(1) نسبةً إلى پُمْپِيي، مدينةٍ إيطاليَّةٍ تاريخيَّةٍ دمَّرها البركان؛ (ب.ح).

الطَّبقة الأرضيَّة التي يبلغها الوافد عبر ممرٍّ أو رواقٍ محفوفٍ عن جانبيه بالأعمدة، مخصَّصةٌ للأغراض العسكريَّة والمدنيَّة. ولِمَن أراد أن يعرف بالتَّفصيل طبيعةَ هذه الأغراض نبدأ، بادئ ذي بدءٍ، بفصيل الحراسة الذي يسوده هرجُ الأصوات، بمقاعده ومزاوده وحمَّالات الأسلحة الاحتياطيَّة؛ ثمَّ مخزن الأسلحة الذي يسمُّونه تمجيدًا «التَّرسانة»؛ يليه، بالتَّالي، محترف النِّجارة، فمحترف الحدادة، فحجرة التَّأديب الأشبه بردهةٍ للتَّعذيب، فردهة التَّمريض وبلصقِها عيادة الطَّبيب، فمخزن الملابس المفعم بروائح القنَّب، فالمقصف، والمخبز، والمطبخ ومكتب محاسب التَّجهيزات، ثمَّ المراحيض، فقطَّاع الجنود. وأخيرًا، حيث تؤدِّي سبعُ درجاتٍ حُفرت في الأرض، بابٌ خفيضٌ لحبسٍ عُزِلَ فيه سجينٌ مشاغبٌ، نصف معتوهٍ، ينتظر كلَّ يومٍ طلوع الفجر ليصيح، مقلِّدًا صياح الدِّيك، كوكوريكو...

جناحٌ بأكملهِ أُفرِدَ في الطَّبقة الأولى للحاكم. غير أنَّ هذا الأخير، نظرًا لترمُّله منذ أمدٍ بعيدٍ ولضعف صحَّته، اختار عن طيب خاطرٍ ألَّا يشغل منها سوى ثلاث حجراتٍ، تاركًا للضُّبَّاط أن يشغلوا الحجرات المجاورة. مثل هذه الأريحيَّة المبذولة بحسابٍ غرضها أن تُظهر جولات التَّفتيش المباغتة بمظهر الزِّيارات الودِّيَّة. ومع ذلك فإنَّ مقرَّه مُعتَلَمٌ برايتين ترفرفان على الشُّرفات: الرَّاية البيضاء المَلَكيَّة المُزنبَقة؛ وشارة الفيلق الصَّفراء المزيَّنة برسم فتخاءَ سوداءَ مزركشةٍ على شكل درعٍ وقد خُطَّت من حولها أسماء الانتصارات الشَّهيرة.

إيحاءاتٌ ملحميَّةٌ لم تفلح في زجر عصافير الدُّوريِّ التي اختارت

السَّارياتِ مُستراحًا لها قبل أن تصعد لتواصل زقزقتها قبالة قضبان النَّوافذ في الطَّبقة العليا. هناك، على حوافِّ النَّوافذ، تنتظرها، مطلعَ كلِّ فجرٍ، فتافيتُ الخبز المنثورة بسخاءٍ من قبل المساجين. ومن هناك، لأنَّها أصبحت أليفةً وجريئةً، تنسلُّ بين القضبان إلى الزِّنزانة الأكثر ترحابًا، وقد تنقرُ الفُتاتَ من راحة يدٍ أو تلهو على رأسٍ حليق الشَّعر أو قد يغلبها الفضول فتروز بعينٍ فاحصةٍ أحقر الأشياء التي تصادفها... إلى أن تناديها مجدَّدًا زرقةُ السَّماءِ فتقفز هاربةً، هي القادرة على الفرار، بضربة جناح.

حُجَيرات الحبس. فلنتحدَّث قليلًا عن حُجَيرات الحبس.

متطاولةٌ صمَّاء، مع فتحةٍ واحدةٍ في أعلى الجدار المقابل للباب، فتحةٍ يمكن الوصول إليها بمعونة يَدَي شخصٍ تُبسطان كمرقاةٍ، وتطلُّ بمشقَّةٍ على زاويةٍ غائمةٍ من الباحة السُّفليَّة، لأنَّ فتحات الإنارة، جميعها، جُعلت منحنيةً عمدًا للحدِّ من مجالِ الرُّؤية.

الأرضيَّة، ثلاثة عشر شبرًا بسبعة عشر. مبلَّطةٌ بإحدى وخمسين لوحَ قطرانٍ، تُحْصَى واحدًا تلوَ الآخر، مرارًا وتكرارًا تزجيةً للوقت، ومن صفاتها أنَّها تجعل المرء يتصبَّب عرقًا في الحرِّ وفي البرد. ثمَّ أربعة مقاعد مائلةٍ تُسنَد إلى الجدار نهارًا، وتُرخى متقابلةً مساءً، مفسحةً ممرًّا ضيِّقًا فيما بينها، ميدانًا لمعاركَ مسائيَّةٍ تتصادمُ فيها أشدُّ المشاعر تناقضًا وتتفجَّر: غضباتٌ عمياء ومراوغاتٌ يائسة.

سراجٌ، تنير شعلته الخافتة رمياتِ النَّرد، يتدلَّى من دسارٍ مثبَّتٍ في الحائط، وفوقه، مُلصَقةٌ باللُّعاب وفتات الخبز، صورةٌ لعذراء الشَّفاعة

التي تصغي إلى تناوباتٍ من تثريبٍ وصلوات؛ مسوَّدةٌ بالسُّخام، ملاذٌ لعناكب صغيرةٍ تدين بنجاتها لا لشفاعة العذراء بل لكسل المساجين.

رطبةٌ الجدران، مرتخٍ مِلاطُها، بما يكفي لفصل رقاقةٍ من الجصِّ للتَّشاغل برسمِ أشكالٍ على الأرضيَّة، إلَّا إذا مالَ أحد النُّزلاء، وهو يعلم جيِّدًا أنَّه لن ينجز ما همَّ بإنجازه، إلى صنعِ قبَّعةٍ من القشِّ مُستعينًا بقشِّ الفراش...

أمَّا الأثاث فأزهدُ ما يكون: أربعة جذوعِ حَجَرٍ بمثابة مقاعد، متجذِّرةٌ في الأرضيَّة تحسُّبًا لاحتمالِ أن تُستخدَم كأسلحة؛ وفي رُكنٍ جرَّةٌ مخدَّشةٌ بأشكال قلوبٍ وسكاكين؛ وبابٌ من خشب البلُّوط مشبَّكٌ بالحديد جُعِلَت فيه كوَّةٌ مستديرةٌ للمراقبة ولجولات التَّفقُّد المتواصلة، وشبَّاكٌ يُفتح من الخارج لتمرير قصعة الحساء ودَلْوِ الحاجات الطَّبيعيَّة، الدَّلوِ الذي تُفرَغُ محتوياته، تباعًا، في حوضين معلَّقين بعارضتين خشبٍ ليس من قِبَل رُسلاء أو جنودٍ بل من قِبَل مدنيَّين أو ثلاثةٍ محكومين بجُنَحٍ طفيفةٍ، سُعَداء، ولو مقابل مهمَّةٍ مقزِّزةٍ مثل هذه، لتمكُّنهم من ترويض سيقانهم سيرًا في الممرَّات الطَّويلة وتبادل بعض العبارات مع رفاقٍ لهم أتعس منهم حظًّا. حتَّى إنَّهم يجازفون أحيانًا بأن يصبحوا رُسلًا سرِّيِّين بين هؤلاء وهو الأمر الذي تعدُّه السُّلطات جريمةً لا تغتفر قد يدفعون ثمنها، وهذا شائعٌ، تحت وابلٍ من رصاص بنادق الفتيل. ولهذا لقِّب الحاكم باسمِ تلك الشَّخصيَّة الأوبراليَّة ذات الصَّوت الجهير التي طارت شهرتها أخيرًا: سبارافوتشيلِهْ[1].

(1) أوبِّرا «ريغولِتُّو» لجوزيبِّهْ فِرْدِي، عُرضت أوَّل مرَّةٍ على مسرح «لا فِنيتْشِهْ» في البندقيَّة، عام 1851. وسبارافوتشيلِهْ، بالإيطاليَّة، تعني بندقيَّة الفتيل؛ (ب.ح).

لا خبرَ عن المملكة والملك. وحدها ضرباتٌ على الحائط، مثل قرع طبولٍ بعيدةٍ، أنبأت النُّزلاء أنَّ الملكة وضعت وليَّ عهدٍ ميّتًا، وأنَّه إن حدث ومات الملك...

يعرفون أحوال البحر من اصطخاب الأمواج الذي يسمعونه إذا اشتدَّت الأنواء وجعلتها تتكسَّر على أساسات الجزيرة؛ ويعرفون أحوال السَّماءِ من فرجةٍ مواربةٍ على شكل فم ذئبٍ تسمح لهم برؤية مزقٍ متقاطعةٍ تتغيَّر ألوانها من الأبيض الورديِّ إلى الرَّماديِّ اللؤلؤيِّ بحسب تعاقب السَّاعات والفصول. يعرفون أحوال النُّجوم ومداراتها؛ ويعرفون أحوال غيمةٍ تظهر كلَّ ظهيرةٍ، ولأشهرٍ طوالٍ، في موعدها المحدَّد كأنَّها صورةٌ لأملٍ عنيدٍ، قبل أن تنحلَّ فجأةً مثل جديلة طفلةٍ تعدو؛ غيمةٍ، تتلاشى، آخر الأمر، إلى الأبد. يعرفون أنَّ أحدًا ما، وراء البحر، ما يزال يَذْكرهم، فبعد كلِّ شيءٍ، كان مُجازًا لهم (يا لنفاق التَّسامح!) أن يتلقَّوا، مرَّةً في الشَّهر، الهدايا على اختلافها: تبغٌ للغليون، ثيابٌ داخليَّةٌ، لوازم القهوة، ونسخةٌ متعدِّدة اللِّسان من الكتاب المقدَّس... وذات مرَّةٍ كان من بين الهدايا دواةٌ نحاسيَّة. عبثٌ محضٌ لسببين: أنَّ الحبرَ غير موجودٍ، وأنَّ الكتابة ممنوعة. ويعرفون، على وجه الخصوص، أنَّ «العناية» لم تخذلهم، ولكنَّها تتحرَّك ببطءٍ، وراء كَراسٍ بعيدةٍ، ساعيةً بين أختامٍ وتواقيع هي المآل نفسه لسيرتهم الدُّنيويَّة (طنينٌ في الأذنين ينبئ الصَّابرين أنَّ الفرج قريبٌ).

في انتظار ذلك يحلمون بالمملكة، بطرقاتها وغاباتها وسهولها المترامية حيث يلمحون، أحيانًا، خلال نزهاتهم على صهوة حصانٍ،

ثورًا مستوحدًا يجرُّ محراثًا، وخلفه خيالُ فتاةٍ عارية السَّاقين، على شعرها الأشقر منديلٌ معقودٌ، تلوِّح بيدها، فيجيبونها ملوِّحين بأيديهم، كأنَّها قبلةٌ باليدين... يحلمون بقاعات الغناء والمسارح بأنوارها المتدفِّقة على الأرصفة، بوجوه النِّساء في مقصوراتهنَّ تنضحُ عافيةً وصِبًا، برقصات الفالس، والمراوح الحرير، والعربات، والوداع المؤقَّت بعيونٍ تبحث في الزَّحمة عن العيون قبل فرقعة السَّوط مؤذِنًا، في اللَّيل، بافتراق المصائر... يحلمون بالنَّشوة المسعورة لجريان الحياة في عروقهم، نشوةِ الإحساس بجُمْعِ الأطراف مُجتاحةً بدمٍ معافًى، سخينةً بدفءٍ أليفٍ، منتفخةً بالكلمات والحكايات؛ في انسجامٍ قد يكون خالدًا!

ولكن عاجلًا أو آجلًا، في ساعةٍ من ساعات اللَّيل، سيجتاح كيانهم إحساسٌ بقلقٍ عميقٍ لن يُبدِّده أيُّ قمرٍ صديقٍ، فيوقظهم بِدِقَّةٍ عقارب السَّاعة ويذكِّرهم، واحدًا تلوَ الآخر، بعدد الأيَّام والسَّاعات والدَّقائق التي بقيت من عمرهم. يوقظهم ليباغتهم أوَّلُ شُعَيْعَاتِ الشَّمس البليلة وهم على تلك الحال، عيونهم شاخصةٌ إلى السَّقف، ملطَّخةٌ نصفًا بالأحلام ونصفًا بالخوف، مستغرقةٌ، بين عوارض السَّقف، في رسمِ خطوط القوَّة وخطوط الفرار، وتتبُّعِ نسيجٍ متشابكٍ من الأبواب المؤصدة والمنافذ التي سينعمون خلفها ببهجة انعدام الوزن، والجنون الهوائيِّ، وإحساسٍ بالتَّحليق يتَّصل في لغتهم الذِّهنيَّة، لا المحكيَّة ولا المكتوبة، بفكرةٍ عفويَّةٍ وبكرٍ عن الحرِّيَّة.



II

مَنْ وما[1]

من هم الرِّجال الأربعة وكيف آل مصيرهم إلى ما آل إليه؟ قال الحاكم كونسالڤو دي ريتيس في سرِّه بين نوبتين من السُّهام الظَّهريِّ على ضوء شمعة. غير أنَّ الإجابة لم تتطلَّب منه مُراجعة مكتبته العامرة بالمواثيق ومحاضر الاستجواب التي تعرض تفاصيل المؤامرة بدقَّة. ما كان عليه إلَّا أن يلقي نظرةً، بالعين الوحيدة المتبقِّية له، على بيان سيرة كلٍّ واحدٍ منهم وقد دُوِّنت بقلم كاتب المحكمة القدير ولا يُعوِزها لبلوغ صفة الكمالِ سوى مباركة التَّاريخ الأخير.

وإليكم ما ورد فيها بحسب ما أفادتنا به نظرةٌ اختلسناها إليها من وراء ظهره:

كورَّادو إنغافو: بارونٌ ليتويانيٌّ، يناديه رفاقه ديديمو، وهو رجلٌ في سنِّ الخبرة، متوسِّط القامة متراخي الهيئة. ذو وجهٍ متطاولٍ وهزيلٍ وملتحٍ. شعره كستنائيٌّ وَخَطَهُ الشَّيب. يبدو، في الظَّاهر، على قدرٍ من العذوبة، ولكنَّه، تحت القشرة، يميل إلى الأفكار الأكثر شذوذًا وجنونًا.

(1) دانتي: الجحيم: II18؛ (ب.ح).

سليل عائلةٍ نبيلةٍ، عاش في البلاط متبطِّلًا مسالمًا لسنواتٍ طويلةٍ، إلى أن استولت عليه ذات يومٍ نزوةٌ فجائيَّةٌ فحادَ في حقدٍ عن طريق أقرانه.

منذ ذلك الحين، قرَّر الرحيل، على خطى عددٍ من الرُّؤوس السَّاخنة الأخرى، إلى ما وراء الجبال حيث أصيب، كما يقال، بحمَّى التَّطرُّف وعاد بشوشَ الوجه، مخيفَ النَّظرةِ، ذربَ اللِّسان هو الذي عُرف عنه، من قبل، حبُّه للسُّكوت. وشاع عنه، فيما بعد، أنَّه، في اعتزاله، انتمى إلى العصبة التي عاثت في البلاد قتلًا وتخريبًا، وأنَّه أخلص لها حتَّى ارتقى أرفع المناصب وأصبح مساعدًا للزَّعيم المتواري الذي يسمُّونه «الأب السَّرمديَّ».

وإذ صار صعلوكًا وقاتلًا راح يجوب البلاد، غاباتها وطرقاتها، زارعًا الفتنة بين النَّاس بدعوى السَّعي إلى تخفيف معاناتهم. وقد تعذَّر العثور عليه واقتياده مخفورًا لسرعة تنقُّله على رأسِ عصاباتٍ بين الدَّساكر حيث يحظى بأعوانٍ ومتواطئين. حتَّى إنَّه تجرَّأ، مرارًا، على التَّسلُّل إلى العاصمة والتَّجوال فيها بخفَّة ثَعْلَبٍ مسيئًا لسمعة التَّاج.

ومع ذلك فقد تلقَّت السُّلطات معلومةً قد تسهِّل أمر القبض عليه وإن استغرق أمر التَّثبُّت من صحَّتها بعض الوقت: لقد صودف أنَّ المعنيَّ يُصاب بحالة غثيانٍ غريبٍ عند هبوب العواصف، حتَّى إنَّه يئنُّ ويختبئ في الخزائن، هربًا منها، مثل طفلٍ صغير. وقد عُمِّم الخبر على كلِّ صاحب نُزلٍ للإبلاغ عن أيِّ نزيلٍ يُشَكُّ في أمره.

ثمَّ بخطِّ يدٍ أخرى، وبحبرٍ أَحْدَث

ألقي القبض عليه وسط تجمُّعٍ في السَّابع من فبراير، بعد المذبحة مباشرةً، وقد أصيب بحروقٍ تسبَّبت بها شظيَّةٌ من الآلة الجهنَّميَّة وكانت ثيابه ما تزال مضمَّخةً برائحة البارود.

ثبتت عليه تهمة التَّآمر على الذَّات الملكيَّة، وحكمت عليه محكمة فيكاريا بالعقوبة العلنيَّة من الدَّرجة الرَّابعة في الثَّاني عشر من أكتوبر.

على أن يتمَّ التَّنفيذ في القلعة. بقطع الرَّأس يومَ...

ساليمبيني: شاعرٌ مزعومٌ، وواحدٌ من المتمرِّدين الأشدِّ ظلاميَّةً، واسمه الحقيقيُّ غير معروف. يبدو في الأربعين من عمره. يقول بعضهم إنَّه كورسيكيُّ الأصل من أجاكسيو، ويقول بعضهم الآخر إنَّه نابوليتانيٌّ من كازامِيتْشُولا. أمَّا مهنته فيقول بعضهم إنَّه عامل مطبعةٍ، فيما يزعم بعضهم الآخر أنَّه أستاذ. ولكنَّ الجميع يدعوه شاعرًا لأنَّه نظم بعض الأراجيز ضدَّ العرش والكنيسة سرعان ما تناقلتها ألسن البسطاء كأنَّها كلام الإنجيل.

ذربُ اللِّسان، رخوُه، وذو قدرةٍ على الإقناع بالشَّرِّ. رَبْعُ القامة، مهيبُ الطَّلعة، وإن مال قليلًا إلى البدانة؛ سَمحُ المحيَّا، ممتلئُ الملامح، ناضرُها، ضاحكُ العينين، مستديرُ الوجه، أمرد، أنثويُّ البشرة، شديد الاعتناء بمظهره، كأنَّه امرأة، ولا شيء قد يحول دون ذلك كما تؤكِّد أمثلةٌ كثيرةٌ. فمثلًا، عندما طوَّقه الجُنْدُ وأدركَ ذلك، لم يعمد إلى الفرار، بل طلب من مزيِّنه أن يسرِّح له شعره، وبعد ذلك تمكَّن، رغم كلِّ شيءٍ، من الفرار عبر الأسطح برشاقةٍ وجرأةٍ.

وإن دعت الحاجة كان مغامرًا لا يستهان به. فقد زعم ذات يوم أَنَّه يريد إصلاح نفسه واستسلم للقاضي سبيْتزي ووعده بأن يعترف بكُلِّ شيءٍ في حجرةٍ منعزلة. ومن هناك، اختفى متنكِّرًا في زيِّ امرأةٍ، بعد أن أعمى بصيرة محادثه بذرور الفلفل متظاهرًا بأَنَّه يقدِّم له تبغًا.

عاشقٌ للموسيقى، اعتاد ارتيادَ المقصورات والقاعات موزِّعًا شعاراته ومنشوراته التَّحريضيَّة. وعليه نُصح رجال الشُّرطة الجنائيَّة بالتَّحرِّي عنه في مثل هذه الأماكن.

ثمَّ بخطِّ يدٍ أخرى، وبحبرٍ أَحْدَث

ألقي القبض عليه بعد المذبحة بثلاثة أَيَّام، على درج دار الأوبِّرا ليلة افتتاح «الإخوة هوراس والإخوة كورياس».

ثبتت عليه تهمة التَّآمر على الذَّات الملكيَّة، وحكمت عليه محكمة فيكاريا بالعقوبة العلنيَّة من الدَّرجة الرَّابعة في الثَّاني عشر من أكتوبر.

على أن يتَّم التَّنفيذ في القلعة، بقطع الرَّأس يومَ...

آجيسيلاو مجهول الوالدين: جنديٌّ، ثلاثون عامًا، دَعيٌّ، تركته أُمُّه بعد ولادته على باب ديرٍ، وترعرع في ميتمٍ تمهيدًا لرسمه كاهنًا، ولكنَّه هرب قبل أن يتَّم السَّادسة عشرة وانخرط في الجيش تحت اسمٍ مستعارٍ مزوِّرًا تاريخ ميلاده. وهكذا شارك في الحرب المقدونيَّة الأخيرة تحت راية فيلق الرُّماة. غير أَنَّه، لمقته الطَّاعة العمياء، أثار حفيظة ضابطه المباشر، وفي ثورة غضبٍ قتله وعمد إلى التَّمثيل بأعضائه التَّناسليَّة، وتمكَّن من الفرار من أغلاله في أثناء الهرج الذي تسبَّب به هجومٌ

مباغتٌ للعدوّ. وعلى الأثر فُقِدَ أيُّ أثرٍ له قبل أن يظهر فجأةً في المملكة حيث شارك بتجريد عناصر من الحرس المدنيّ من سلاحهم في ثلاثة مواقع مختلفةٍ وأخلى السُّجون من نزلائها بإمرة البارون إنغافو الذي يقال إنَّه من أشدِّ أنصاره تحزُّبًا.

ذو مخيِّلةٍ جامحةٍ تُراوح بين الأمل الأكثر صبيانيَّةً واليأس الأشدِّ استكانةً؛ وعقلٍ منحرفٍ يلتذُّ بأيِّ موضوعٍ يكتنفه الغموضُ، اللّه، الدَّولة، الطَّبيعة البشريَّة... ولكن دائمًا في صيغة سفسطاتٍ جارحةٍ يستقي منها الحماسات من كلِّ صنفٍ ولونٍ: مرَّةً من تخرُّصاتٍ وحشيَّةٍ، ومرَّةً من تعبُّداتٍ غامضة. ونظرًا لمراسه الطَّويل في تدبُّر أنواع الفتائل والألغام وأنواع المتفجِّرات الأخرى، يُشتبه في أنَّه المدبِّر الأوَّل للانفجار الذي تسبَّب في إراقة هذا القدْر من الدِّماء عند المنصَّة الملكيَّة في السَّابع من فبراير، يوم اليوبيل. ضخمُ الوجه، ذو عينين وَعْليَّتين، وقامةٍ أميل إلى الطُّول. علامته الفارقة وشمٌ لحشرةٍ على ذراعه على جاري عادة البحَّارة.

ثمَّ بخطِّ يدٍ أخرى، وبحبرٍ أَحْدَث

ألقي القبض عليه في التَّاسع من فبراير في غرفةٍ في أحد الأنزال لجأ إليها بعد المذبحة.

ثبتت عليه تهمة التَّآمر على الذَّات الملكية، وحكمت عليه محكمة فيكاريا بالعقوبة العلنيَّة من الدَّرجة الرَّابعة، في الثَّاني عشر من أكتوبر.

على أن يتمَّ التَّنفيذ في القلعة، بقطع الرَّأس يومَ...

نَرتْشِيزو لوتشيفُورا: طالبٌ، لا تُعرَف سنُّه بدقَّةٍ، ولكنَّه فتيُّ الطَّلعة، وربَّما كان أصغر سنًّا ممَّا يبدو عليه. عُرف منذ نعومة أظفاره بطباعه النَّاريَّة المتمرِّدة على كلِّ سُلطانٍ أأرضيًّا كان أم سماويًّا؛ وبلغت وقاحته حدَّ الفضيحة أحيانًا في المقاهي والأماكن العامَّة، ولكن في أكثر الأحيان خلال شعائر الزَّيَّاح والقداديس.

عَبَّادُ فينوسَ، ميَّالٌ إلى أفانين الغرامِ بصورته ذات الوسامة الغريبة التي تجمع بين الرَّهافة وقوَّة العضل، كما لو كان مزيجًا من هرقل وأبولُّو. عريض المنكبين، نحيل السَّاقين، أسودُ الشَّعر جَعْدُه، ولكنْ حليق القذال. مُواطئ ساليمبيني ومريده الوفيُّ، يعاونه في مساعيه كلِّها ليحظى منه، رغم حداثة سنِّه، بنعمةِ أن يسلك مراقي القبالة ويصبح عضوًا في مجلس المديرين الجمهوريِّين الذي يسمُّونه جميعًا، على سبيل الدُّعابة، محكمة التَّفتيش، ويشكِّل نوعًا من الهيئة الوسطيَّة بين القائد المستترِ والمريدين.

في آخر مرَّةٍ شوهد فيها عن كثبٍ كان يهمُّ بمغادرة قصر ليناريس الذي دخل إليه عبر نافذة الطَّبقة الأرضيَّة، إمَّا بهدف السَّرقة وإمَّا للقاء سيِّدةٍ ما، إذ يصعب الجزم بهذا الخصوص. وكان يرتدي، آنذاك، معطفًا من القماش الهنديِّ المشجَّر فوق قميصٍ أزرق فيروزيٍّ وبنطالٍ من الوبر الخام، وينتعل خفَّين أنيقين.

ثمَّ بخطِّ يدٍ أخرى، وبحبرٍ أَحْدَث

اعتُقل وسط المعمعة، في السَّابع من فبراير، بصحبة البارون. وعُثر معه على بطاقاتٍ كبيرة الحجم مسوَّدةٍ بأرقامٍ عربيَّةٍ كستارٍ للغةٍ سرِّيَّةٍ

مرمَّزة، وحين سُئل عنها أنكر ذلك مؤكِّدًا أنَّها مجرَّد ملاحظاتٍ خاصَّةٍ بلعبة اليانصيب التي زعم أنَّه كان شغوفًا بها؛ ثمَّ سخر من كاتب المحضر زاعمًا أنَّها رسائل غراميَّةٌ لا يسعه الكشف عن محتواها الفاحش احترامًا لأسماعنا الورعة...

ثبتت عليه تهمة التَّآمر على الذَّات الملكيَّة، وحكمت عليه محكمة فيكاريا بالعقوبة العلنيَّة من الدَّرجة الرَّابعة في الثَّاني عشر من أكتوبر.

على أن يتمَّ التَّنفيذ في القلعة، بقطع الرَّأس يومَ...

سئمَ الحاكم من القراءة. فاستلقى بثيابه على الكَنبَة منتعلًا فردتي جزمته اللَّتين بدا حرفاهما، هناك عند طرف الكَنبَة، كما لو أنَّهما لرجلٍ آخر، لجثَّة. راح يتفحَّصهما بعينه الوحيدة، وتراءت له، على طول حاشيتهما، نفحتان أو ثلاث من الطِّين اليابس («كم كان الشِّتاء مبكِّرًا هذا العام»، قال في سرِّه، «سوف يسمعني بالِسْترا... ما عادت له حميَّة الماضي، الحيوان... أيْ إلهي، أيُّ ألمٍ هذا في الرَّأس... لقد باتت أيَّامي معدودة...») أمَّا بعينه الأخرى، العمياء، المستترة تحت عصابةٍ، فراح يحدِّقُ في ظُلمةٍ ثابتةٍ يقيم فيها، منذ ثلاثين عامًا، النِّصفُ الآخرُ من حياته، النِّصفُ الحقُّ. أراد أن ينادي بالِسْترا باسمه، ولكنَّ صوته خانه؛ فلجأ إلى الجرس الصَّغير الموضوع على المنضدة القريبة منه، وراح يقرعه دونما توقُّفٍ حتَّى مَثَلَ الجنديُّ الوصيف أمامه، بقلقٍ كاذبٍ على وجهه، وجهٍ أفطس يليق بخادمٍ مطيعٍ لا أحد يدري، سوى اللّٰه، كم من الوقت سيلازمه بعدُ. ما جدوى أن يوبِّخه؟ يَعدِل عن ذلك، ويطلب منه أن يُحضر له النَّظَّارة ذات العدسة الواحدة والظَّرفَ الموضوعَ على

طاولة المكتب وأن يضعهما على الكرسيِّ بجوار السَّرير («الله وحده يعلم ما أعانيه من ألمٍ»، قال في سرِّه، «كأنَّ جُرَذًا يقرضُ نخاع عظامي... لقد باتت أيَّامي معدودة»). وأن يضع الشَّمعة في جهة عينه السَّليمة.

يسحب من الظَّرف ورقةً مشابهةً لسابقاتها سوى أنَّها مربوطةٌ بخيطٍ خاصٍّ. وقبل أن يفكَّ عقدة الخيط يُعاوده الألم لاويًا فَمه، نافيًا ذهنه من الغرفة، موسِّعًا عليه جدرانها...

يتراءى له أنَّه يسير في حديقةٍ من زمنٍ سحيقٍ، بين وشائع من الدِّفلى المزهرة، في هواءٍ عاطرٍ وخفيف. الممرُّ ضيِّقٌ لا يتَّسع إلَّا لعبور شخصٍ واحدٍ، ما يمنحه إحساسًا بالطُّمأنينةِ والغبطة كطفلٍ يلعب الغُمَّيضة. يسير نحو وجهٍ ينتظره، وجه زوجته، في لقائهما الأوَّل، أمسيةَ الحفلة الرَّاقصة لدى آل لانتْشيِيرِي، وجهٍ صغيرٍ، قلقٍ، ومُشرقٍ بين خفقتَي مروحة. «قبِّلني»، يهمسُ صوتٌ في أذنه فيهرع إلى هذه القبلة، ولكنَّه يُحِسُّ تحت شفتيه بشفتين مُشقَّقتين بالقروح وقشور الدَّم المتخثِّر، فيجفل مبتعدًا، مرتعدًا لشدَّة هلعه، ويبتلعُ ظلٌّ قامة المرأة المحدودبة، ولكن قبل أن يبتلعها الظِّلُّ تقول صارخةً: «سأعرف كيف أجعلك تدفع الثَّمن يومًا ما!» مشيرةً بيديها من بعيدٍ كأنَّها تشدُّ على خناقه حتَّى الموت.

عندئذٍ يشعر بأنَّ الأرض تحت النَّباتات تتلاشى. وإذا به يهوي، ببرقٍ ومضاتٍ سوداء، إلى قعر شَرَكٍ، بئرٍ طافحةٍ بمطرٍ أحمر من نبيذٍ أو دماء، لا يدري، يغوصُ فيها وسط دفقاتٍ هائلة. يضرب الأرض بكعبيه فيطفو على سطحها: يحاول السِّباحة بضرباتٍ متتابعةٍ كبيرةٍ، ولكن كلَّما ازداد

سعيه، ازداد غرقًا... وفي هذه اللَّحظة، يستيقظ وقد ابتلَّت ثيابه، كأنَّها غمِّست في حوضٍ، من العرق.

«يا قلب يسوع الأقدس، يا قلب يسوع»، يقول متضرِّعًا بلا صوتٍ وبأظافره المرتعدة يفكُّ أزرار ثوبه، وإذ تعلق أربطتها في العروات ينتزعها انتزاعًا.

نابُ الألم لا يتوقَّف عن نهش عظامه. لا، ما عاد اضطراب الأنسجة الحرون عَرَضًا زائلًا، بل غدا ثمرة نيَّةٍ خبيثة. يعضُّ برفقٍ على إحدى يديه دون أن يغرز أسنانه، وباليد الأخرى يفكُّ حزام سرواله ويُعرِّضُ أسفل بطنه للهواء كأنَّ ما يفعله قد يُخرِجُ شيئًا من آلامه. فمن المؤكَّد أنَّ أحدًا ما، جُرَذًا أو إلهًا، يضمر له شرًّا ويجعلُ أيَّامه، عَمْدَ عينٍ، عرضةً لهذا التَّناوب بين تشنُّجات الألم وهدناته. فخيرٌ له، خيرٌ له أن يشايعه، أن يعتاد العيش مع الألم بفرضهِ عادةً في أجندة أيَّامه...

إلَّا إن كانت الصَّلاة هي الشِّفاء...

يمرِّنُ شفتيه على الهمس بصلاةٍ كأنَّه ينتشل ألفاظها من أعماقٍ منسيَّةٍ، «أبانا»، يتلو متمتمًا، «الذي في السَّموات...»، ولكنَّه يسهو عن التَّتمَّة، فذهنه شاردٌ خلفَ ظلِّ أبٍ آخر، ذلك الأب السَّرمديِّ المحتجب بظلالِ هؤلاء المحتضرين الأربعة.

«كلُّكم معافىً»، ابتسمَ شاحبًا، «ولكنَّكم ستموتون قبلي».

ثمَّ يفك الخيط ويضع نظَّارته ذات العدسة الواحدة ويعاود القراءة بصوتٍ رتيبٍ محايد.

التُّهم الموجَّهة على لائحة التَّحريم

إلى شخصٍ مجهولٍ

يسمَّى، في الأوساط الشَّعبيَّة، **الأب السَّرمديَّ**

المدبِّر الأوَّل والرَّئيس للمؤامرة، وهو الذي رسم خططها وحرَّك خيوطها في الخفاء، وهو، على ما تؤكِّده بعض الإفادات والشَّائعات التي يردِّدها الرَّأي العامُّ، المقنَّعُ الذي يتعهَّد المريدين ويَسِمُهم بإبرةٍ وفق ميثاق الدَّم. وهو أيضًا من يصوغ الشِّعارات والأوامر، ويوزِّع المهامَّ، ويحدِّد الضَّحايا.

لا يعرفه شخصيًّا إلَّا الأعضاء الأربعة في محكمة التَّفتيش «أو اللَّجنة»، والذين يُعرفون أيضًا بـ «الإنجيليِّين»، وتربطهم به صلةٌ وَلَهٍ خرافيٍّ فيقدِّسونه بوصفه «الأب السَّرمديَّ»، ومن هنا اكتسب لقبه لدى العموم. لم يعترفوا بأكثر من ذلك رغم تعرُّضهم لأقسى طرائق التَّعذيب. غير أنَّ أقوال أحد المندسِّين الذي أقسم بأنَّه سمعه في العتمة، أفادتنا بأنَّ صوته ينضحُ بحرارة المدائح والحثِّ الكاذب على فعل الخير، ولكنَّه يتهدَّج أحيانًا، لعيبٍ حقيقيٍّ أو تمثيليٍّ، فيبدو مكتومًا بلعثماتٍ غير مسموعة.

ثمَّة شائعةٌ راجت تلفيقًا وتقول إنَّه ينتمي إلى طبقة الأشراف من أهل البلاط، ولكنَّه شغوفٌ بالقمار غارقٌ في الدُّيون. وشائعةٌ أخرى، أشدُّ هولًا وسخفًا، بلغت هيئة المحكمة عبر رسائل مغفلةٍ تزعم أنَّ الكشف عن هويَّته أمرٌ ممكنٌ إذا ما...

يلي ذلك سطرٌ مشطوبٌ تتعذَّر قراءته، فيقول الحاكم في سرِّه: «إنَّ كاتب المحضَر حصيفٌ حقًّا؛ يدوِّن في البداية ما ينبغي أن يدوِّنه بحكم الواجب، ثمَّ يشطب ما دوَّنه كأنَّ نارًا أحرقت أصابعه. إلَّا إن كان، هو أيضًا، مصابًا بلوثة أهل التَّسامح التَّحرُّريِّين، كما قد يُخيَّل للنَّاظر إلى الشَّعر المُرسَل على ذقنه...».

في غضون ذلك كان الألم قد خمد. أو لم يَبْقَ منه سوى المحلِّ الذي يحفظ ذكراه، مثل وجع طفلٍ لا يبرأ إلَّا بالملامسات المداعبة. بإمكانه أن ينهض فينهض. يسوِّي العصابة فوق عينه المطفأة، ويتوجَّه إلى طاولة المكتب حيث يضيف بخطِّ يده بضعة أسطرٍ على الورقة التي يثنيها فيما بعد ويعيدها إلى الظَّرف. بعد ذلك يتفحَّص مظهره في مرآة الخُوان، راجيًا أن يعثر على سرٍّ ما في سيماء وجهه، ثمَّ يغادر بخطى عجوزٍ متثاقلة.

III

المفاوضات

خفَّ الجِلوازُ ليتشاردِلُّو مَرِحًا وحلقة المفاتيح متدلِّيةٌ على بطنه. لم يكن ليتوقَّع، بعد ثلاث طقَّاتٍ في قفل الباب، أن يجد السُّجناء جالسين كلٌّ في مكانه والقصعات ما تزال ملآنةً بين رُكَبهم. ملآنةً ولكن غير صالحةٍ كما لاحظ بكثيرٍ من الأسف، لأنَّ المحكومين كانوا قد نثروا رماد سجائرهم فيها وأطفأوا الأعقاب في مرقتها.

كان قد ترك الباب وراءه مفتوحًا وتقدَّم بحذر. فقد سمع مرارًا عن نزلاء عمدوا، في غمرة يأسهم، إلى الثَّأر من سجَّانيهم مستخدمين أيديهم التي قد تصبح أسلحةً فتَّاكة. لذا كان قد علَّق بزنَّاره سوطًا وأوقفَ في الممرِّ رَسِيلًا مسلَّحًا على أهبة الاندفاع عند أدنى صرخة.

«يا للخسارة، هذه نعمةٌ من اللّٰه»، قال دون أن يخاطب أحدًا بعينه، ثمَّ راح يفرغُ محتوى القصعات، واحدةً تلوَ الأخرى، في برميلٍ صغيرٍ ذي عجلاتٍ يجرُّه أمامه مثل عربة.

كان الأربعة جالسين على الجذوعِ الحَجَرِ وقد أُلبِسُوا لاحتفال الغد زيًّا موحَّدًا من الكتَّان الخشن المُسدَل حتَّى أقدامهم كثوب

راهب. وكانوا كعادتهم قد دسُّوا خرقًا من القماش بين أرجلهم وبين أطواق القيود الخشبيَّة اجتنابًا للخدوش عند العَقِبَين، ومكثوا صامتين لا يحرِّكون ساكنًا، غافلين عمَّا قاله الجِلواز: «ستجوعون في اللَّيل. فسهرةٌ كهذه لا تنقضي بسهولة»، فأشار البارون بيده مقاطعًا ومودِّعًا في آنٍ واحدٍ.

كان يهمُّ باجتياز العتبة حين استدار ليقول: «سيعرِّجُ الحلَّاق في وقتٍ لاحقٍ ليحلق رؤوسكم. ولا داعي لخروجكم أو لدخوله. ستمرِّرون رؤوسكم، واحدًا تلوَ الآخر، من شبَّاك الباب».

التفت ساليمبيني إلى نَرتْشِيزو مكتئبًا: «عمَّا قليلٍ سيُقَصُّ هذا الشَّعر، يا فيدون»، وداعبَ شعره بكثيرٍ من الحنوِّ الأبويِّ. غير أنَّ أصواتًا مبهمةً عَلَتْ وسُمِع وقع أقدامٍ في الممرِّ.

دفع الحاكم الباب ودخل. ولطول قامته كان عليه أن ينحني قليلًا. وما لَبِثَ أن عبَّر بنامَّةٍ من أنفه عن نفوره من رائحة التَّعرُّقِ اللَّاذعة التي مازجت الجدران. وفي اللَّحظة عينها، لمعت بوضوحٍ، من خلال المصراع، بنادقُ ثلَّةِ المواكَبة، فيما وقف الرَّسيلُ متأهِّبًا لصق الحائط.

لبث ليتشاردِلُّو جامدًا في مكانه، مبهوتًا من الزِّيارة غير المتوقَّعة، ومتردِّدًا بين واجب أداء التَّحيَّة وواجب اللِّياقة الذي يدفعه إلى إخفاء وعاء الفضلات الذي يُمسك بمقوده خلف ظهره.

ولكنَّ الحاكم أردف نامَّةَ الأنف تلك بالعبارة: «أنت، غادر هذا المكان، وليغادر الجميع. دعوني وحدي مع السُّجناء». وبرفسةٍ من قدمه أغلق الباب دون الممرِّ المضاء بأنوارٍ خافتة.

ظلَّ الأربعة جالسين، ولكنَّهم شعروا في قرارة أنفسهم بشيءٍ من الاضطراب. ذلك أنَّهم كانوا يعرفون الزَّائر جيِّدًا، يعرفون لقبه وصيته وشخصه؛ ولكن لا يعرفون صوته، إذْ لم يتسنَّ لهم من قبل إلَّا أن يلمحوا الرَّجل صامتًا، مُتْرَبَ السُّحنة، خلال جلسات التَّعذيب على المنصبة. ومع ذلك فإنَّ كلَّ طارئٍ في حالتهم اليائسة لا يمكن إلَّا أن يكون موضع ترحيبٍ من قِبَلهم طالما أنَّه ليس هناك أسوأ من الأسوأ؛ ومجرَّدُ تكبُّده مشقَّة المجيء لرؤيتهم بلا خوفٍ من الانفراد بهم دون حراسةٍ، كان كفيلًا بدغدغة عروقهم، بتشويشها بشعورٍ لا يمكن أن نسمِّيه، إن كان لا بدَّ من التَّسمية، إلَّا «أملًا».

مع ذلك قرَّر الرِّجال الأربعة بإجماعٍ غير معلنٍ فيما بينهم أن يجابهوا حضوره بلامبالاةٍ مطلقةٍ حتَّى لو كان يحمل إليهم عفوًا ملكيًّا مستحيلًا، ولبثوا صامتين ينتظرون حركةً منه أو عبارة. تصرَّمت دقيقةٌ ثمَّ دقيقتان. ما أتاح لهم أن يمعنوا النَّظر، وجهًا لوجه، في هذا الحاكم: نصف عملاقٍ، الذَّقن صهباء ومثلها السَّالفان، ولكن عند الرَّأس المصاب بالمرط بدا الشَّعر المتبقِّي أبيض على نحوٍ لافتٍ؛ أجنبيُّ المظهر يحسبه من يراه، لولا اسمه المحلِّيِّ، قادمًا من سويسرا أو ألمانيا بعد اجتيازه جبال الألب طلبًا للثَّروةِ في بلاد الجنوب. رجلٌ عسكريٌّ أجبره وهن جسمه على البقاء في جزيرة النَّفي هذه محتفظًا بأبَّهةِ المسرحِ العسكريِّ وخيلائه إلى حدِّ اللَّعبِ، غالبًا، ألعاب الحرب، مستنفدًا مخزون الذَّخيرة في عمليَّات تدريبٍ على صدِّ الإنزالات البحريَّة والدِّفاع، ومستدعيًا هيئة أركانه في أوقات الطَّعام للانعقاد تحت سقيفة أوجاعه.

هذا من حيث الرَّونق الخارجيِّ. ولكنَّ أمورًا أخرى كانت تُروَى عنه؛ عن قسوته وعن براعته خصوصًا إبَّان حصار سكوتاري. وراجت شائعاتٌ مفادها أنَّ وسواس المرض الذي يعاني منه الآن ظهر لديه، للمرَّة الأولى، إثر وفاة زوجته التي أحبَّها حبًّا جمًّا، وأنَّه تفاقم إثر التَّسوُّس الذي ينخر عظامه منذ سنواتٍ طويلة. ولكن المؤكَّد أنَّه، حين لا تؤرِّقه الأوجاع ويحظى بقسطٍ من النَّوم، يكون قادرًا على الخوض في الأحاديث الحماسيَّة والرَّزينة التي تليق بفيلسوفٍ وليس بضابط.

كان السُّجناء الأربعة يعرفون ذلك، فانتظروا، ليس من دون نزقٍ باطنيٍّ، أن يبدأ كلامه.

كانوا جلوسًا وكان واقفًا قبالتهم يُطلُّ عليهم من علياء قامته. وبدأ كلامه على النَّحو التَّالي: «إنِّي أحمل إليكم ما حمله ذلك الرُّومانيُّ في ثنية تُوْجَتِهِ إلى قرطاجة، السِّلم أو الحرب، الحياة أو الموت. أنا أعرف مقدار شجاعتكم وأقدِّرها عاليًا. نَفَرٌ قليلٌ من النَّاس يلوذ بالصَّمت كتمانًا لآلام الجسم. ولكن حيث تُخفق الخوذةُ الحديدُ أو الآلة الملائكيَّة، قد يكون الميثاق الذي جئتُ أقترحه عليكم أوسع حيلةً وأعمق أثرًا. لأنَّ الخيار هذه المرَّة لن يكون خيارًا بين الموت والعار، بل بين ضربين من العار، أحدهما ينطوي على خلاصكم والآخر على هلاككم». توقَّف فجأةً عن الكلام وعضَّ على شفتيه، ثمَّ أردف قائلًا: «لقد قرأت عددًا كبيرًا من المؤرِّخين القدامى، فاعذروني. بكلامٍ أقلَّ رطانةً وأشدَّ جفاءً أقول لكم: أسرُّوا إليَّ باسم قائدكم. وبالطَّبع لست أطلب منكم أن تخونوا فكرةً بل أن تخونوا رجلًا، مجرَّد رجلٍ، وعلى نحوٍ تبقى معه

خيانة الخائن خافيةً ليس على الآخرين فحسب، بل عليَّ أنا أيضًا، فلا يُضطرُّ إلى الاحتقان خجلًا إلَّا من نفسه وفي أعماق نفسه، وأحْسَبُ أَنَّه، بحساب الطَّبيعة البشريَّة التي أعرف، سيكون عارًا عابرًا. بالمقابل أعدكم، باسم صاحب الجلالة، وأنا هنا قائِمْقَامُهُ المأذون، بعفوٍ عامٍّ يشملكم جميعًا، وبالنَّفي إلى مستعمرات الأرجنتين، ريثما تهدأ الأمور هنا، مع ضمان حقِّكم، متى شئتم، بالعودة إلى الوطن».

لم يحظ بأيِّ جوابٍ فأردف قائلًا: «أمامكم اللَّيل بطوله: ثماني ساعاتٍ للتَّفكير مليًّا فيما إذا كان الخلاصُ أو وهمُ المجدِ أكثر ملاءمةً لكم. فإن كان هذا الميثاق يرضيكم، إليكم الخطوات المتَّبعة: لقد جرت العادة أن يقضي المحكومون بالموت ليلتهم الأخيرة بلا قيودٍ أو أصفاد، خارج الزِّنزانة، في مصلًّى في الطَّبقة الدُّنيا حيث ينتظركم كاهنٌ. عمَّا قليلٍ ستُقتادون إلى هناك وتجدون مدعوًّا خامسًا إلى حفل يوم غدٍ، وأسرَّةً مريحةً للجميع، وعلى طاولةٍ خمسَ أوراقٍ بيضاء لكم أن تدوِّنوا عليها ما شئتم، ولكنِّي أشير عليكم بألَّا تفعلوا ذلك إلَّا في اللَّحظات الأخيرة، كلٌّ بحسب ما يرتئي، فإمَّا رسمُ علامة الصَّليب كإشارة رفضٍ، وإمَّا كتابةُ الاسم الذي أطلبه منكم. ثمَّ تدسُّون الأوراق في صندوقةٍ مقفلة. وغدًا صباحًا إن عدتُ ووجدتُ أربع علامات صليبٍ تموتون؛ أمَّا إن وجدتُ ورقةً واحدةً تحمل الاسم الذي دوَّنته يدٌ سوف تبقى طيَّ الكتمان، فسيُفرَج عنكم جميعًا ولن يعرف أحدٌ مَن منكم الخائن».

في تلك اللَّحظة بصق البارون على الأرض أمامه، وحذا الآخرون حذوه. فقال سبارافوتشيلِهْ دونما انفعالٍ: «كنت أتوقَّع جوابًا مشرِّفًا قد

يغدو مثلًا بين الأمثال. كأن يُقال: *إنَّ هذا لا يسبِّب الألم يا بيتيوس*[1]؛ أو ربَّما: *اعلمْ أنَّ ما من خِسَّةٍ أشدُّ حقارةً من إيثار الحياة على الشَّرف*[2]... فمثل هذه الأجوبة تكون، على الأقلِّ، أكثر جفافًا»، وسحق بقع البصاق بنعله. «والحال أنَّ الاختبار مدبَّرٌ على نحوٍ تستحيل معه أيَّة مراوغة. ذلك أنَّكم في تملُّصكم تكونون قد ختنتم أنفسكم في قرارة أنفسكم إن لم يكن في ظاهر الأمور ووقائعها. فالشَّجاعة الحقَّة لا تكمن في التَّباهي العلنيِّ بالبطولة الجماعيَّة، ولا بالجهر بالإيمان الخجول مُبَاغَضَةً للآخرين. لقد رأيتُ آلافًا مؤلَّفةً من الجند الذين يموتون على هذا النَّحو في المعارك، مثل الخراف، وقد رصُّوا الصُّفوف حول رايتهم. الشَّجاعة الحقَّة تكمن في رفضكم هذا الإغواء عندما تكونون بمنأىً عن أنظار الآخرين، وحيدين أمام صمت ضمائركم: فعليكم في رفضكم العفو لا أن تلزموا الصَّمت، بل أن تعلنوا، إن تجرَّأتم، لاءَكم الجماعيَّة المدوِّية. وإلَّا حُملتم إلى منصَّة الموت وفي قلوبكم أفعى الشكِّ في أنَّكم جبناء، غاضبين لأنَّكم تموتون من أجل لا شيء».

«إنَّه مُحقٌّ فيما يقول!»، قال البارون فجأةً بعد برهةِ صمتٍ طويلةٍ. «أعرفُ قدِّيسًا عُرِفَ أنَّه لم ينتصر على شهوات الجسد إلَّا بعد أن نام بين راهبتين عاريتين، وعلى هذا النَّحو لن تتوَّج نهايتنا بهالةٍ إلَّا بشرط أن نبدِّد كلَّ شكٍّ».

نهض بمشقَّةٍ مغالبًا قيوده ورمق الحاكم بنظراتٍ فاحصةٍ من رأسه

---

(1) باللاَّتينيَّة في الأصل: «Petem mon dolet» (بلينيوس الأصغر؛ 3؛ 71)؛ (ب.ح).

(2) باللاَّتينيَّة في الأصل: «Summum crede nefas animam rarferre Pudori» (جوفينال؛ VIII؛ 83 ـ 84)؛ (ب.ح).

إلى أخمص قدميه: «يا سيِّدي وسيط الدَّم، ألنا الحقُّ بدل أن نرسم علامة الصَّليب أن نكتب بعض اللَّعنات الأكثر جرأةً؟».

أجاب الحاكم بنبرةٍ هادئةٍ خاليةٍ من أيِّ انفعال: «أميل إلى الاعتقاد، وعلى العكس ممَّا تقول، أنَّ واحدًا منكم على الأقلّ سيكون حكيمًا بما يكفي ليختار الحياة. بين كفَّتي الميزان، لا مجال للمقارنة: فعلى إحداهما النُّور، صِبا النُّور؛ واحتمال أن يقول الواحد في سرِّه: لقد كنتُ وهأنذا وسوف أكون؛ واحتمال أن يبقى لفترةٍ أطول بعدُ قطرةً فريدةً في بحر الوجود؛ وأن يكون ما يزال قادرًا على احتضان جسد امرأةٍ بين ذراعيه، وعلى تنشُّق عطر الزُّهور، وعلى الضَّحك والبكاء؛ وأن يقول في كلِّ لحظةٍ أنا، أنا، أنا... فهذا كلُّه على الكفَّة نفسها التي تزن وزن جبل. فيما لا يوجد على الكفَّة الأخرى سوى نفحة عدمٍ غير ملموسٍ، وَطَنٍ مُعْتمٍ للجميع، حيث كلماتكم: المساواة والحرِّيَّة والإخاء التي تبدو لكم اليوم حتميَّةً إلى هذا الحدِّ، لن يكون لديكم عقلٌ لتفكِّروا بها، ولا يدٌ لتكتبوها، ولا فمٌ ليقولها...».

ثمَّ صَمَت فجأةً، بينما مرَّ ضبابٌ عابرٌ في عينه المزرقَّة. أمَّا الفأر الذي استيقظ في رأسه فبدا، بعد قَرْضَتين أو ثلاث، موشكًا على الهدوء أو أنَّه هدأ بالفعل.

«ولكن أنتم»، سأله ساليمبيني، «أنتم الذين تنكِّلون وتغتالون، أتظنُّون حقًّا أنَّ قضيَّتكم أعدل من قضيَّتنا؟».

«أجل»، قال الحاكم بشيءٍ من الضِّيق. «ليس لأنَّها تذود عن عاهلٍ وعن مزاعمه الدُّنيويَّة، ولكن لأنَّها ترى إشراقة شارات اللّٰه على أيِّ عرش».

«حتَّى لو كان العاهلُ طاغيةً؟»، قال الطَّالب بحدَّة.

وذلك أجاب: «إنَّ الحَبْرَ يبقى حبرًا أعظمَ حتَّى لو كان عاصيًا. تمامًا كما أنَّ أفضلكم يبقى، على الدَّوام، خادمًا لإبليس».

باندفاعةٍ مفاجئةٍ طوَّقه الجنديُّ بذراعين كأنَّهما من فولاذ، ولكن دون أن يؤذيه، وسأل البارونَ بصوتٍ خفيضٍ: «هل أسحقه؟».

كانت نظرةٌ معاتبةٌ من البارون كافيةً ليرخي ذراعيه ويعود إلى مقعده. بدا وجه الحاكم ممتقعًا تحت المساحيق التي لوَّنت خدَّيه. وبعد أن تمالك نفسه، صاح قائلًا بنبرة وعيدٍ: «لقد بلغت السَّبعين من عمري، ولكن قبل عامٍ واحدٍ فحسب كنتُ سأقتلك بطرفة عين». ثمَّ مخاطبًا الآخرين بنبرةٍ أرادها أن تكون رسوليَّةً: «نعم، ليس على هذه الفانية سوى نائبين للّٰه. الملك والبابا. أمَّا أنتم فلستم سوى حفنةٍ من الدُّعاة والمهرِّجين في خدمة الشَّيطان؟ وتزعمون أنَّكم الشَّعب؛ وأنَّكم تسعون في الخفاء؛ وأنَّكم وضعتم تحت الأرض لغمًا أردتم أن ينسف بانفجاره كلَّ أعراف العالم القديم، وتقاليد التَّجربة، وقوانين ومراسيم الجمعيَّات والمجالس... لغمًا تسمُّونه حقوق الإنسان...».

قال ساليمبيني ناظرًا إليه: «وأنت أيُّها العجوز تريد أن تنتزع منَّا هذا السَّلاح؟ وباسم ماذا؟».

«بالنِّسبة إليَّ»، قال العجوز، «أنتم خطأ حسابٍ في جَبْر الخليقة. وعقابكم هو نشوتي وقدري الملعون. أن أعاقبكم وأن أُشفيكم بإزالة الفائض والخطأ اللَّذَين هما أنتم. ذلك أنَّكم إذا كنتم تصبون إلى الشَّهادة

صُبُوَّ المؤمن إلى تناول القربان المقدَّس، فإنَّ مُنْيَتي أن أكون قاضيها. أنا العدل والعقاب، سيفٌ بلا غمدٍ، جلَّاد المشيئة الإلهيَّة وجرَّاحُها، والأرض بأسرها، المضرَّجة دائمًا بالدِّماء، ليست سوى مذبحٍ هائلٍ حيث كلُّ حياةٍ ينبغي أن يُضحَّى بها، تكرارًا إلى الأبد، دونما كللٍ حتَّى نهاية الزَّمان، حتَّى موت الموت...».

غمغم البارون قائلًا: «هذه ليست أقوالك، حتَّى إنَّني أعرف قائلها[1]... إنَّك قارئٌ نَهِمٌ يا سبارافوتشيلِهْ...».

ولكنَّ هذا الأخير تابع قائلًا كأنَّه لم يسمعه: «لا أزعم أنَّني أحاول إقناعكم إذا كانت المقرعة المبلَّلة بالماء لم تخفِّف من غلوائكم. إنَّما جئت لأعرض عليكم هذا الميثاق وأقايضكم الحياة برجُلٍ. وجلُّ ما أطلبه أن يُسِرَّ إليَّ أحدكم بهذا الاسم، وهو، بأيَّة حالٍ، اسم مسيحٍ دجَّالٍ لا اسم أبٍ سرمديٍّ. فإن نلتُ مطلبي فلن يحول شيءٌ دون أن تكونوا غدًا، في مثل هذه السَّاعة، على متن مركبٍ مبحرٍ باتِّجاه المحيط. أمَّا إن أعرضتم عن ذلك فلن تكونوا سوى أربعة أبدانٍ وأربعة رؤوسٍ طيَّ جرابٍ في قعر البحر...».

«إيَّاك واستباق الأمور...»، قال الشَّاعر ساخرًا، فيما كان الحاكم، بعد أن أدَّى التَّحيَّة العسكريَّة مفرقعًا كعبيه، يسيرُ مُطرقًا نحو الباب.

«سأعود لرؤيتكم في زنزانتكم الجديدة عند الفجر»، قال قبل أن يغادر. «عندما آتي لفضِّ أوراقكم».

---

(1) جوزيف دو ميثر: «أمسيات سان بطرسبرغ: المحاورة السَّابعة»؛ (ب.ح).

«ستجدنا في المنزل؛ يمكنك المراهنة على ذلك!»، أجاب البارون مازحًا.

وعلى الأثر ناداهم الحلَّاق من وراء شبَّاك الباب: «مدُّوا رؤوسكم إلى الخارج، هكذا، كلٌّ بدوره. لن أطيل عليكم لأنَّ أصابعي رشيقة. أمَّا اللَّمسات الأخيرة فهي من شأن زميلي الذي سيأتي غدًا...».

كان آجيسيلاو مبادرًا إلى الانصياع بامتثالٍ غريب. وشوهدت قامته الفارعة وهي تنحني إلى الخارج، باذلةً لمقصِّ الحلَّاق غير المرئيِّ غابةً من الشَّعر الخشن أشبه بمُشَاقَة.

IV

آراءٌ في أوجه استخدام اللَّيل

دخلوا رتلًا إلى مصلَّى «الخطى الضَّالَّة» بحراسةِ ثلَّةٍ مسلَّحةٍ بإمرة رقيب. وكانوا قبل ذلك قد حُلُّوا من أصفادهم واقتيدوا إلى حجرة استحمامٍ حيث خلعوا ثيابهم واغتسلوا بمياه دلاءٍ كانت أيدٍ خفيَّةٌ تسكبها عليهم من فجوةٍ في السَّقف، وبصابونٍ أسود خشن الملمس. وها أصحابنا الأربعة، مدلوكين ونديِّين، ولكن مرتجفين لإحساسهم بأنَّهم أصبحوا عراةً من أوساخهم المُطَمْئِنة الحاضنة التي كانت لشهورٍ طِوالٍ بمثابة جلدٍ لهم، ها هم إذن، في مأواهم الجديد، زبائن ليلةٍ وحيدةٍ مهجوسةٍ بالأرق. بيد أنَّهم رفضوا بحزمٍ شفاعة اغتسالهم اللَّاحق بسرِّ الاعتراف، ما حدا بكاهن الاعتراف، تورلا، إلى الانصراف بلا رجعة.

وإذ لبثوا وحدهم هناك، راحوا يُجيلون النَّظر حولهم ليتعرَّفوا المكان. كان المطرح يفوق مرَّتين أو أزْيَد اتِّساعَ جُحْرِهم السَّابق، نظيفًا بمقدارٍ متواضعٍ، ومهوًّى بنافذتين على مستوى النَّظر وإن لم يخلُ الأمر من تدبيرٍ، ذلك أنَّ العينين لا تبصران عبرهما إلَّا الحيِّز الذي أقيمت عليه منصَّة الإعدام.

لصق الجدارين الطَّويلين المتقابلين وُضِعت أسرَّةٌ، ثلاثةٌ من كلِّ

جانبٍ، وفوقها صلبان؛ كانت الأسرَّة شاغرةً ما عدا واحدًا تكوَّمت عليه كتلةٌ لا شكل لها متقوقعةٌ على ذاتها كأنَّها نائمة، أشبه بتلك الدُّمى التي يدسُّها الفارُّون تحت أغطية الفراش لخداع حرَّاسهم. سوى أنَّ هذه الكتلة من لحمٍ ودمٍ، معصوبة الرَّأس بضماداتٍ ملطَّخةٍ بدماءٍ جافَّة.

«الأخ تشيريلُّو»، قال الرَّقيب قبل أن يغادر مشيرًا إلى الكتلة الخامدة. «سوف تنعمون برفقته مرَّتين: هذه اللَّيلة، هنا، وغدًا في جهنم». ثمَّ أغلق الباب وراءه.

لبث الرِّجال الأربعة يحدِّقون في النَّائم برهبةٍ، لا يجرؤون على تعكير نومه: فلطالما سمعوا عن أخبار هذا العجوز الرَّهيب منذ ولادتهم. حتَّى إنَّهم تساءلوا مرارًا إن كان من المجدي استمالته إلى صفِّهم لخوض حربهم متآزرين. قاطعُ طريقٍ دمويٌّ وورعٌ، لُقِّبَ بالأخ من قبيل الدُّعابة، تيمُّنًا بشبيهه القديم ميكيلِهْ بِتْزَا[1]. عاش في الغَيْنَة مقاومًا طوال أربعين عامًا، زارعًا البلاد خرابًا ونارًا. ويُقال إنَّه ذو ذكاءٍ خارقٍ، وإنَّه طيِّب المحتد، وإنَّه خلال غزواته للدُّيُورة وقصور الأثرياء كان يهرع، قبل الاستيلاء على المؤن والمجوهرات، إلى الكتب التي ينهبها وينكبُّ على قراءتها في ساعات الشِّتاء الكسلى في ملاذه في ثغور لاغوبيسولِهْ.

اعتقلوه أخيرًا على قيد الحياة، وفشا نبأ اعتقاله في أروقة القلعة وجحورها. إذ تناقلته من حائطٍ إلى حائطٍ برقيَّات المعتقلين المرمَّزة

---

(1) Michele Pezza، الملقب بالأخ ديافولو أو الأخ الشَّيطان (1771 ـ 1806). قاطع طريقٍ كالابريٌّ شُنق في نابولي. استوحى أُوبير شخصيَّته لتأليف أوبرا كوميديَّة ذائعة الصِّيت (1830)؛ (ب.ح).

إلى أن تناهت إلى زنزانة السُّجناء السِّياسيِّين؛ ولعلَّهم فوجئوا بأَنَّه نزيل زنزانةٍ لا تبعد عنهم أكثر من خطوتين وبأنَّ رأسه سيتدحرج مع رؤوسهم، ولكنْ أنَّى لنبأٍ، مهما كان مباغتًا، أن يُثير فضول هؤلاء الرِّجال الذين أصبحوا الآن مجرَّدين من أيِّ فضول؟

ارتمى المحكومون على الأسرَّة الحقيرة، وأغمضوا عيونهم. ليس رغبةً في النَّوم: فلا جدال في أنَّهم سيختلسون رمقًا إضافيًّا من الحياة إن سهروا طوال اللَّيل، بل لأَنَّهم أحسُّوا، بعد الاستحمام، بكسلٍ مباغتٍ يحفر في بطونهم الخاوية وأدركوا، أخيرًا، أنَّه الخوف.

إنَّه أشبه بعقدةٍ يحسُّونها بارتباكٍ عصيَّةً في أحشائهم ثمَّ لا تلبث أن تستحيل جسدًا طيَّ أجسادهم. ربَّما على غرار إحساس المرأة للمرَّة الأُولى، في صمت اللَّيل، بنبض جنينها الذي تحمله في أحشائها. والفارق أنَّ هذا الحِمْل المتنامي، والذي هو من لحمٍ ودمٍ، يؤلمهم: ورمٌ باطنيٌّ، كالفأر في رأس الحاكم، يستيقظ بين الحينٍ والآخر ويعضُّهم.

الرِّجال الأربعة خائفون. وربَّما كان لوطأة الخوف هذه أن تكون أخفَّ لو أنَّهم بقَوا في زنزانتهم السَّابقة. ولكنَّ هذه المجريات الأخيرة وغير المعتادة: جزُّ شعر الرَّأس، والاستحمام، والانتقال، هي التي كسرت اللَّازمن الفاتر الذي أفلح، حتَّى ذلك الوقت، في محو ذاكرتهم، وأخَّر بإيقاعه المتريِّث سرعة مجريات الحدث الجاثم على مداركهم. قبل ذلك اليوم لم يكن الموت في عيونهم أكثر من مأساة ممثِّلين يتحضَّرون لتمثيلها بعد لحظاتٍ، مع اتِّفاقٍ ضمنيٍّ على أنَّهم، بعد تصفيق المتفرِّجين والانحناء، لن يكون عليهم إلَّا أن يعودوا إلى

وراء الكواليس ليرتدوا ملابسهم ويعودوا إلى شخصيَّاتهم الحقيقيَّة. بينما يكتشفون الآن، دونما مقدِّماتٍ، أنَّهم لن يكونوا أنفسَهم بعد الآن، وأنَّهم لن يكونوا شيئًا على الإطلاق، ويشعرون في قرارة أنفسهم بحَلَكِ الظُّلمة الوافدة إليهم رويدًا رويدًا... ولكن ما لي أقول الظُّلمة؟ فالظُّلمة ليست سوى عمىً يمكنك معه أن تشدَّ بأصابعك العمياء على أصابع أخرى لا تقلُّ عمىً عن أصابعك، وأن تسلكا الدَّرب تلمُّسًا، جنبًا إلى جنبٍ، سواسيةً في ذكرى النُّور والتَّحسُّر عليه... بينما ليس الموت ظلمةً ولا نورًا، بل مجرَّد ذاكرةٍ ممحوَّةٍ، صدعٌ، غيابٌ تامٌّ، تحريقٌ بلا رمادٍ، حيث كلُّ ما كان، ليس فقط لم يعد كائنًا وأبدًا لن يكون، بل هو كما لو أنَّه لم يكن على الإطلاق...

كلُّهم، إذن، خائفون ويستلقون على الأسرَّة، الأقدم عهدًا في جهةٍ، والطَّالب في الجهة المقابلة تاركًا سريرًا فارغًا بينه وبين الأخ. وكان هذا الأخير قد فتح إحدى عينيه، من بين الضِّمادات، عندما سمعهم يدخلون، ولكنَّه عاد إلى انكفائه مرَّةً أخرى مستترًا بشرودٍ رخاميٍّ.

النُّور ساطعٌ في الحُجرة، فقد امتزج بصيص المغيب الذي تُقَطِّره النَّافذتان بأنوار أربعة مشاعل ثُبِّتت بحلقاتٍ فولاذيَّةٍ ومعها نور شمعةٍ مضاءةٍ تحت صورةٍ دينيَّة. حتَّى إنَّ آجيسيلاو غطَّى وجهه بمنديلٍ بعد أن عقد أطرافه الأربعة على نحوِ ما يفعل الحصَّادون اتِّقاءً لشمس الظَّهيرة، ثمَّ سرعان ما ضاق بما يحجب وجهه فنزعه عنه وعاد يحدِّق في السَّقف.

لبثوا على حالهم مستلقين، نحوَ ساعةٍ من الزَّمن، متفرِّسين في الطَّاولة الجاثمة وسط الحُجرة وعليها أدوات الكتابة، والأوراق،

والصُّندوقة المغلقة، أو «فم الحقيقة»، المشقوقة من أحد جوانبها مثل صندوق الحسنات، والمقفلة بمفتاحٍ ضمانًا للسِّرِّيَّة التَّامَّة... أي، باختصارٍ، كلُّ ما وعد به سبارافوتشيلِهْ.

إلى أن قال البارون بنبرة ارتيابٍ: «ماذا الآن، ألا ينبغي أن ننهي هذه المسألة؟»، ثمَّ نهض واقترب من الطَّاولة. ولكن ما إن همَّ بتحبير الرِّيشة حتَّى استدار ملتفتًا إليهم: «أم أنَّ من الأفضل أن ننتظر إلى الغد بحسب اتِّفاقنا؟» وعاد إلى مكانه. كان الآخرون قد نهضوا مثله، ولكنَّهم سرعان ما حذوا حذوه مجتنبين أن تلتقي نظراتهم، آملين، والشَّكُّ مشروعٌ هنا، أنَّ واحدًا منهم على الأقلِّ سيكون خائنًا غدًا، مع أنَّهم جميعًا كانوا يائسين من أن يجرؤ واحدٌ منهم على الخيانة.

في تلك اللَّحظة سُمعَ صوت تشيريلُّو ينبثق فجأةً من أسماله: «ماذا تفعلون؟ من أنتم؟ وماذا يعني كلُّ هذا؟».

بدا أكثر خمولًا من أن يفهمهم تمامًا، ومع ذلك عرَّفه الرِّجال الأربعة بأنفسهم وسألوه، بوجلٍ، عن حاله وإن كان ما يزال يعاني من جروح التَّعذيب.

لم يُحِر جوابًا، وراح ينظر عبر القضبان إلى آخر أنفاس النَّهار، إلى الأفق البعيد حيث كان نجمٌ قد بدأ يلتمع بالفعل، ولو بشحوبٍ.

«إنَّه لغريبٌ حقًّا»، قال الشَّاعر ناظرًا بدوره إلى الأفق، «كم يتشبَّث المرء بحضورٍ ما، حتَّى لو كان هو الأبعد والأوشك زوالًا، طالما أنَّه يوافق بدقَّةٍ فكرتنا عن الإخلاص. هكذا، عندما كنت ما أزال طليقًا،

كان يبهجني أنَّني عند مفترق الزِّقاق نفسه سأرى يافطة النُّزل نفسها في انتظاري، أو الصَّدع المتعرِّج نفسه في الجدار... وهذا بالضَّبط ما أشعر به الآن حيال نجمة المساء. يا نجمة المساء الشَّاحبة، يا صديقتي»، صاح بحماسٍ ساخرٍ ملوِّحًا بيده نحو السَّماء، «إنَّ الموشكين على الموت يقولون لكِ وداعًا!».

واقتداءً به رفع الجميع أعينهم إلى النَّجمة الباردة والبعيدة، هناك في الأعالي، ولكنَّ الفتى بدا حزينًا وعلى حافَّة البكاء. وإذا بالبارون يقول: «أنا أيضًا أشعر بالخوف، مع أنَّني، مُذْ أبصرتُ النُّور، كنتُ أعدُّ نفسي بين الأحياء عابرًا في حياةٍ عابرةٍ، فينبغي لذلك أن أكون أقلَّ أسفًا. وأذكر أنَّني اعتدت، خلال إقامتي في باريس، أن أقصد ساحة «غراف» مساءً لزيارة الأطياف. فلطالما كنت على يقينٍ من أمرٍ واحدٍ: أنَّ هذه الخالجة القويَّة ـ وهل هناك خالجةٌ أقوى من الشُّعور بموتٍ معلَّق؟ ـ تُلْقِحُ الهواء وتبقى مطبوعةً فيه إلى الأبد. بحيث أنَّني كلَّما ذهبت إلى ساحة «غراف» كنت أتنشَّق الهواء ملءَ رئتيَّ وأنا مغمض العينين، وإذا بشعبٍ من الظِّلال وقتلة الملوك وقتلة النَّاس واللُّصوص والزَّنادقة والأرستقراطيِّين يفدُ إليَّ ويُدانيني ضاغطًا على خاصرتيَّ، حتَّى إنَّه كان بمقدوري، لو شئتُ، أن أحصي الثَّنيات في باطن شفتَي أحدهم، وأن ألمح شِقَّ الشَّفة السُّفلى لدى آخر، وأن أرى النَّمش على جلد فتاةٍ صغيرةٍ، والبياضَ العاجيَّ على جبينٍ هَرِمٍ... ولكن فوق كلِّ شيءٍ، أن أشتمَّ في كلِّ ضحيَّةٍ رائحة خوفٍ وموتٍ، هي رائحتنا نفسها اليوم: رائحة طمثٍ وبول...».

تناهى إلى سمعهم صوتُ تقلُّب تشيريلُّو في فراشه. وتمكَّن أخيرًا، بشقِّ الأنفس وبنصفه العلويِّ فحسب، من النُّهوض مُظهرًا جانبًا ضئيلًا من وجهه الذي حجبت معظمه قلنسوة الضِّمادات: بؤبؤٌ واحدٌ ثاقبٌ وطيفُ ابتسامةٍ متغطرسةٍ بين شفتيه المتورِّمتين. كان صوته مبحوحًا من أوجاع الجروح، فجاء مخالفًا لتوقُّعاتهم ومصطنَعًا.

«أيُّها الأصدقاء، هذه الفجاجة، احتفظوا بها لأنفسكم. أمَّا أنا وأزعم، مخطئًا أو مصيبًا، أنَّني إنسانٌ ورعٌ، فأتوقَّع أن تفوح من رأسي المفصول عن جسمي، كما فاحت من الطَّبق الذي حمل رأس يوحنَّا المعمدان، رائحةُ الياسمين...».

كان في نبرة صوته الزَّائفة قدرٌ كبيرٌ من التَّشفِّي السَّاخر وتعمُّد الإيذاء قد لا توحي به كلماته التي بدت محايدةً في الظَّاهر، فشعر البارون بأنَّه مضطرٌّ إلى مواجهته.

«أنت، هناك، ما غرضك بالضَّبط؟ ما الذي جعلك بيننا؟ ولِمَ تموت معنا؟».

«وددتُ لو أطرح عليك السُّؤال نفسه»، قال هذا الأخير بفظاظةٍ موازيةٍ، «مَن أنتم ولِمَ تموتون معي؟ ولكنَّ الثَّابتَ يقينًا هو أنَّه لا أحد يختار ميعادَ الأجل وصَحْبَ الأجل عندما يحين. وربَّما كنَّا، أنا وأنتم، نستحقُّ أفضل ممَّا فُرِضَ علينا. ومع ذلك، يَحْسُنُ بنا أن نصبح أصدقاء: فالبغض الذي يجمعنا واحدٌ، وهو رابطٌ أوثق من رابط موتنا معًا».

«نحن نبغضُ الشَّخص نفسه»، أقرَّ البارون وهو ما يزال مضطربًا، «ولكن لأسبابٍ مختلفة».

«قد تكون أسبابي أفضل من أسبابكم»، قال تشيريلُّو، «ولكنَّ هذا ليس بذي بالٍ، ولا رغبة لديَّ في مقارنة أسبابي بأسبابكم أو في التَّدخُّل في شؤونكم. إنِّي أهزأ بأبيكم السَّرمديِّ بمقدار ما أقدِّسُ الأب الآخر، الحقَّ. لم أحارب الملك لأخدم ملوكًا آخرين. فكلُّ ما أردته هو أن يزول الفارق بين الكبار والصِّغار، وأن تحلَّ المساواة بين الجميع».

فَرَقَّتْ نبرةُ البارون: «مثل هذه الخطب سمعت الكثير منها، في بروكسيل، في مقهى «الألف عمود»، في أوساط المنفيِّين الباريسيِّين. ولكنِّي أتساءل عمَّا...».

قوطع كلامه بأصداء هرجٍ فاقترب من النَّافذة.

كان القمر قد لاح في البعيد منجلًا صغيرًا مقوَّسًا بين سحابتين بنفسجيَّتين رقيقتين، هناك حيث كان الغروب ما يزال يتريَّث في غروبه، ولكنَّ اقتراب إنغافو من النَّافذة لم يكن لأجل القمر: أطلَّ منها ورأى، هناك، حيث أقيمت منصَّة الإعدام، منجلًا آخر يلمع وقد اصطخب من حوله نفرٌ من النَّاس المنهمكين بالتَّثبُّت من حسن انزلاق الشَّفرة على السِّكَّتَين وحسن اشتغال النَّابض الدَّافع. لم يرَ الأمرَ بوضوحٍ ولكنَّه أدرك لدى سماعه مواءً حادًّا تبعه صمتٌ أنَّ أحد الواقفين اختبر حسن اشتغال المقصلة بتجربةٍ أخيرةٍ على هرٍّ. وقبل أن يتسنَّى له أن يلتفت مجفلًا صَفَرَتِ الشَّفرة في سقوطها على عنقه فأثارت همهمات استحسانٍ ضامنةً له أنَّ العمليَّة ستتمُّ، غدًا، على أحسن ما يُرام.

ارتعد الجنديُّ: «يُقال إنَّ شفرة المقصلة أرحم، ولكنَّني كنت

سأفضِّل، لن أقول ميتةً نبيلةً بتلقِّي الرَّصاص والبارود في صدري، ولكن على الأقلِّ حبل المشنقة...».

«دَعْكَ من هذا الهراء»، قال ساليمبيني. «لن يستغرق قطعُ الرَّأس أكثر من ثانية».

«أهو مؤلمٌ؟»، سأل الطَّالب وَجِلًا.

مضت لحظاتٌ من الصَّمت المطبق.

«علينا، بأيَّة حالٍ، أن نمضي هذه السَّاعات»، قال البارون أخيرًا. «والسُّؤال هو: هل سنمضيها صامتين أم نتطارح الأحاديث».

«ذات يومٍ»، قال الأخ تشيريلُّو، «انتشلتُ كتابًا من النِّيران في قلعة تورِّهْ آرْسَا. كتابَ شهواتٍ، ولكنَّه في الحقيقة مرعبٌ، عنوانه: الدِّيكاميرون...».

«إذنْ؟»، أجاب البارون. «إذا كان الموت طاعونًا، فهل نريد أن ننساه بسرد القصص؟».

«لا من سرد القصص، ولكن من الاعتراف، يمكن لبعض الخير أن ينشأ»، أجاب قاطع الطَّريق. «وبالطَّبع، ليس الاعتراف إلى أُذنِ الكاهنِ الشَّعْراء هو ما أقصدُ، بل الاعتراف إلى أنفسكم».

«وأيُّ نفعٍ ينالنا من ذلك؟»، سأل الجنديُّ.

«أن تعرفوا إن كان هذا المصير الشُّجاع خاتمةً مشرِّفةً، بالفعل، للحياة التي عشتموها، أو إن لم يكن سوى مجرَّد نشازٍ أو انحرافٍ مفاجئٍ عمَّا

هو مرسوم. وبأيَّة حالٍ، هذا شأنكم، وأنا لستُ منكم، ولن أتدخَّل إلَّا على الهامش...».

أعقب ذلك صمتٌ عميقٌ، وفي آخر الأمر، وبعد تداولٍ بصوتٍ خفيضٍ مع الآخرين، قال البارون: «أعطنا مثالًا واحدًا على ذلك ما دمتَ تدَّعي مثل هذا العلم. وإن كان الأمر لن يستغرق مئة يومٍ، ولا ألف ليلةٍ وليلة، بل مجرَّد عشيَّةٍ بائسةٍ هزيلة».

سارع تشيريلُّو إلى الإجابة: «لن أفرض عليكم أيَّة صيغة. فليسرد كلٌّ منكم حكايته. على سبيل المثال، متى وكيف، في هذه اللَّحظة أو تلك من سيرة حياته، شَعَرَ، اتِّفاقًا، بأنَّه سعيدٌ أو خُيِّل إليه أنَّه سعيدٌ أو بدا أنَّه كذلك في أعين الآخرين. ثمَّ، أيَّ صورةٍ يختار من ماضيه المهدور ليحفظها بين أجفانه لحظةَ تثبيت عنقه الفاني في حلقة المقصلة حين ستقطعه الشَّفرة الباردة بلمح البصر».

«هذا لا يناسبني»، قال الجنديُّ معترضًا. «فأنا لن أجد لحظة سعادةٍ أرويها. إن أردتم، قد أسرد لكم حلمًا ما، وليس ذكرى: كيف أنِّي أبلغ النَّشوة وأنا أقتل الملك كلَّ ليلةٍ بوسيلةٍ مختلفة؛ بأظافري، بسكِّين إسكافيٍّ، بمذراة فلَّاحٍ... ولكن دائمًا بعد أن يرتمي عند قدميَّ متوسِّلًا، لاعقًا الطِّين العالق بنعليَّ. وبعد أن تكون الملكة قد ضرعت متوسِّلةً، مُعْوِلةً، باذلةً عري جسدها عِوَضًا، فأجيبها، كما قد يجيب زوجها المتوَّج امرأةً بائسةً تتوسَّل إليه: «ستصابين بالزُّكام يا سيِّدتي، فارتدي ثيابك ولا تبذلي نفسك من أجل ابن زانيةٍ كهذا. سوف أقيم عشرة قداديس لراحة نفسه...».

«كنتُ سأُسَرُّ بانضمامك إلى عصبتي»، قال الأخ مذهولًا.

«إنَّه إعجابٌ متبادلٌ»، قال الجنديُّ. «لمن المؤسف حقًّا ألَّا نتعارف كما ينبغي. ذلك أنَّ كلَّ الأمور الغريبة التي تروى عنك كانت تستثير فضولي؛ مثلًا، أسلوبك، على ما يقول العامَّة، في الجمع بين الدِّين والبندقيَّة. ولَوَدِدْتُ حقًّا لو أعترف لك هذه اللَّيلة بدل أن أعترف للكاهن؛ وإن كنتُ أخشى أنَّ الغفران[1] الذي سأحظى به من الأخ الدَّجَّال الذي هو أنت ليس غفرانًا...».

«الاعتراف عبارةٌ تحمل قدرًا من المبالغة»، قال البارون مقاطعًا. «فالأحرى أن يسرد كلٌّ منَّا ما يرى، هو نفسُه، أنَّه خير تعبيرٍ، في نظر الآخرين وفي نظر نفسه، عن حقيقته الخاصَّة أو عن زُوْرِهِ الخاصِّ. وللمناسبة أقول إنَّ الخيار ينبغي أن يكون محصورًا. فلنسرد، أو إذا اقتضى الأمر، فلنختلق تفاصيل اللَّحظات الأشدِّ رسوخًا في ذاكرتنا. ولكنِّي أودُّ، على نحوٍ خاصٍّ، أن يُضفي هذا السَّردُ معنىً ما على مصيرنا، فنتمكَّن، بفضله، من إدراك سبب موتنا وننتهي بفرضيَّةٍ ما، على الأقلِّ، حول السِّرِّ الذي يكتنف مشهد الأشياء من حولنا؛ ونتمكَّن أيضًا من إيجاد عذرٍ يُبرِّئ فعلتنا أمام أعيننا أو أمام اللّٰه، قبل بزوغ الفجر. وإنْ لم نتمكَّن من بيان هذا المعنى، ولا المغزى من موتنا، فعندئذٍ أقول لك، مهما بدا في الأمر مفارقة»، والتفت إلى الفتى، «إنَّنا نفضِّل، بأيَّة حالٍ، أن نموت، أمَّا أنت فلك الحقُّ في إفشاء الاسم وإنقاذ نفسك...».

---

(1) الحلُّ من الخطيئة بحسب سرِّ الاعتراف الكنسيِّ؛ (ب.ح).

«أنا وحدي؟»، صاح نَرتْشِيزو مستفظعًا ما قاله البارون. «مرتدٌّ مثل القدِّيس بطرس؟».

«مثل القدِّيس بطرس»، أجاب البارون. «حتَّى قبل أن يعلو، عند الفجر، صياح المعتوه المحتجز في الطَّبقة السُّفلى». وبصوتٍ حييٍّ حاول أن يقلِّد صياح الدِّيك.

«إذا أراد أحدكم أن يبدأ...»، قال تشيريلُّو، «فليضع في حسبانه أنَّه لم يتبقَّ سوى خمس ساعاتٍ: أربعٌ منها لأحاديثنا، وواحدةٌ للصَّمت، حين يختلي كلٌّ منَّا بنفسه، مغمض العينين، قبل أن يُفتَح الباب».

قال قولَه هذا ونفخ على المشاعل، ولأنَّ ذلك لم يكن كافيًا، أطفأها مستعينًا بيده، ولم يُبقِ إلَّا على شعلة الشَّمعة الواهنة.

عندئذٍ قال الفتى في شبه العتمة السَّائدة: «إنِّي أَحْدَثُكم سنًّا وأقلُّكم صبرًا. ويبدو لي أنَّه من العدل أن أكون البادئ، ويتبعني الآخرون بحسب التَّرتيب الذي تختارونه».

لم يعترض أحدٌ؛ ولكنَّهم اجتمعوا، باستثناء الأخ الذي لازم سريره، على سرير الطَّالب.

V

روايةُ الطَّالب
أو
نَرتْشِيزو المُنتشَلِ من الماء

«إنَّ قصَّتي»، قال نَرتْشِيزو مستهلًّا سرده، «ستكون قصَّة حُبٍّ. سأقصُّ عليكم كيف استطعتُ، بعد أن كنتُ جاهلًا بهذا الشَّأن، أن أبتكر هذا الشُّعور وأشكِّله من أحد ضلوعي، ثمَّ أمنحه المعموديَّة والحياة بنزرٍ من أنفاسي. ذلك أنَّ الحبَّ، كما أراه، ليس نارًا تُقدَحُ بمقداحٍ يدويٍّ، بل هو اشتعالٌ مفاجئٌ للرُّوح التي فقط حين تستعرُ وتشتعل تبحث خارج نفسها عمَّن تَعْلَقُه. شعورٌ غامضٌ ممهورٌ بسِماتٍ يُناقض بعضها بعضًا إلى حدٍّ يجعله شبيهًا بتلك الآلام التي يُشار إليها بتسميةٍ واحدةٍ ولكنَّ أعراضها ومفاعيلها متنوِّعةٌ متقلِّبةٌ إلى ما لا نهاية. إلى أيِّ شفيرٍ أودى بي هذا الشُّعور؟ إنَّه أمرٌ لا يخفى على أحدٍ منكم: إلى الهلاك. ومع ذلك ليس لي أن أقبِّح أيَّ وجهٍ منه لأنَّني مدينٌ له بالسَّعادة مهما كان المعنى الذي تؤدِّيه هذه الكلمة. سأسرد على مسامعكم إذًا، كيف عرفتُ الرَّغبة والبُشرى، وكيف خبرتُ الخيبة والرَّجاء، منذ أعوامٍ بعيدةٍ؛ وما الذي فعلته لكي أختبره؛ وكيف

استطعتُ بفضله، أخيرًا، أن أعلم يقينًا من أكون. فتلك هي، قبل كلِّ شيءٍ، هِبَتُه. قبل ذلك لم أكن أحدًا؛ كنتُ أجهل مَنْ أكون. وبالحبِّ وحده تعلَّمتُ أن أتعرَّف وجهي وأن أعلم من أكون.

سأسردها عليكم من البداية. اعلموا أنَّني أنتمي إلى أسرة جوَّاخين ثريَّةٍ أقامت تجارتها مع أوروبَّا بأسرها. وكان أبي، الشَّرس والمستبدُّ بطبعه، يعود من أسفاره الطَّويلة إلى هولندا أو تركيا مصطحبًا، في كلِّ مرَّةٍ، امرأةً غريبةً مختلفةً يفرض استضافتها في داره إلى أن يحين موعد سفره التَّالي فيسافر بصحبتها. أمَّا أمِّي، وكانت امرأةً جميلةً، فقد أعياها تغيُّب زوجها المتمادي كما أعياها حضوره المُهين، غير أنَّها كانت تبادله صدَّه لها بمزيدٍ من الوَلَه به. وكانت تبذل ما بوسعها لكي تستدرجه إلى سريرها الزَّوجيِّ مؤمِّلةً نفسها بأن تنجب له، بعد الفتاة التي رُزِقها، الوريث الذَّكر الذي لطالما أراد أن يُرزَقه. وجاء الوريث، الذي هو أنا، والذي أبى أن يبصر النُّور إلَّا بموتها.

عِشْتُ طفولةً برِّيَّةً في داره المطلَّة على البحر الأدرياتيكيِّ، والملحقةِ، من جهتها الخلفيَّة، بحديقة عجائب. وكان رفيقا صبايَ شقيقتي، أولمبيا، التي بقيتُ دائمًا في عينيها قاتلَ أمِّه الأثيم، ومربِّيًا بلا عقيدة. أمَّا أبي فلم نكن نراه سوى مرَّتين أو ثلاث كلَّ عام، وقتَ ظهوره واختفائه، ودائمًا بصحبة نساءٍ يزددن غموضًا وتغريبًا بلغاتهنَّ العجيبة المستغلقة.

ولا أُجانبُ الحقَّ إذا قلت لكم إنَّني مدينٌ، على نحوٍ ما، بثقافتي للموسيقى: لقد استهوتني الموسيقى منذ أن عثرت، في العلِّيَّة، على

«علبة أنغامٍ» كانت لوالدتي؛ ومنذ أن سمعت أنغام بوق البستانيِّ غاسبارِهْ، وهو عازفٌ سابقٌ عمل لحساب أحد نبلاء البندقيَّة ورافقه في عددٍ من رحلات الصَّيد في مقاطعة برِنْتَا، وغاسبارِهْ هذا هو الذي أعطاني دروسًا في العزف على المزمار والبوق، في القبو أحيانًا، وفي العلِّيَّة أحيانًا أخرى. حيث يكون عزفنا الصَّاخب بعيدًا عن الآذان الفضوليَّة والألسن النَّمَّامة. ولم يمض وقتٌ طويلٌ حتَّى استغنيت عن الدُّروس، فكنتُ أذهب إلى الحقول المجاورة وأجلس في فيء شجرةٍ أو جدارٍ خفيضٍ عازفًا ما طاب لي العزفُ والتَّرداد. ساعاتٍ وساعاتٍ من السُّكر أمضيتُها على هذه الحال وكنتُ لأمضي الوافدَ من مثيلاتها لولا أنَّني، ذات يومٍ، صادفتُ، في أثناء تجوالي ولهوي في المرجة القريبة، فلَّاحةً شابَّةً تسوقُ فرسًا من لجامها. ورجتني بأن أهدأ قليلًا لكيلا أجفل الدَّابَّة واقترحت عليَّ في المقابل أن أرافقها وأُعينها على مسك الشَّكيمة. بدا لي أنَّها لعبةٌ جديدةٌ فقبلتُ طوعًا. عندئذٍ رأيت فحلًا مقيَّدًا بأربطةٍ تسمَّى «عُقُلًا» راح يشبُّ مستثارًا ما إن اشتمَّ ريح الأنثى الوافدة عليه، ثمَّ، بمعونة رجلٍ يحسن استخدام يديه، أولج جُرْدَانَهُ في حياء الأنثى الأحمر المحتقن متهالكًا على صهوتها؛ ولمَّا أَنْزَلَ فانفكَّ عنها تراخت عيناها وخطمُها في حزنٍ أوشك أن يكون بشريًّا.

ولم تترك هذه الواقعة أيَّ أثرٍ مباشرٍ في نفسي، لا بل أشعرتني بشيءٍ من الزَّهو الطُّفوليِّ. وإذ أصبحت شريكًا في لعبة الرَّاشدين شعرتُ بأنَّ من واجبي التَّكتُّم على ما رأيت والسَّعي بمفردي لأن أكتشفَ عِبرَ أيِّ الوشائع يدْفَعُنا الشُّعور بالحبِّ، والذي سَمِعتُ نتفًا عنه لا أكثر، إلى ممارساتٍ على هذا القدر من البهلوانيَّة والكآبة. ورحت أراقبُ،

لافتقاري إلى وسائل أخرى، سفاد الحيوانات الأخرى، من الكلاب إلى الذُّباب، الذي كان يجري علانيةً أمام أنظاري النَّهمة. وتكرارًا بدت لي الوقائع محمومةً ودميمةً ومنفِّرة. باستثناء تلك الصَّبيحة حين رأيتُ فراشتين مُتعانقتين متلاصقتَي الأجنحة، متهالكتين بنشوةٍ على كأسِ زهرة قنطريون.

في ذلك الوقت كان قد حلَّ ربيع السَّنة الثَّالثة عشرة من عمري، وكنتُ غالبًا ما أجدني مستندًا إلى جذع شجرةٍ، شابكًا كفَّيَّ خلف رقبتي، وقد وضعتُ البوق النُّحاسيَّ في سلامٍ على الأرض، أراقب عضوي الصَّغير ينتفخُ وينتصبُ عفويًّا ولا أجدُ قضاءً لشهوتي، في اللَّيلة المقبلة، سوى الإنزال دونما أحلامٍ في فراشي. ومع ذلك، انتابني إحساسٌ غريبٌ ذات يومٍ، وكان غاسبارِهْ مُتغيِّبًا، حين اضطررت إلى حلب عنزة. وفي يومٍ آخر حاولت أن أغتصبها لا لرغبةٍ ملحَّةٍ بل لمجرَّد فضولٍ بيولوجيٍّ فحسب. ولحسن الطَّالع لم أتمكَّن من ذلك، فقد طرحتني الدَّابَّة الشَّكِسة أرضًا بقفزةٍ مفاجئةٍ منها ووجدتني مطروحًا نصف عارٍ على عشبِ الحقل المندَّى...

عُقْبَ هذه الواقعة، وعلى بساطتها، فَقَدَتْ لفظةُ «حُبٍّ» في أذني رنَّتها السَّاحرة المحبَّبة، على غرار تلك الألفاظ اليونانيَّة التي ما إن تُلْفَظ حتَّى تُفضي إلى أسرارها. ونَفَرْتُ في أناشيد الشُّعراء، من كلِّ أولئك الذين تنضح أصداغهم بلهب الرَّغبة فتُكسبهم الرَّغبةُ سحنةَ أبقارٍ بلهاء، أو أولئك الذين يتمدَّدون، متعرِّقين ببلاهةٍ، بجانب امرأةٍ غريبةٍ بعد قضاء وطرهم منها.

ما عسايَ أن أقول أكثر؟ حين وجدتُني مُبعَدًا عن أيِّ احتمالٍ آخر، دفعتُ نفسي إلى الوقوع في حُبِّ نفسي. قِرْنٌ، إنْ كانت الأسماء بحقٍّ إرادةً إلهيَّةً، لنرسيس، ذلك الآخر الذي هلِكَ من عشقه لصورته المنعكسة على صفحة المياه. وغالبًا ما كانت شقيقتي تدخل عليَّ وتجدني عاريًا أمام المرآة، فتضربني بجماع قبضتيها بمزيجٍ من اللَّعب والجدِّ، وبكثيرٍ من الارتباك والفضول، لأنَّها هي أيضًا كبرت ونمت أحاسيسها وأصبحت، بطريقةٍ مختلفةٍ تمامًا عن طريقتي، راغبةً في اختبار ملذَّات الجسد. ما كان اضطرابنا ليخفى على أحدٍ، فحتَّى أبي، في فترات إقامته القصيرة، لاحظ ما آلت إليه حالنا، وقرَّر، توسُّلًا لحلٍّ معقولٍ، أن يستقدم مُربِّيًا يتدبَّر أمرنا. ولأنَّ إقامات الوالد بيننا باتت متباعدةً لا بل نادرةً، أصبح هذا الأخير مرجعنا وملاذنا. وعندئذٍ بدأت المغامرة التي سأقصُّها عليكم.

حدث ذلك في أحد أيَّام مايو. كان غاسبارِهْ يعزق أرض الحديقة فيما اختليتُ، جريًا على عادتي وخفيةً عن الأعين، في أعلى شجرةٍ مقتعدًا دُكَّةً مرتجلةً من تشابك أماليد وأغصان. أذكرُ أنَّني كنت أقرأ كتابًا دونما استغراقٍ، شاردًا متنبِّهًا إلى كلِّ حركةٍ أو صوتٍ، بعينين مغمضتين. وعندما فتحتهما مجدَّدًا كان الأجير قد انتحى فيء سقيفةٍ يمسح العَرَقَ عن جذعه الحاسر بخرقةٍ زرقاء. كان غاسبارِهْ خمسينيًّا، قويَّ البنية متينها، وبنحرٍ من خشب السِّنديان كما يليق بعازف بوق. فجأةً تظهر أولمبيا قادمةً من لا مكان، حذرةً رافلةً بثيابها الخفيفة. تقترب من السَّقيفة حينًا وتبتعدُ حينًا آخر، على غرار ما تفعل النَّحلة مداعبةً حضن زهرة. ثمَّ لمحتها أخيرًا تزحف نحو الرَّجل وأسرَّت إليه بأمرٍ ما ولكنَّه

مكث حائرًا مذهولًا ولم يُحر جوابًا. ولم يمض وقتٌ طويلٌ قبل أن تخلع ملابسها وتستلقي بقربه هو الذي بقي جالسًا. ما زلت أحمل في داخلي، كأنَّها جثَّة فتاةٍ غريقةٍ، صورةَ بطنها اللؤلؤيِّ، البيضويِّ قليلًا، الذي ازدان، عند مُنْشَعَبِ السَّاقين، بزغب جروٍ حديث الولادة.

كان وجه غاسبارِهْ قد تلوَّن، في تلك الأثناء، بلون السُّكْر المُراوِحِ بين البنفسجيِّ والتُّرابيِّ، ولكنَّ يديه بقيتا متصلِّبتين على جنبيه. لم تتحرَّكا، لا انصياعًا ولا صدًّا، عندما شرعت في فكِّ أزرار بنطاله. في تلك اللَّحظة بالذَّات، رحتُ أصرخ، رغمًا عنِّي، جاعلًا صراخي الحدَّ الفاصل بينهما.

هرع المربِّي، وقد نبَّهه الصُّراخ، إلى النَّافذة. فلم تتمكَّن أولمبيا من تدارك الأمر أو أنَّها لم ترغب في تداركه؛ وبدلًا من ذلك اتَّهمت الآخر بأنَّه أغواها. وعبثًا حاولتُ تكذيبها.

كانت النَّتيجة أنْ طُرِدَ البستانيُّ وفرَرْتُ بصحبته. ربَّما فعلتُ ذلك نكايةً، أو لإحساسي بأنَّ براءتي قد أُهينَتْ، أو مدفوعًا عَفْوَ الخاطر بروح المغامرة. ولم يُرِدْني غاسبارِهْ معه ولكنَّه اضطرَّ إلى ذلك عندما لحقتُ به، وصرَّةٌ صغيرةٌ معقودةٌ بخنصري، إلى نُزل «الأسد الذَّهبيِّ».

لا داعي للتَّطرُّق إلى الأحداث التي أعقبت ذلك. فقد أمضيتُ أعوامًا طويلةً برفقة صاحبي أتجوَّل بين التُّخوم والأصقاع، غافلًا عن ملذَّات صباي، محصَّنًا بعذريَّتي الجائرة؛ غير أنَّ ما كان ينمو في داخلي، على هَدْيِ خِبَرِ الحياة والقراءات، هو شغف السَّعي لتحرير الشُّعوب كلِّها الذي استعضتُ بهِ عن شغفي الغراميِّ. في ذلك الوقت، على ما تذكرون،

التقينا، بمحض المصادفة، حول دَوْرٍ من لعبة *المقلوبة*، وهديتموني، رغمَ حداثة سنّي، إلى خفايا «اللّجنة». وبعد أن اشتبهت الشُّرطة الجنائيَّة بأنّي أروِّج في المدارس لوثة الأزمنة الجديدة، اضطررتُ إلى اللُّجوء إلى المناطق الشَّماليَّة حيث حللتُ مزوَّدًا برسائل من غاسبارِهْ موجَّهةٍ إلى أستاذه القديم.

كان هذا الأخير أرستقراطيًّا نصيرًا للأفكار التَّحرُّريَّة يُدعى غريمالدي، وكان يقيم في فيلّا على النَّهر مزنَّرةٍ بمرجةٍ شبيهةٍ بالمرجة التي أمضيت فيها طفولتي. وسرعان ما طابت لي الإقامة في ذلك المكان بحوضه المزيَّن بالتَّماثيل، وأروقته الخارجيَّة، وأبراج الحمام فيه، وأشجاره المثمرة، ونباتاته البرِّيَّة، ومخابئه العديدة التي تتيح لقاصدها أوقاتًا من الرَّاحة والدَّعة. استعدتُ هناك ميلي إلى الانعزال والشُّرود في أحلام اليقظة. ودفعًا للشُّبهات فحسب، عملتُ هناك خادمًا، ولكنّي، في الحقيقة، وزَّعت وقتي على ما أهواه من المشاغل، بين القراءة ونزوات الطُّفولة والتَّمرُّس بعزف البوق؛ فأكسبني ذلك معجبين من سكَّان الفيلّات المجاورة وجعلني عازفًا في عِدَادِ واحدةٍ من تلك الجوقات التي يجمعها السَّادة في الصَّيف للتَّرفيه عن مصطافيهم، والتي من خلالها أراد غريمالدي أن يُحيي تقاليد الحفلات الموسيقيَّة والألعاب النَّاريَّة والمباريات المائيَّة التي كانت، خلال القرن المنصرم، تُثلج قلوب الملوك على نهر «التَّايمز». وكان الإعداد لمثلِ تلك الحفلات يتطلَّب تمارين لحفظ المقطوعات المختلفة، غير أنَّ المناسبة استهوتني إذ وجدتها سانحةً لأبرأ من كلِّ إحساسٍ أنانيٍّ فأنصرف إلى محبَّة الآخرين. وما كان منّي، حين أزفت السَّاعة، إلّا أن

اتَّخذت مجلسي متأبِّطًا آلتي على طَوْف العازفين الذي يُستخدم نهارًا لنقل التَّبغ عبر النَّهر. كان علينا، وقد اجتمعنا عشراتٍ على متن الطَّوْف، أن نمخر مياه النَّهر، على وتائر تجذيفٍ إيقاعيٍّ طويلٍ متتبِّعين تعرُّجات النَّهر، متنقِّلين من فيلَّا إلى أخرى، متبوعين بزوارق أخرى إلى أن نبلغ رصيف «مالكونْتِنْتَا» حيث أُعِدَّتْ مأدبةٌ في الهواء الطَّلق مسبوقةً بألعابٍ ناريَّةٍ ومتبوعةً بحفلٍ راقصٍ يكون ختام الأمسية. وأيَّة ليلة! كم تسعدني ذكراها علَّني أجد في ذكراها أقلَّ العزاء فيما أقاسيه اليوم...

تجمَّعتُ على نفسي في مؤخِّرة الطَّوْف، بين أفراد الفرقة النُّحاسيَّة، ورحتُ أعزفُ بكلِّ ما أوتيتُ من عزمٍ، وبحميَّةٍ ما بعدها من حميَّةٍ، شاعرًا، رغمَ اقتعادي حافَّةَ الدَّكَّةِ الصَّلبةِ وضغطِ أطرافٍ غليظةٍ وأنفاسٍ ثقيلةٍ على جنبيَّ، بأنَّني ربَّانُ وأميرالُ هذا الإقلاع: ذلك الذي بمعزوفات بوقه العاجيِّ البسيطةِ المنفردةِ يسوقُ طواقمَ الحُبِّ إلى كيثيرا أخرى مجهولة... فكنتُ وأنا أعزفُ أنسابُ في وداعةِ تلك المياه التي كانت المجاذيف تغوص فيها غَوْصَ الأصابع في جُمَّةِ شَعْرٍ غزيرةٍ، هاربًا بين ضفَّتين متقابلتين، هذه معتَّمَةٌ بأشجار الصَّفصاف والنَّغت، وتلك منقَّطةٌ بالأضواء... أنسابُ وأعزفُ مع الجميع، ولكن كان الأمر كما لو كنتُ وحدي مَنْ يعزف تحت طاسِ السَّماءِ المقلوب؛ وحدي مَنْ يسمعُ اهتزازَ الطَّوفِ الخشبِ وخواتةَ التَّيَّارِ يرافقان أغنيةَ القارب؛ وحدي مَنْ يرى ظلال المجاذيف تؤلِّف مع أشعَّة القمر أبجديَّاتٍ جذلى...

وكانت بقيَّة الأسطول تجري في إثرنا، جناديلُ ومواعينُ وزوارقُ، يدنو منَّا أحدُها فينأى آخرُ، وكانت تجري أحيانًا حذاءَنا محدوَّةً

بالرَّغبة في الاستماع بشكلٍ أفضل أو لترى في أدقِّ التَّفاصيل كيف تتفتَّح بين الأرض والسَّماء، مِن سياج الأيدي والأفواه، زهرةُ الصَّوتِ الهَفْهَافة. ومن بين المراكب التي اقتربت منَّا مركبٌ، هو الأكثر فضولًا وإصرارًا، اقترب حتَّى كاد يُلامسنا. توارى القمر في تلك اللَّحظة وسط لفيفٍ من الغيوم، وعلى الجؤجؤ أُضيء مصباحٌ في مشكاةٍ، فاستضاءت كما لو بشمس النَّهار، بين قامتَي ضابطَين واقفَين، طلعةُ فتاةٍ جالسة. فتوقَّفتُ عن العزف وطفقتُ أنظر إليها. لن تصدِّقوني إن قلتُ إنَّ نظرةً سريعةً في قَدْرِ لمحِ البرق إليها كانت كافيةً لأتمكَّن الآن من وصفها لكم بتفصيلٍ وإسهاب.

سأقولُ لكم إنَّ شعرها بنِّيٌّ، حسبما تراءى منه خارج غلالة الخِمار؛ ينفرقُ، كما لو بجُرحٍ، كما لو بفَرْقٍ ملوكيٍّ مهيبٍ، إلى خصلتين ناعمتين ورَسْلَتَين تنضفران على الصُّدغين في لفَّتين مُحْكَمَتَين قبل أن تتساقطا مطرًا على الكتفين. عالٍ وشديدُ الشَّكيمة جبينُها، ولكنَّ غضونًا ساهمةً كانت تجعِّدُه. أمَّا في عينيها فكانت تتوهَّج غلومةٌ غافلةٌ عن أمرها: عملتان ذهبيَّتان مدوَّرتان، قطرتان من سماءٍ متوسِّطيَّةٍ لا تشوبها سحابةٌ ولم يسوِّدها بعدُ نذيرُ اعتدالٍ خريفيٍّ وشيك. فيما، داخل القزحيَّة، كان يعتملُ حقدٌ متقلِّبٌ، حقدٌ يجاريه حقدٌ آخر ينضح من شفتين نصف مفتوحتين بدا أنَّهما تقبِّلان الهواء مع كلِّ نفسٍ من أنفاسها. وأمَّا الأنف والوجنتان والذَّقن، فمع أنَّها كانت مثاليَّةً في الصَّحاح والتَّكوين، إلَّا أنَّها توارت بفطنةٍ وراء مشهد النَّظرات والضَّحكات مثل شخصيَّاتٍ ثانويَّةٍ تتوارى خجلًا وراء مشهد مبارزة الأبطال. ولكن لا ملامح وجهها ولا تعابيره فقدت بسبب ذلك شيئًا من دمغة الكبرياء والرُّوح

المَلَكيَّة الشَّوساء التي زادها قوَّةً بريقُ الأحجار الكريمة وفخامةُ الفستان الذي اهرورقَ بِضُفُوٍّ حتَّى اجتاحَ الألواح الخشبيَّة المتواضعة، بينما رقَّ وانحسرَ في الجزء العلويِّ من الجذع، حيث كان مرمرُ الصَّدر، تحت حراسةٍ متراخيةٍ من شالٍ من الكشمير، يشنُّ الغارات على القمر.

لم يفُتني سوى معرفة اسمها. ولكن في تلك اللَّحظة، نادى صوتٌ من مقصورةٍ قريبةٍ: «أونيس!»، فالتفتَتْ وعرفتُ اسمَ التي عَلِقَني حبُّها. ضحكَتْ حتَّى وهي تسأل: «ماذا؟»، فلزمني وقتٌ طويلٌ، وأنا أرى سمكة لسانها تنطُّ بين أسنانها الضَّاحكة، حتَّى أدركت أنَّني سأموت ألف ميتةٍ لأتمكَّن من اصطيادها بشبكتي.

ذَهِلْتُ، في ذلك الوقت، عن كلِّ شيء. ولم تمض لحظاتٌ حتَّى سقطتُ على أمِّ رأسي، ومعي آلتي الموسيقيَّة، في مياه النَّهر.

كانت السَّقطة في غاية النُّعومة، فلم ينتبه أحد. إلَّا عندما تلاشى نقيبُ فاتحتي الموسيقيَّة من تبويقةِ رقصةِ المينويت، فاستنبأ الجميع بأعينهم سُدَىً نبأي وأصبحوا في هرجٍ ومرج. ولكنَّ أياديًا مغيثةً كانت قد رفعتني إلى متن قاربها... «نرسيسٌ منتشَلٌ من الماء!» هزأت بي ملءَ حنجرتها حين أخبرتُها متلعثمًا باسمي، بينما كان جسدي كلُّه يَنْطِفُ جدولًا على قدميها.

ساعدني على نفض الصَّقيع من عظامي، برشفةٍ أو اثنتين من مشروبٍ لاذعٍ، ضابطا الحراسة اللَّذان كانا آنذاك على هذه الصُّورة من باب التَّنكُّر فحسب، بمناسبة الرَّقصة. وعلى الأثر عُقْبَ ذلك بَلَغْنا اليابسةَ وتمكَّنتُ من استعادة قوايَ على أحسن وجهٍ في مطبخ

المنزل حيث قدَّموا لي كملابس جافَّةٍ خزانةً من الأزياء التَّنكُّريَّة، فاخترتُ، ولا أعرف لماذا، قناعًا أسود فوق زيٍّ مهرِّجٍ، ثمَّ انتظرتُ أن تُرفَعَ أطباق الحلوى عن الموائد الممدودة في المرجة ويبدأ عرضُ الألعاب النَّاريَّة لكي أذوبَ دون شُبهةٍ بين الضُّيوف بحثًا عن أونيس. ولم يكن من الصَّعب عليَّ تعرُّفُها مع أنَّها كانت قد وضعت شريطًا مخمليًّا على عينيها. الأصعب من ذلك، وقد بدأت الرَّقصات، كان أن أفوز بها شريكةَ رقصٍ في جولةِ فالس. لم يبدُ أنَّها تعرَّفَتْني ولم أرغب في ذلك، منتشيًا بالتَّحليق معها، ضامًّا إيَّاها بين ذراعيَّ. واقعًا كنتُ في الحبِّ، ومغتبطًا بتلك الوَقْعَة...

كثيرًا ما تفكَّرتُ لاحقًا في هذه الهلِّلُويا الصَّاعقة التي كانَها وقوعي في حبِّ أونيس، وتشكَّل لديَّ اعتقادٌ بأنَّ الأمر جرى مجرى تلك الحكمة القديمة التي حاول معلِّمي تعليمي إيَّاها في عهد صباي، حكمةٍ مؤدَّاها أنَّنا نحمل في أرواحنا قالبَ فكرةٍ تُفكِّرَ فيها في مصيرٍ آخر وبقيت مفقودةً في المصير الجديد. إلى أن نصادف في الأرض أمثلةً مجسَّدةً فإذا بما تكتنزه هذه الأمثلة من ذكريات تلك الفكرة يسلبُ عقولنا فجأةً ويملأها بفلسفةٍ بربريَّة. هكذا بدت لي أونيس، في ذلك المساء: معيارًا للجمال والرُّوح، انتصارًا من لحمٍ ولهبٍ، حجمًا أثيريًّا غارقًا في المعنى، معنىً أبعد من كلِّ المعاني... شيئًا ربَّما تكون كلمتان، بالطَّريقة التي أراهما بها جملةً، أكثر قدرةً على توضيحه: المغنطيسُ والكهرباء.

كنتُ إذن أحلِّق ضامًّا إيَّاها بين ذراعيَّ، دون أن أنبس بمقطعٍ لفظيٍّ واحدٍ، ولكنَّ قشعريرةً ظاهرةً للعيان كانت تسري في جسدي. فهزأت

بي، في اللَّحظة التي دنا فيها منَّا فارسٌ للمطالبة بتغيير شريك الرَّقص، قائلةً: «انتُشِلَ من الماء، ربَّما؛ ولكن من البرد، أبدًا!».

أدركتُ أنَّها، هي أيضًا، حزرت هويَّتي، وهذا ما جعلنا متواطئَين. حتَّى إنَّها رفعت القناع عن وجهها بحركةٍ سريعةٍ ورمتني بابتسامةٍ مشرقةٍ بينما كانت تفارق ذراعيَّ إلى ذراعَي الآخر. لم أستطع أن أردَّ عليها إلَّا بحركةٍ مماثلةٍ: أنْ أرفع قناعي وأُظْهِرَ لها، ولكن أيضًا لعامَّة النَّاس، وجهًا أشبه بوجه خادمٍ ومتطفِّل. ما كان ينبغي لي أبدًا أن أفعل ذلك: توجَّب على غريمالدي أن يتدخَّل ويأخذني بعيدًا، متأبِّطًا ذراعي، وسط لغط الحضور. وبعد أن خلع القبَّعةَ الكتَّانَ الخاصَّةَ بالدُّوجات[1]، والتي نكَّرَ بها رأسه، وبَّخني بغليانٍ أبويٍّ على ذلك الاستعراض الطَّائش. لم أصغِ إليه، بل لججتُ عليه في السُّؤال عن أونيس، مَن تكون. تحجَّرتُ، جمدتُ في مكاني حين سمعتُ أنَّها كانت متزوِّجةً برجلٍ يُدعَى ڤِنْيِيْرُو مانين، أرستقراطيٍّ كان يذوق الأمرَّين في سجن بيومبي[2] بعد إدانته بترؤُّس اجتماعٍ لجمعيَّة كاربونِريَّا السِّرِّيَّة[3]. «ماذا؟»، صحتُ. «وأنا؟»؛ ذلك أنَّني، حتَّى تلك اللَّحظة، كنت متيقِّنًا بسذاجةٍ طفوليَّةٍ من أنَّها مِلكي، طالما أنَّني كنتُ، على هوى شعوري، مِلكها. لا أستطيع أن

---

(1) الدُّوج لقبٌ لحكَّام جمهوريَّة البندقيَّة وجمهوريَّة جنوة قديماً؛ (أ).

(2) Piombi، أي الرَّصاص بالجمع، لأنَّ سقف ذلك السِّجن كان مبنيًّا من الرَّصاص، وهو سجنٌ قديمٌ يقع في علِّيَّة قصر الدُّوج في البندقيَّة، وكان مخصَّصًا للمعتقلين السِّياسيِّين، المحكومين منهم ومَن ينتظرُ المحاكمة، ولم يكن يُسمَح فيه سوى بساعة تنفُّسٍ واحدةٍ في اليوم يتمشَّى فيها السُّجناء على طول الممرِّ الذي يربط بين الزَّنازين؛ (أ).

(3) جمعيَّةٌ سرِّيَّةٌ إيطاليَّةٌ تأسَّست في نابولي في بدايات القرن التَّاسع عشر بهدف تحقيق الوحدة والاستقلال؛ (أ).

أصف لكم العواصف والزَّلازل التي جاشت في معدتي وفي صدري في الأيَّام التي تلت. وزادَ الأمرَ سوءًا تفكيري في الغائب الذي ما كنتُ لأغفر لنفسي إقدامي على إغواء عروسه بينما هو قابعٌ في السِّجن يعاني الويلات في سبيل قضيَّتي. عبثًا حاول غريمالدي مواساتي. «لقد انتهى أمري»، ظللتُ أردِّد وفكَّرتُ في أن أستسلم للموت. كنتُ قد بلغتُ هذا المبلغَ عندما أرسلَتْ إليَّ مع ساعٍ رسالة. وصلتْ الرِّسالة من المستنقع البحريِّ[1] حيث ذهبَتْ لتؤازر زوجها عن كثب. وبعد قراءتي الأسطر القليلة، لم أتردَّد أو أفكِّر في واجباتي المفترضة: كنتُ عاشقًا، كما لامرئٍ في التَّاسعة عشرة وفي إيطاليا أن يعشق. استأذنتُ حاميَّ في الرَّحيل، وأخذتُ معي طبنجتَين ونزرًا من الأمتعة، وغادرت. كانت الرِّحلة قصيرةً وإن لم يجعلها ذلك أكثر أمانًا. كنتُ قد مكثت حتَّى ذلك الوقت في فيلَّا، آمنًا مطمئنًّا بين جيرانٍ مؤازِرين وكتومين، متقنِّعًا بقناع البراءة، لأجدني بعد ذلك على طريقٍ مهيعٍ يُضمر لي أكثر من مَهلكة. كان اسمي، كخارجٍ عن القانون، ومقاسُ جسمي وعلاماته الفارقة على كلِّ لسان. ومع أنَّني غريبٌ، بل لأنَّني غريبٌ، تعرَّضتُ لأكبر قدرٍ من الاستجوابات المروَّاةِ بالإشاعات المغرضة. وكان احتمالُ أن تنتصر الشُّرطة الإمبراطوريَّة حيث أخفقت الشُّرطة المَلَكيَّة كبيرًا جدًّا... ولكن بعون اللّٰه بلغتُ الميناء. ولم يكن من خوفٍ تَسَارُعُ نبض قلبي الذي، وأنا أصعد الدَّرَج، كان يوقفني عند كلِّ درجة.

أخيرًا طرقتُ الباب، وفُتِحَ لي. كانت تلك المرَّةَ الأولى التي، بعد

(1) الخليج المغلق من البحر الأدرياتيكيِّ الذي تقع فيه مدينة البندقيَّة؛ (أ).

الرَّقصة، أدنو فيها منها، وكم أدهشني كيف استطاعت ألَّا تجهر ملءَ صوتها بحبِّها لي، فحبِّي لها كان أمرًا طبيعيًّا تمامًا. عِوَضًا عن ذلك قالت لي إنَّها سمعت الكثير عن بسالتي، وعن مآثري النِّضاليَّة السَّابقة، ورأت أنَّه لا يوجد من هو أجدر منِّي بأن يكون بجانبها في هذه المهمَّة المروِّعة، مَهْرَبَةِ زوجها، ولذلك استدعتني.

«إنَّها تحبُّه حبًّا جمًّا»، فكَّرتُ في دخيلتي وشعرتُ بغُصَّةٍ في حلقي. «لن تحبَّني؛ ليس بإمكانها أن تحبَّني!».

مع ذلك، جثوت على ركبتيَّ وقلت لها: «لطالما كنتُ نزَّاعًا إلى التَّحدِّيات التي يمكن أن أخرج منها خاسرًا. ولكنَّ هذا التَّحدِّي، مهما يكن النَّجاح الذي يمكن أن أحرزه، سينتهي بي خاسرًا، وأعرف تمامًا لماذا. ومع ذلك، هأنذا عند قدميكِ: قوَّتي، وحياتي، وآمالي. افعلي بها ما تريدين».

انحنت دون سابق تفكيرٍ وقبَّلتني على جبهتي. «لن تكون هناك حاجةٌ إلى حياتك»، قالت لي. «هذا على الأقلِّ ما أرجوه. خطَّتي أن أذهب، بمقتضى ما يُسمَح لي به في أيَّامٍ محدَّدةٍ، لزيارة زوجي في زنزانته بصحبة شقيقةٍ له تشبهه في البنية والعمر. وهناك، بعد أن يبدِّل كلٌّ منهما بملابسه ملابسَ الآخر، ننفذ بجلدنا أنا وهو، تاركَين الشَّابَّة الشُّجاعة لغُمَّةِ عذابٍ يسيرٍ، ولكن نكون قد نجَّينا الرَّجل من محاكمةٍ لا مَخرجَ منها».

أبديتُ لها تشكُّكي في النَّجاح، فطمأنتني قائلةً: «لا تخف. ظلال المساء ستساعدني على إعماء الحرَّاس، ولكن أكثر من ذلك، حقيبةٌ

ممتلئة». كانت قد أنهضتني في هذه الأثناء بيدين عطوفتين. «أمَّا أنت»، تابعَت تقول، «فعليك أن تُعِدَّ خارج الأسوار عرباتٍ وتبديلًا للأحصنة وأسلحةً وملابس؛ ومِن ثَمَّ أن تُقِلَّنا إلى ما وراء جبال الأبِّينِّينِي، إلى المخابئ التي تعرفها، مخابئ الأب السَّرمديِّ...».

قلتُ نعم، دونما فهمٍ تقريبًا، كما لو كنتُ تحت تأثير سحرٍ وأنا أراها تختلج بجانبي وخدَّاها ملتهبان بأحمرَ زُنْجُفْرَ ليس الحياءُ ولكنِ الحماسةُ ما أضاءه تحت جلدها.

صرنا منذ ذلك اليوم نلتقي كلَّ يوم. سألتها، باحترامٍ ودون أن أطمع في أيِّ شيءٍ نظيرَ ذلك، إن كان بإمكاني أن أتحدَّث معها قليلًا عن الحُبِّ. كَمَنْ يعترفُ لنافذةٍ أو لنجمة.

تنفيسٌ أُذِنَ لي بِهِ ما دمتُ لن أطمع ولو في مقطعٍ لفظيٍّ واحدٍ جوابًا منها. وهكذا سار الأمر، في كلِّ لقاءٍ، قُبَيلَ انصرافي. وما زلتُ أبتسمُ إلى اليومِ كلَّما فكَّرتُ في المسار الغريب لمسامراتنا تلك: كنَّا نستسلم لساعاتٍ وساعاتٍ لعقلانيَّةٍ مُغرِقةٍ في البرود ونحن ندقِّق خطَّة الهروب لئلَّا يفسدها أيُّ حسابٍ خاطئٍ أو حادثٌ ما؛ ثمَّ نختتم بمناجاتي الفرديَّة وهذياني، وهي تصغي بلا تأثُّرٍ، دون أن تشجِّعني حركةٌ واحدةٌ في وجهها أو في جسدها على الأمل في مشاركتها إيَّايَ الحديث، إلى أن تتمَّ السَّاعة الرَّمليَّة دورتين من دوراتها، وهو الأجل الذي جاد عليَّ به صبرُها، فتنهض عن عرشها الافتراضيِّ، وتمدُّ لي يدها، ومع ختمِ قبلةٍ على جبهتي تأذن لي بالانصراف.

وأزف اليوم المحدَّد للهروب. أمَّا كيف سارت الأمور، فقد تحدَّثت

أوروبًا كلُّها عن ذلك ولن أقول المزيد. ما لا تعرفونه بما فيه الكفاية هو وقائعُ مَهْرَبَتِنَا من أرضٍ إلى أخرى بعد أن وجدنا أنفسنا خارج حدود الإمبراطوريَّة، في ربوع الولايات البابويَّة. كنَّا قد وصلنا إلى هناك بملابس الرُّحَّل، مع مطايا جديدةٍ قادرةٍ على عبور الجبال؛ ولكن منذ اللَّحظة الأولى، ولا أعرف إن كان حكمي عادلًا أم ناتجًا عن إحنةٍ غيورٍ، بدا لي ڤِنِيْرُو رجلًا سهل الانقياد، سخيفَ الهيئةِ والمسلك. شيآن لا يمكن فهمهما: كيف جرؤ على الانغماس في مصائر الشُّعوب ومِن ثَمَّ على تعريض نفسه لإرعاد الحكومات وإبراقها؛ وكيف استطاع إثارة مشاعر الحُبِّ في قلبها الرَّقيق والأَنوف...

سافرنا رَكَبَةً في اللَّيل، واخترنا أحلك الطُّرق تحاشيًا لرجال الجندرمة، إلَّا حين اضطررنا إلى البحث عن طعامٍ وعن دعةِ إغفاءةٍ في نُزلٍ منعزل. وهكذا وجدنا أنفسنا خارج أوعر المضائق، وبينما كنَّا نأكل في الرَّدهة الأرضيَّة لنزلٍ هناك، دخل ثلاثة رجالٍ في هيئة صيَّادين بخِراجهم ومناظيرهم وجُفُوتهم التي كانوا يتنكَّبونها بشكلٍ مائلٍ من إحدى الكتفين إلى الحقو المعاكس. سألونا عن هويَّتنا ووُجْهَتِنا ولكن، بلا شكٍّ، لمجرَّد تجاذُب أطراف الحديث على المائدة. فعرض ڤِنِيْرُو مضطربًا، ودون أيِّ سببٍ، أوراقه المزوَّرة باسم ساڤِلِّي والتي كانت قد دبَّرت له أمرَ الحصول عليها في روما ڤانينا الذَّائعةُ الصِّيت التي قبل سنواتٍ خلت، قبل زواجها بأميرٍ عظيمٍ، كان يُشار إليها بالبنان كمنخرطةٍ في جمعيَّة كاربونِريَّا السِّرِّيَّة.

جفلَ أكبر الثَّلاثة وهو يحدِّق في الأوراق وتحدَّث إلى الآخَرين على

انفرادٍ، ثمَّ ودَّعنا معلنًا أنَّه مضطرٌّ إلى الإسراع إلى كمائن صيد فحول الأعفار. فهمنا بشكلٍ أفضل ما كان يقصده حين عاد متبوعًا بمفرزةٍ من رجال الشُّرطة اتَّهمونا بأنَّ الشَّابَّ الذي ظهر اسمه في جواز السَّفر مات قبل عامٍ بشهادة أكثر من شاهد. ولكنَّ أونيس أجابت بلا خوفٍ: «وإن يكن. صحيحٌ أنَّنا نسافر متستِّرَين باسمين مستعارَين، فنحن عاشقان هاربان، ولا نريد إفشاء اسمينا الحقيقيَّين»، وهنا همسَت في أذن الرَّقيب باسم عائلةٍ كاردِيناليَّةٍ جعلَ لونَ وجهه يتغيَّر.

«وماذا عنه؟»، اعترضَ الجنديُّ مشيرًا إليَّ.

«إنَّه في خدمتنا»، قالت المرأة بوقار.

ولكان الرَّجل اكتفى بمثل هذه التَّبريرات القليلة الحياء لو لم يتدخَّل زعيمُ الصَّيَّادين قائلًا: «أعلمُ أنَّ البحث جارٍ عن هاربٍ من سجن بيومبي. هناك جائزةٌ مقابلَ رأسه وأنا أريدها. سيكون طريدةً أدرَّ ربحًا هذا الصَّباح من أيِّ خنزيرٍ برِّيٍّ». بقيتُ صامتًا وقبضتاي مُطبِقتان بإحكامٍ على عقبَي الطَّبنجتين. ولكن فجأةً، قال ڤِنيِيْرُو ببرودٍ: «لا جدوى من محاولة حمايته. إنَّه هو»، وأشار إليَّ، «مانين الذي تبحثون عنه».

حدَّقت فيه أونيس برعبٍ لا يوصف، وأنا بذهول. ولكن على الفور، صحتُ بشهامةٍ: «هذا صحيحٌ، أنا هو، أمسكوني إن استطعتم!»، وبادرتُ إلى سحب سلاحَيَّ، ولكنَّهم انقضُّوا عليَّ. وفي الجلبة التي أعقبت ذلك، اختفى ڤِنيِيْرُو، وبقيَتْ هي. كانت تلك هي اللَّحظة التي، من رفَّةِ جفنٍ، عرفتُ فيها أنَّها تحبُّني. وفي وقتٍ لاحقٍ، في أثناء احتجازي في قلعة سانت أنجِلو، وفي انتظار ترحيلي إلى هذا المكان،

بموجب طلبٍ وصلَ منه، تلقَّيتُ منها علاماتِ وَلَهٍ كان أخيرًا مساويًا لِوَلَهي. كانت تأتي لرؤيتي كلَّ يومٍ، حرَّةً كما دائمًا، إذ لم توجَّه إليها سوى تُهَمٍ خفيفةٍ سرعان ما برَّأتْها صداقتُها لـڤانينا ساڤِلّي منها. كانت تكلِّمني من وراء الشَّبَكِ الحديدِ، فاركةً شفتيها بِنَهَمٍ على الحاجز الصَّلد الذي كان يصدُّ عنهما شفتيَّ. آهِ كم من كلمات الجمر وأوهام الحرِّيَّة ووعود اللَّذَّة تركتني بلا دماءٍ، عاجزًا عن النُّهوض عن الدَّكَّة التي اقتعدتُها لأصغي إليها...

في النِّهاية، وقد مرَّ على ذلك الآن ثلاث سنواتٍ بالتَّمام والكمال، أُمِرَ بترحيلي. حدث ذلك في اللَّيل، على حين غرَّة. ولكنَّكم عرفتم جيِّدًا الزَّمانَ والمكانَ، يا صَحْبي، بإخطارٍ سرِّيٍّ من الأب السَّرمديِّ الذي أبدًا من عرشه السَّامي لم يُبصر ويقدِّر ويدبِّر أفضل ممَّا أبصرَ وقدَّرَ ودبَّرَ في هذه الحالة. ومن يدري ماذا سيعطي الحاكم ليعرف مَن يختبئ تحت قناع هذا اللَّقب!

الهجومُ على الحارس الذي كان ينقلني إلى السُّجون المَلَكيَّة، كنتم أنتم مَن نفَّذه، ولم يبلغ سمعي منه إلَّا النَّزر القليل، مكبَّلَ اليدين في الدَّاخل، بينَ جدران العربة الأربعة، وظهري مُدارٌ للخيول، بحيثُ لم أر أين كنَّا ذاهبين. ليس في عينيَّ الآنَ سوى مشهد جباهٍ، ما إن وطئت قدمي الأرض وفككتُم قيدي وتعانقنا من جديدٍ، حتَّى رفعها الجميع امتنانًا لجمال القبَّة السَّماويَّة. مع أنَّني تلقَّيتُ على الأثر وخزةً في قلبي، إذْ دستُ من غير قصدٍ جسدَ عدوٍّ في العشب: عريفٍ أمردَ من فوندي، كنتُ قبل قليلٍ أمزح معه، في أثناء الرِّحلة، وها هو الآن مستسلمٌ لي

تحت حذائي، في الخمول الطَّيِّعِ المطواعِ الذي يليق بقتيلٍ مثاليٍّ. أذهلتني أونيسُ عنه، فقد جاءت معكم وبقيَت تنتظر خلف شجرة، متلهِّفةً إلى رؤيتي...

وهكذا، في تلك اللَّيلة، حين بلغنا أخيرًا شطَّ الأمان، تعلَّمتُ منها الحُبَّ بكُنهِهِ الأعمق. فبينما نمتُم، أيُّها الصَّحبُ، في حِرْزِ كوخٍ، نمنا نحنُ تحت سماءٍ عاريةٍ، في هبطةٍ في الأرض، تكتنفُنا مظلَّةٌ من الأوراق برحابةِ قبَّة. وأخشى أن أبدو لكم عديمَ الحياء، ولكن لا يمكنني إمساك نفسي عن أن أصف لكم بالكلمات المسرَّات التي انفتحت لي في ذلك الوقت. واهًا لها، وقد راحت تتعرَّى خَجْلَى في خيط أوَّلِ الفجر الذي، خَلَلَ ورق الشَّجر، تسرَّب إلينا، وكانت، ليس القمر، لا، بل برهانًا نبويًّا عليه، بريقًا، ذَرورًا، ما يبقى على شُجيراتِ سياجٍ بعد مرور يراعة. واهًا لها، بيضاءَ وترتجف فوقي، جاهلةً تقريبًا، وإن أقلَّ منِّي، بحركات الحُبِّ. وَيْ كيف غرقنا معًا في دُوَّامةٍ متقلِّبةٍ اجتازتني موجاتُها من الكعب إلى مؤخِّرة الرَّقبة، غيرَ محسوسةٍ أوَّلًا، مثل تنهيداتِ مدٍّ خافتةٍ؛ ثمَّ أكثرَ اضطرابًا، ربَّما تحت دفقةِ نَسَمٍ مفاجِئٍ؛ ثمَّ جارفةً لتتدفَّق في داخلي بهزيمٍ كهزيم عاصفة، ولكن سرعان ما رقَّتْ ولانَتْ، مكرِّرةً في قوقعةِ أُذني النَّقيبَ القديمَ لمزماري في الظَّهائر الصَّيفيَّة...

«أونيس»، ناديتُ حينئذٍ بصوتٍ غير مسموع، وبأصابع لا تكلُّ أبدًا عدتُ أداعبُ خدَّها، أبحثُ عن ضفيرةٍ ألفُّهم بها، عن قِطْفٍ آخر منها آكله وأشربه بشفتيَّ... ومستلقيًا على ظهري، يؤازرني القمرُ كما في تلك اللَّيلة على نهر برِنْتَا، رحتُ أتأمَّل وجهها الكبير معلَّقًا فوقي.

ساد سكونٌ مُطبِقٌ، حوالينا، سادت سكينةٌ...

وقعتُ، بعد ذلك، في حُبِّ أخريات؛ وفي مرَّاتٍ أخرى، وأكثر ممَّا في تلك المرَّة، أذهلتني وفرةُ سعادتي. ولكن تلك فحسب، وليس ليلاتٍ أخرى، سأتذكَّرها بعد أربع ساعاتٍ، تحت شفرةِ المقصلة».

VI

فاصلٌ من بـرقٍ ورعد

«أحداثٌ مسلِّيةٌ»، علَّقَ ساليمبيني. «ولكنَّ نهايتها رِمٌّ رميم. ليتك وفَّرتَ علينا هذه الخاتمة المأتميَّة».

«انظروا هذا البريءَ!»، ردَّ تشيريلُّو مُفحِمًا. «كما لو أنَّنا في حاجةٍ إلى مُنادي البلدةِ ليذكِّرنا بالموت، بينما هو محفورٌ في كلِّ لحظةٍ في أذهاننا».

ثمَّ تحدَّث إنغافو قائلًا: «شكرًا يا نَرتْشِيزو على تذكيرنا بالحُبِّ والموسيقى وضوء القمر؛ وعلى ترنينِ جلاجلِ الشَّباب السَّماويَّةِ في آذاننا... مع أنَّ بعضنا ربَّما كان يبحث، في هذه اللَّحظات الأخيرة، عن أفكارٍ أكثر جدِّيَّة».

«أتظنُّ ذلك حقًّا؟»، صاحَ ساليمبيني. «حسنًا، ربَّما كان ذلك تأثيرَ ما يسمُّونه بنشوة الاحتضار، ولكن من المؤكَّد أنَّني وقعت في التُّرَّهات بصدد رغباتي الأخيرة، رغبةٌ واحدةٌ لكلِّ حاسَّةٍ من حواسِّيَ الخمس، مع إضافة رغبةٍ سادسةٍ، أتفه ممَّا تتصوَّرون. سأخصِّصها للحاكم، إن أراد أن يسألني عنها غدًا فجرًا. ولكن لكم أيضًا، إن كنتم راغبين في سماعها».

«لِمَ لا؟»، تمتمَ الجميع دونما حماسةٍ، فالتفتَ خَصَاصَةً إلى نَرتْشِيزو (إذ كان من الواضح أنَّه كان راغبًا في نيل إعجابه، أو على الأقلِّ سخيًّا بما يكفي ليسلّي عنه الهمَّ)، وأنشأ يقول:

الآنَ وأنا على آخر العتبات

لديَّ خمسٌ، من الرَّغبات:

لآخرِ مذاقٍ على المِنْطِيقْ[1]

كأسُ نبيذٍ عتيقْ؛

وللمسةِ أصابعي الأخيرة

تمسيدُ شَعرِ هُرَيرة؛

ولآخر صوتٍ في الصَّمْعَاءْ[2]

رَجْعُ إخبابِ الدَّأماءْ[3]؛

وآخر ما أريد أن ينطبع في عينيَّ

سماءٌ كالجمشتِ بنفسجيَّهْ؛

وآخر ما أريد في المَنْشَقِ رَيًّا

فَوْحَةُ زهرةٍ برِّيَّهْ...

وأخيرًا رغبتي

---

(1) اللِّسان؛ (أ).

(2) الأُذن الصَّغيرة اللَّطيفة المنضمَّة إلى الرَّأس؛ (أ).

(3) الدَّأماءُ من أسماء البحر، والإخبابُ صوتُ البحر الهائج المضطرب؛ (أ).

أن أضيفَ سادسةً إلى خمستي

وأضمَّ قبل أن يوافيني الحِمَامْ

إلى صدريَ الوثيرْ

ابنةَ منفِّذِ الإعدامْ

عُريانةً في السَّريرْ!

«اعتادت أهاجيُّكَ أن تكون أشدَّ لذعًا فيما مضى»، قاطعه الجنديُّ بوجهٍ متجهِّمٍ. والآخرون، أيضًا، اعتصموا بالجدِّيَّة. وحده نَرتْشِيزو نفحَ صديقَه نصفَ ابتسامةٍ، وأضاف: «أمَّا صَمْعَاؤكَ، فليس لديك ما تتذمَّر منه، فالدَّأماءُ كلُّها في خدمتك اللَّيلة». والحقُّ أنَّه كان يتناهى إلى أسماعهم من سفوح الجزيرةِ المنحدرةِ عموديًّا على الأمواج، وكما لو من هَوْشَةِ ريحٍ مفاجئةٍ، اصطخابُ تكسُّر الأمواج على الصُّخور، وقد بدا أشبه بزمخرةِ حيوانٍ هائج.

«مَن يستأنف السَّردَ الآن؟»، سألَ البارونُ تبديدًا لحراجة الموقف. ولكنَّ آجيسيلاو عارضه قائلًا: «على رِسْلِكَ، علامَ العجلة؟ ما يزال لدينا وقتٌ. فلننتظرْ أوَّلًا أن تبدأ دوريَّةُ الحرس الثَّانية جولتها في الفِناء».

ثمَّ مدَّ رأسه من دحيلةِ النَّافذةِ ليلقي نظرةً، وتطلَّع بخاصَّةٍ إلى السَّماء حيث كلُّ نجمةٍ قد أعتمَتْ ولكنَّ ذلك القمر الصَّغير بقيَ يقاوم. خلفه اضَّجعَ الآخرون صامتين. ومن المحتمل أنَّ أحدهم، نكْثًا لذلك الاتِّفاق الضِّمنيِّ، أغفى قليلًا؛ أو ربَّما أخذته نومةٌ خفيفةٌ وهو منقبض الصَّدر.

إلى أنْ، بعد بضع دقائق، قال نَرتْشِيزو متوجِّهًا بالكلام إلى أصحاب

العتمةِ عامَّةً: «هل نمتُم؟ ليت بمقدوري أن أنام! لقد خطر لي خاطرٌ رهيبٌ وأريد إخباركم به. أنْ أطرقَ ذلك الباب وأطلبَ جلسةَ استماعٍ أخيرةً وأصرخَ في وجه الحاكم بهذا الاسم الذي يحرق لساني...».

«لن تفعل ذلك. وإلّا لكنتَ، بدلًا من قول ذلك، فعلتَه»، قال البارون.

«إنْ هي إلَّا خواطر يلدُها اللَّيل»، قال الرَّاهبُ بنبرةٍ حَبْرِيَّةٍ ملتمسًا له العذرَ. «في رحم الظَّلام يشعر المرء بأنَّه آمنٌ من عيون الرُّقباء ويجترئ على اقتراف أحلك الشُّرور. أذكر أنَّه كان بين أوغاد عصابتي وغدٌ كلَّما استلقى بجانبي في أعماق الكهف، وسمعني أتلو الصَّلاةَ الرَّبِّيَّةَ قبل أن أنام، كما كان دأبي دائمًا طوال حياتي، صاحَ بأعلى صوته «هذا لك!» وصنع بأصابعه حركةً بذيئةً موجَّهةً إلى اللّٰه، أو هذا على الأقلِّ ما يُخيَّل إليَّ أنَّه كان يفعله، لأنَّني لم أكن قادرًا على رؤيته. ولكنَّه ما كان ليفعل ذلك في الضَّوء. وعلى أيَّة حالٍ، أقلع عن ذلك حين علَّمته ذلك المثل الشَّرقيَّ القائل: إنَّ نملةً سوداء على طاولةٍ سوداء في ليلةٍ سوداء، لا يمكن أن يراها أحدٌ، ولكنَّ اللّٰه يراها...».

«هل يمكنني أن أخبركم بخاطرٍ آخر من خواطري الخبيثة؟»، أصرَّ الشَّابُّ وتابعَ: «الهرب. لقد كنتُ أتخبَّط في شقاء هذه الفكرة طوال الأيَّام القليلة الماضية. فكرةٍ لطالما تذرَّعتم بأنَّها مستحيلة، وكذلك الحال. ولكن ألَّا يرسل إلينا، هوَ أبونا السَّرمديُّ، أيَّ إشارةٍ، وألَّا يحرِّك ولو قُشارةً واحدةً من قِشْر جدراننا... أنْ يَعُدَّ إخلاصنا حقًّا من حقوقه ويتقبَّل بنفسٍ مطمئنَّةٍ تضحيتنا بحياتنا قربانًا له...».

ومرَّةً أخرى قاطعه الرَّاهبُ الحديثَ قائلًا: «لا أريدُ أن أنصِّب نفسي

قاضيًا متطفِّلًا على مظالم الآخرين. ولكن بلغة التَّشبيه والمجاز، كما اعتدتُ أن أفعل في الماضي حين كنتُ أوبِّخ القوَّات بعد نهب مكانٍ ما، أقول لكم إنَّه حتَّى المسيح على جبل الزَّيتون انتظر عبثًا إشارةً من الآب وخشيَ أن يكون قد تخلَّى عنه... أم تحسب أنَّ أبًا سرمديًّا مثيرًا للسُّخريةِ أعظمُ شأنًا من الآب وأنَّه ملزمٌ بالرَّدِّ عليك، بينما الآبُ الحقيقيُّ نفسُه لم يردَّ على ابنه؟...».

«لا تُقحم الدِّين في الحديث»، زجرَهُ الجنديُّ، «أنتَ وأقانيمُك الأبديَّة وآباؤك الأبديُّون. الحقيقة هي أنَّ صخرتنا، لِكون البحرِ هائجًا والحاميةِ قويَّةً، بعيدةُ المنال. ومع ذلك، إن كان عليه، في سبيل إنقاذنا، أن يوقفَ *المخطَّطَ العظيمَ*، فوفقَ هذا الشَّرط فحسب لن أطلب منه ذلك...».

جفلَ الأخ تشيريلُّو ولم يُضف كلمةً واحدةً، ولكنَّ الشَّابَّ قال: «ومع ذلك، إن كان علينا أن نجنِّد أحدًا من هنا... إنَّه أمرٌ فعلته أونيسُ من قَبلنا، حتَّى لأجل زوجٍ لم تحبَّه».

«ذلك الذي استطاع التَّسلُّل إلى الخارج متنكِّرًا في زيِّ امرأة»، قال آجيسيلاو بشيءٍ من السُّخرية. «لا بدَّ وأنَّهم كانوا يضعون مناجذَ لحراسةِ سجن بيومبي، وليس حرَّاسًا».

«ليس الأمرُ غير قابلٍ للتَّصديق كما تعتقد»، قال البارون. «فالطَّريقة نفسها استخدمها كونتُ لافاليِتْ[1] في سجن كونْسيِرْجُرِي للهرب

(1) أنطوان ماري شامَنْ دو لافاليِتْ (1769 ـ 1830)، عسكريٌّ وسياسيٌّ فرنسيٌّ؛ (أ).

من قبضة لويس الثَّامن عشر. وفي صدد الكلام عن تظاهُر رجلٍ بأنَّه امرأةٌ، أو العكس، وبصرف النَّظر عن قصَّة الفارس إيُون[1]، وهي معروفةٌ للجميع، أريد أن أحكي لكم أُملوحةً كانت تجري على ألسنة أهلِ باريس يومَ كنت مقيمًا هناك، وأجدُها تفي بالغرض. إنَّها عن طالبٍ كان قد وصل إلى باريس آتيًا من الأمريكيَّتَين وقُدِّم إلى حلقة كُتَّابٍ كان من أبرزهم شخصٌ أطلق على نفسه اسم جورج، وكان في الحقيقة امرأةً طويلةَ الباع في الأدب اعتادت، هربًا من خضوع بناتِ جنسها المذلِّ، ارتداءَ ملابس الرِّجال. وحين قُدِّم إلى حلقتها، سألته إن كانت كتاباتها مقروءةً في أمريكا. «كثيرًا، يا سيِّدي، والقرَّاء يثنون عليها عاطرَ الثَّناء، ولكن...»، «تكلَّمْ؛ لك أن تتكلَّم بمطلق الحرِّيَّة»، «إنَّهم ينتقدون»، قال الشَّابُّ بخجلٍ، «شغفَكَ المفرطَ بتغيير ملابسك وتنكُّرَكَ أحيانًا في زيِّ امرأة».

كان المستمعون ما يزالون يضحكون، أو يبتسمون، حين نهض البارون فجأةً وأخذ يذرعُ جيئةً وذهابًا، مضطربَ الخاطرِ، الممرَّ الممتدَّ بين صفَّي الأسِرَّة. لا بدَّ وأنَّ شيئًا غير متوقَّعٍ أزعجه، شيئًا هو نفسُه لم يكن يملك عنه سوى فكرةٍ ضبابيَّة. توجَّه إلى النَّافذة، وتنشَّق هواءَ الخارج بمنخرَين واسعَين، وحدَّق في سماءٍ تشقُّها غيومٌ عَجلى، وأخذته قشعريرة. وبعد فترةٍ من الوقت لملمَ شتاتَ نفسه وانصرف ذهنُه إلى أمرٍ آخر، مثل كلب صيدٍ فقدَ أثرَ الرَّائحة.

---

(1) شارل دِئُونْ دو بُومُونْ (1728 ـ 1810)، جنديٌّ عاش كجاسوسٍ في زيِّ امرأة؛ (أ).

«بالعودة إلى حديثنا السَّابق»، استأنفَ قائلًا، «الأبُ السَّرمديُّ لا يستطيع أن يفعل كلَّ ما يريد. فبعد إذْ حُرِمَ منَّا، نحن الذين كنَّا صوته وأذرعه المرئيَّة، بينما كان مجهولًا لأفراد رابطتنا الآخرين وحذِرًا بحكم الضَّرورة، ماذا تتوقَّعون منه أن يفعل؟».

«والحالُ هذه»، عادَ آجيسيلاو يسأل، «ما مصيرُ المخطَّط العظيم؟».

«سوف يُنفَّذ»، قال البارون. «وبالتَّحديد بسبب موتنا. لأنَّنا بموتنا، دون أن نخون *القضيَّة*، نجعلها مقدَّسةً في أعين النَّاس. مصلوبون بأفواهٍ مخيطةٍ، حَوَاريُّون بائسون مخلصون لكلمته، هذا ما سيُقال عنَّا غدًا أو ما يُقال عنَّا بالفعل في أسواق البلدات وفي ساحات العاصمة. ولن ينقضي العامُ قبل أن ينهض النَّاسُ منتفضين، يقودُهم الأبُ السَّرمديُّ، من المآزيب...».

«حول هذا»، قال الرَّاهبُ، «ستتناقشون بشكلٍ أفضل مساءَ غدٍ، في مثل هذا الوقت، وأنتم في قاع البحر مع الأسماك». وصفَّق بيديه استهزاءً.

ثمَّ أضاف بوقارٍ: «كلماتٌ مهيبةٌ، يا إنغافو. ومع ذلك، مِلْحُها قليلٌ وهُراؤها كثير. أنت لم تعد شابًّا الآن، ولكنَّني أكبر منك سنًّا. آهِ ما أكثر الرُّؤوس الحامية التي رأيتُها تسقط لأنَّها أوهمت نفسها بأنَّها قادرةٌ على أن تصنع من الغوغاء شعبًا... إنْ هُم إلَّا حاملو راياتٍ عُميٌ أولئك الذين يَعِدُون النَّاس بالبحار والجبال، ولكنْ عنهم أقول: ويلٌ لمن يتبعهم».

«أمَّا نحنُ»، قال البارونُ مُفاخرًا، «فنرى أنَّ حفنةً من الرِّجال، رجالٍ أعدُّوا أنفسهم ليموتوا واقفين، قادرةٌ على جعل الجميع ينتفض».

«لا فُضَّ فوكَ!»، صاحَ ساليمبيني. «هذا ما تقوله أغنيةُ دونيتْزِتّي[1] أيضًا»، وقبل أن يوقفوه، بدأ يغنّي بصوتٍ منخفضٍ:

الخشبةُ انتصارُنا

نصعدُها ضاحكينْ،

ولكنَّ دمَ الأبطال المحاربينْ،

لن يذهبَ هدرًا.

سيكون لنا أتباعٌ،

مغاويرُ أوفرُ منَّا حظًّا؛

ولكن حتّى لو عاكسَهُم القدَر

وكان عديمَ الرَّحمةِ معهم،

ستكون لهم فينا أسوةٌ حسنةٌ

كيف يموتُ الرِّجال...

«أوهامٌ يستحيل تحقيقها»، استأنفَ تشيريلّو. «كأوهام شخصٍ يضخِّم الأشياء بخياله فيأخذ ما هو مجرَّد خيالٍ على أنّه جسمٌ مُصمَت».

«سمِّها أوهامًا ما شئت»، ردَّ عليه إنغافو. «ولكنَّني أعلم أنَّ النَّاس يظلُّون باردين ما لم تدفئهم دماء الشُّهداء. عليك أن تعزق حديقةَ خُضرواتِكَ إن أردتَ أن تَسْمُنَ هناكَ الحلازين».

(1) غايتانو دونيتْزِتِّي (1797 ـ 1848)، مؤلِّفٌ موسيقيٌّ وملحِّن أوبرا إيطاليٌّ؛ (أ).

وهنا، تدخَّل الشَّاعر قائلًا: «اهدآ، اهدآ! هذا ليس وقتُ المناقَرات. فأيًّا كان من هو على حقٍّ منكما، لن يكون كذلك إلَّا للسُّويعات القليلة المتبقِّية لنا. في هذه الأثناء، أيُّها البارون، دون أن أطلب منك أن تكون بصَّارًا وعرَّافًا، ولكن بقدر ما يمكنك أن تعرف وما يمكنك أن تقول فحسب، هلَّا تُرضي فضولي المتواضع هذا: كم بقي من الحياة لمَلِكِنا الحبيب؟».

«أكثر بقليلٍ ممَّا بقي لنا»، ثمَّ إنَّ صوت إنغافو بدا مُشبَعًا ببهجةٍ مكبوتةٍ، «ولكن أقلَّ قليلًا ممَّا بقي للحاكم...».

«يُقال إنَّه بقي له شهورٌ قليلةٌ»، قهقه الجميعُ باستثناء تشيريلُّو الذي قال وهو مستغرقٌ في التَّفكير: «حسنًا، حسنًا. أفهم أنَّه حتَّى لو نَفَذَ الملكُ بجلده من محاولتكم الاعتداء على حياته، في يوم اليوبيل، فإنَّه لن ينجو بالتَّأكيد في اليوم التَّالي وستُتاح له أكثر من فرصةٍ جيِّدةٍ وجميلةٍ للذَّهاب إلى الجحيم: فإمَّا مصابًا بطلقٍ ناريٍّ في شرفته بدار الأوبِّرا، وإمَّا مسمومًا بالأكوا توفانا[1] على غداء عيد ميلاده، وإمَّا مطعونًا في أثناء الاستعراض الكبير، طال ذلك الوقت أو قصُر... كم من المؤسف أنَّه لا أنا ولا أنتم سنشهدُ ذلك اليومَ!».

«متى يكونُ ذلك اليوم؟»، سألَ آجيسيلاو. ولكنَّ البارون لم يُجب.

---

(1) بالإيطاليَّة: Acqua Tofana، وهو خليطٌ سامٌّ من تحضير جوليا توفانا، القاتلة الإيطاليَّة المتسلسلة التي عاشت في القرن السَّابع عشر؛ وكانت تقدِّم تلك الخلطة للنِّساء اللَّاتي كنَّ يعانين من أزواجهنَّ وتنصحهنَّ باستخدامها على مدار أربعة أيَّام حتَّى لا يكتشف أحدٌ تعرُّض الزَّوج للتَّسمُّم بالزِّرنيخ الذي يدخل في تركيب هذه الخلطة؛ (أ).

حينئذٍ قال نَرتْشِيزو: «مَن يستطيع أن يُقسم لي أنَّنا على الأقلِّ، بمجرَّد موت الطَّاغية، سنحظى بعالَمٍ أكثر سعادةً؟».

«سؤالٌ وجيهٌ»، قال الرَّاهب، وقاطعه ساليمبيني قائلًا: «عادةً ما يكون للطَّاغية ولدٌ أشدُّ منه شرًّا. ولكنَّ ملِكَنا ملكٌ لا عَقِبَ له من الأولاد، وتلك نعمةٌ من السَّماء. فإذا مات...».

«مع الخليفةِ ستتحسَّن الأمور»، تهكَّمَ تشيريلُّو مرَّةً أخرى. ثمَّ أضاف: «الوريث هو الأخ الأصغر، وكلُّكم تعرفون كيف هو. انغماسُه في الملذَّات يجري على كلِّ لسانٍ، مع أنَّه لا يعرف أن يقول كلمتين رقيقتين معًا لامرأة. وهو مقامرٌ أيضًا، كما يُقال...».

لاحَ ظلُّ ابتسامةٍ على وجوه الأربعة، أسرعَ ممَّا يلوحُ ظلُّ جناح.

«أنتَ كنتَ ترتادُ المسارحَ»، قال البارون مخاطبًا الشَّاعرَ. «أخبرْني، ما عنوان مسرحيَّة دو موسِّيه التي فيها نبيلٌ من آلِ مِديتْشي وابن عمِّه الرِّعديد؟».

بإيماءةٍ بذقنه أجاب ساليمبيني بالنَّفي، ولكن بقي من غير الواضح إن كان يعني بذلك أنَّه لم يكن يعرف الجواب أم أنَّه كان غير راغبٍ في المضيِّ قُدُمًا في ذلك النِّقاش.

بدا وكأنَّ الجنديَّ التقط الدَّعوةَ، فخرج عن الموضوع الرَّئيس قائلًا بطلاقةٍ: «لا أتوقَّع جمهوريَّةً. الجمهوريَّة كلمةٌ كبيرةٌ للغاية ووقْعُها في آذان النَّاس سيِّئٌ جدًّا. وبقدر نفورهم منها نفورهم من المساواة. إنَّهم يفضِّلون البقاء خانعين يتلقَّطون في الوحل ما يُلقَى إليهم من شرفةٍ

مَلَكيَّةٍ من المِنَّات. ومع ذلك، فإنَّ صدورهم قد ضاقت الآن بهذا الملك الذي ليس قاسيًا فحسب، بل بخيلًا. لقد شبعوا منه وجاعوا إلى الخبز... مِن هذين الشَّطَطَين سيولدُ الشَّعب الجديد».

«كلُّ الثَّورات تبدأ إمَّا من الشَّبع وإمَّا من الجوع»، قال البارونُ مؤيِّدًا. «وأفضل ما يكون الحال حين يكون كلاهما موجودًا».

«آهٍ، ليتَ الزَّمان يقف فلا يَعْقُبُ هذه اللَّيلةَ غدٌ»، تأوَّه الشَّابُّ فجأةً. فردَّ عليه ساليمبيني قائلًا: «الفُرَصُ كلُّها ضدُّك. من المستبعد جدًّا ألَّا يَعْقُبَ اللَّيلَ نهارٌ...».

لم يُنْهِ كلامَه، ولكنَّ قعقعةً مفاجئةً طمَّت كلماتِه. أرعدت السَّماء التي كانت آنفًا في غاية الصَّفاء. وعلى الأثرِ اختفى القمرُ مطموسًا بسحابةٍ، بينما أزهرت عِوَضًا عنه ومضاتٌ لا حصر لها مثل زنابقَ شاحبةٍ، مجتاحةً الزِّنزانةَ وغامرةً ببريقٍ حُلميٍّ وجوهَ الخمسةِ، كلُّ وجهٍ أشدُّ دهشةً وذهولًا من الآخر، فيما الآذانُ الواجفةُ مفتوحةٌ على رجيفِ البحرِ الذي، مجلودًا بذيل تنِّينٍ، وَيْلُمِّهِ كيف كان يزأر بوحشيَّةٍ على صخور الجزيرة!

كانت الشَّمعة الوحيدة قد انطفأت مع هبَّة الرِّيح الأولى، عندما في الظَّلام الدَّامس كانت: «البارون!» أوَّلَ كلمةٍ تخطرُ لهم ويقولونها جميعًا وهم يسمعون زئيرًا بشريًّا ينبعث من البقعة التي كان واقفًا فيها، ثمَّ هديدَ سقوط جسدٍ على الأرض، فأصواتًا كتلك التي تدلُّ على شخصٍ يتلوَّى ويتدحرج من الألم. وعلى الأثر هرعوا بأقصى سرعةٍ، مندفعين بجنونٍ إلى مصدر الأنين، بينما هرع نَرتْشِيزو إلى الباب لطلب المساعدة. في

حزمة الضَّوء التي سقطت عليه منبعثةً من مصباحٍ، شوهِدَ آجيسيلاو ينحني على الرَّجل ويأخذه بين ذراعيه، يداعبُ تجاعيدَ وجهه وما بقي من شعره الرَّماديِّ: إينياسٌ آخر.

استغرق الأمر بعض الوقت حتَّى استعاد إنغافو وعيه، مع أنَّ العاصفة كانت ما تزال هائجةً، والبحر تحت سوط الرِّيح لم يكن قد توقَّف عن الأنين. ولكن كان على البرق والرَّعد أن يتوقَّفا تمامًا، وأن يبدو الطَّقس، من خلال النَّافذة الصَّغيرة، أقلَّ توعُّدًا، قبل أن يستجمع الكهلُ قواه الذِّهنيَّة والقياديَّة المعتادة. بإشارةٍ من يده صرفَ الحارسَ الذي، مسلَّحًا بمصباحٍ، ظلَّ واقفًا يستنبئ من فتحةِ الباب أنباءَ ذلك الضَّجيج. ومتغلِّبًا على الرَّجفة الخفيفة التي كانت ما تزال تعكِّر صوتَه، قال بنبرة مزاحٍ متكلِّفٍ: «كم هو غريبٌ أنَّني ما أزال أعاني هذا الخوف من الأنواء، كما لو أنَّ عليَّ أن أخشى شيئًا بعدُ من السَّماء. لقد وُلِدَ بداخلي قبل سنواتٍ خلت، ولم أكتشف أبدًا جذورَه. الفرصةُ مناسبةٌ الآن لأقدِّم تقريري عنه، وخاصَّةً إلى نفسي. ولذلك، أودُّ أن أطالب لنفسي بالخانة الثَّانية من مسبحتنا».

تحلَّق الجميعُ حوله ذُلُلًا مُنصِتين. فبحُكم سنِّه وحكمته، كان البارون منذ أمدٍ مسيطرًا عليهم، هو الذي كان يختار الآخرين ويسمح لهم بصعود المراتب دنوًّا إلى اللُّغز الكبير، زعيمِهم. وأكثر من واحدٍ منهم كان مدينًا له بحياته؛ وإن كان، هذه المرَّة، بموته.

«هذه القصَّة، يا صَحْبي، ليس لها عنوان»، قال إنغافو، وفي صمت الآخرين روى القصَّة التَّالية.

VII

روايةُ البارون

لم أكد أبلغ سنَّ الرُّشد حتَّى بدأت أدرك، من يومٍ إلى آخر، أنَّني لم أعد قادرًا على الإتيان بحركةٍ أو النُّطق بعبارةٍ لا يعشِّش داخلَهما، كما الدُّودةُ داخلَ الفاكهةِ، ما يمكن أن أسمِّيه، إذا جاز التَّعبير، تحفُّظًا عقليًّا. أداعبُ امرأةً وفي أثناء ذلك أفكِّر: «ثمَّ ماذا بعد؟»؛ وإذا امتُدِحتُ على أناقة ملبسي، أو على حذاقة قولٍ من أقوالي، ابتسمتُ وتورَّدت خجلًا... ولكن ليس دون أن تسري تحت جلدي رعشةُ قلقٍ، شيءٌ أشبه بفوران الأعصاب، اختلاجةٌ عقليَّةٌ متناهيةٌ في الصِّغَر لفكرةٍ لم تنجح أبدًا في جعل نفسها مفهومةً، بل يبدو أنَّها كانت تتخثَّر فحسب في شظايا خاملةٍ من عدم الثِّقة بالنَّفس: «ولكنَّني...»، «ماذا لو...»، «نعم، ولكن...»

كان هذا هو السُّمَّ الذي نغَّص شبابي، السُّمَّ الذي لم أُشفَ منه إلَّا في وقتٍ متأخِّرٍ جدًّا من حياتي. صحيحٌ أنَّني امتلكت من الهبات تلك التي ترغبُ فيها النَّفسُ أشدَّ الرَّغبة: الجَمالَ والثَّروةَ والعافية... ولكن عندما كنت أعودُ في المساء، من حفلٍ في البلاط، أو من رحلة صيدٍ، لم يحدث لي أبدًا أن أطفأت النُّور وأسلمتُ نفسي لغفوةٍ هانئةٍ؛ بل كنت

أبقى لساعاتٍ وساعاتٍ أحدِّق بعينين واسعتين في العتمة وأرى عليها، كما لو على سبُّورةٍ سوداء، العدمَ الجارفَ مطبوعًا...

لا أعلم إن كان ذلك سيساعدكم على فهم جذور ألمي، ولكن يجب أن أقول إنَّ ذلك كان زمنَ الكوليرا، عندما كنت أشهد كلَّ يومٍ مَهْلِكَ الكثير من رفقائي، ممَّن كانوا في أتمِّ الصِّحَّة والعافية؛ وعندما كان أيُّ شيءٍ أحكم عليه بأنَّه ملوَّثٌ، بما في ذلك البريد الذي كان يصلني من الخارج ملفوفًا بدُبارتَين، يخضع هو أيضًا للحجر الصِّحِّيِّ، شأنُه في ذلك شأن البشر. ربَّما كان هذا ما صبغ أفكاري بالسَّواد. أو لعلَّها مؤلَّفات ذلك الكونت الماركيِّ[1]، الممنوعةِ من قِبَل الرَّقابة، والمهرَّبة إليَّ خفيةً من قِبَل بائع الكتب ستارِيْتَا، والتي قرأتها في البداية على مضضٍ، ثمَّ مع إفادةٍ عارمة. لا شكَّ في أنَّني، يومًا بعد يومٍ، كنت أتقدَّم في السِّنِّ كما لو في لمح البرق، مع شعورٍ بخواءٍ دائمٍ وكسولٍ، لا أرجو لنفسي خيرًا ولا شرًّا، ولا ألتفت إذا ناداني أحدٌ باسمي. أصبحتُ لا أحد، غيرَ كَلِفٍ بأيِّ شيء، وغريبًا ضِعفَين، في نظر الآخرين كما في نظري.

على النَّقيض تمامًا كان سِكوندينو، أخي التَّوأم. سُمِّيَ سِكوندينو لأنَّه خرج من رحم والدتنا بعد نصف ساعةٍ من خروجي؛ ولكنَّه تلقَّى سوءَ حظِّه بصدرٍ منشرح. كان قانعًا بالقليل: كتبٌ من بلاد ما وراء الألب، بعضُ اللَّهو الغراميِّ، لعبةُ الشِّطرنج... ودائمًا مع تلك المسحة من الاتِّزان، ذلك الحبِّ الملائكيِّ للحقِّ والعدل، ومع الإيمان بأنَّ بؤس الكثيرين سيُشفَى قريبًا بجهود القلَّة.

---

(1) نسبةً إلى ماركِهْ، أحد الأقاليم العشرين المكوِّنة التُّراب الإيطاليِّ؛ (أ).

بدت لي تطلُّعاته غير حصيفةٍ، ولم أتراخَ في إسداء النُّصح إليه. لبسَ لي أُذنَه: رسائلُ من فابريتزي[1]، من إسبانيا، وقعت في يد رقيبٍ، وكان اسمه مذكورًا فيها، ولو تأخَّر قليلًا لَمَا تمكَّن من الهرب إلى فرنسا.

لا يعني هذا أنَّ صداقتي برجال البلاط خذلتني؛ بل إنَّهم التفُّوا حولي مُشفِقين مُواسِين، كما لو كانوا يشاطرونني مُصابَ فقدان أحد أفراد عائلتي عَقْلَه. ولكنَّني تقوقعت أكثر فأكثر في خُدَاريَ الكسول الذي كانت تعاودني فيه من وقتٍ إلى آخر فكرةُ أنَّ الموت أفضل لي من تكرار نفسي، بصورتي نفسها وبلا جدوى، كلَّ صباحٍ في المرآة.

الحماقاتُ العبثيَّةُ وغير المؤذية التي ارتكبتُها بعد ذلك، بهدفٍ وحيدٍ هو تمييز نفسي عن الشَّائع وملء الجيفةِ الفارغةِ التي كنتُها بدمٍ جديدٍ، أكسبتني سمعةَ رجلٍ غريب الأطوار ولكن لا أكثر من راحةٍ عابرة. عند هذه النُّقطة أزمعتُ على الرَّحيل.

ليلةَ رحيلي، أذكرُ، وأنا ذاهبٌ كما جرى العُرف لأستأذن الملك في المغادرة، التقيتُ على الدَّرج الأبَ السَّرمديَّ الذي، بطبيعة الحال، لم أكن حتَّى ذلك الوقت أشكُّ في هويَّته السِّرِّيَّة وأشتبه في كونه المحرِّك غير المرئيِّ لجميع الدَّسائس المذهبيَّة.

---

(1) نيكولا فابريتزي (1804 ـ 1885)، عسكريٌّ وسياسيٌّ وبطلٌ قوميٌّ إيطاليٌّ كان ولويجي أورلاندو رفيقَين في العديد من المعارك من أجل توحيد إيطاليا. ذهب إلى المنفى في إسبانيا وهناك شارك في كاتالونيا في الحرب الأهليَّة بين تيَّار الكارليِّين والتَّيار المسيحيِّ اللِّيبراليِّ، في صفِّ هذا الأخير؛ وفي سنة 1837 شارك في الثَّورة التي اندلعت في صِقِلِّية بسبب وباء الكوليرا، كما شارك في سنة 1849 في الدِّفاع عن روما ضدَّ الفرنسيِّين وآل بوربون؛ (أ).

«ذلك الولدُ الأرعنُ، أخوك»، قال لي بتقطُّعٍ، متظاهرًا بالتَّعثُّر بكلماته، لا لِحُبسةٍ في لسانه، ولكن لطريقته الخاصَّة، والتي تعرفونها أنتم أيضًا، في شدِّ انتباه المستمع بتركه معلَّقًا بين الوجل والذُّهول، غيرَ متيقِّنٍ من تكملة الكلمة المعلَّقة. «إن قابلتَه في باريس»، تابعَ لاهثًا عند كلِّ كلمةٍ، «قُلْ له على لساني أن يعود إلى وطنه وأن يسجد للملك وينال رحمته. الرِّجال من أمثاله أكثر فائدةً هنا منهم في مقهى لاريجونس[1]...».

كان يُلمِحُ، كما أعتقدُ، وليس من دون بعض الازدراء، إلى ولع أخي بلعبة الشِّطرنج التي كان ذلك المقهى حلبةً عامَّةً ومرموقةً لها. أجبته بوهنٍ أنَّني بالتَّأكيد سأقول له ذلك. ولكنَّني في الحقيقة كنت أضع تلك الكلمات في الحزمة نفسها مع كلماتٍ أخرى مماثلةٍ سمعتها في أوقاتٍ أخرى من أفواه آخرين. فبعد كلِّ شيءٍ، كنت أشعر بأنَّني حِلٌّ من أيِّ التزامٍ، تحت رحمة آلامٍ شخصيَّةٍ، آلامِ أن أكتشف لنفسي، في نهاية المطاف، معنىً، اسمًا، وجهًا.

وواقعُ الحالِ أنَّني في أثناء استعداداتي للرِّحلة كنتُ أقع أكثر فأكثر في حبِّ ضعفي، لدرجة أنَّ ألمي السَّابق، ألمي من رؤية نفسي ثابتًا بشكلٍ لا يُطاق في كلِّ مرآةٍ من مرايا غرفتي، امَّحى ليحلَّ محلَّه ـ اسمعوا، اسمعوا! ـ الرُّعبُ من أنَّني أحيانًا لن أرى نفسي فيها على الإطلاق؛ من أنَّني لن أرى فيها بعد الآن وجهي، بل سأرى مكانه انعكاس المفروشات والجدران التي ورائي. كأنَّني من تلك اللَّحظة لم أعد شيئًا سوى الهواء

---

(1) كان مقهىً في باريس ومركزًا للعبة الشِّطرنج في فرنسا وأوروبَّا من 1681 إلى 1910؛ (أ).

والشَّفافيَّة؛ كأنَّني لم أفقد ظلِّي فحسب، مثل پيتر پان في تلك القصَّة الخياليَّة، ولكن مادَّة جسدي نفسها!

وساوسُ نَفْسٍ كئيبةٍ، كما أفترضُ، ولكنَّني سأسمح لنفسي بتكرارها على مسامعكم حتَّى يتَّضح لكم على شفا أيِّ هاويةٍ كنت.

أخيرًا غادرتُ، مع خادمٍ واحدٍ وأمتعةٍ زهيدةٍ، وبدأتُ أجول في أوروبَّا. لعامٍ كاملٍ تجنَّبتُ باريس، غيرَ راغبٍ في إظهار نفسي لسِكوندينو وأنا في تلك الحالة من اليأس والخراب. حتَّى إنَّني لم أجشِّم نفسي عناء إرسال رسولٍ يحمل رسالة الأب السَّرمديِّ إليه، الرِّسالة التي، لجهلي آنذاك بالهويَّة الحقيقيَّة لمرسلِها، لم أفهم المعنى الخفيَّ لها. ولكن في النِّهاية، بعد ڤيينَّا ولندن وجنيف وليون، نزلتُ على ضفاف السِّين، وهناك أقمتُ في شقَّةٍ صغيرةٍ في حيٍّ باتينيول، شقَّةٍ بسيطةٍ وبعيدةٍ عن صخب المركز.

كان الاحتجاج بشأن قتلى شارع بولڤار دو تومپل التِّسعة عشر وبشأن اعتقال فِيسْكِي[1] ما يزال في بدايته في المدينة. أورثني ذلك توجُّسًا ثلاثيًّا، من صاحب العقار ومن الجيران ومن شرطةِ الحيِّ، الذين أثار مظهري الأجنبيُّ ريبتهم. ولكنَّني كنتُ أمرُّ بإغضاءٍ ووقارٍ في معطفي الأسود المشقوق الذَّيل أمام ازورارهم الذي لم أعلم به إلَّا في وقتٍ لاحقٍ، بعد أن جرَّدَتْهم براءةُ سلوكي الدَّامغةُ من سلاحهم.

---

(1) حوزِيِّهْ ماركو فِيسْكِي (1790 ـ 1836)، ثائرٌ فرنسيٌّ كان المتآمر الرَّئيس في محاولة اغتيال لويس فيليب سنة 1835؛ (أ).

في غضون ذلك كنتُ أزور المدينة دون أن أحبَّها. فالأماكن، وكذلك البشر، كلَّما ازدادت امتلاءً بالتَّاريخ، ازدادت برودتي حيالها. أفضِّل البلدات ذات الماضي القريب، المتوارية في عَطْفَةِ سهلٍ، ببرج أجراسٍ واحدٍ وحديقة.

ومُخلِصًا لنفسي، اخترتُ في العاصمة حديقةً صغيرةً خارج المدينة، بسيطةً بقدر ما أشتهيها أن تكون، فكنتُ أرتادها متأبِّطًا جريدةَ «دي ديبا»، لأتنشَّق الهواء النَّقيَّ، بصحبةِ لُمَّةٍ من النِّسوة العجائز المسلَّحات بالمظلَّات.

هناك كنت أقرأ بسلامٍ، رافعًا عينيَّ لِمامًا وأقلَّ الكفاية إلى المقعد المقابل لي، حيث كانت فتاةٌ وحيدةٌ، بأهواءٍ مشابهةٍ لأهوائي، تأتي كلَّ صباحٍ للجلوس في ظلِّ پومونا[1] جِصِّيَّة.

جميلةً كانت؛ وكانت تبادلني النَّظرات مُدخِلةً إصبعًا كمؤشِّرٍ بين صفحات الكتاب. شعرها أشقر ينسدل على بروز ثدييها، وعلى شفتيها تبويزةٌ لطيفة. لم أتكلَّم معها، مع أنَّها بدت راغبةً في ذلك وتنتظره. مرَّةً واحدةً فحسب التقطتُ قبَّعة القشِّ التي سرقتها الرِّيحُ منها وحملَتْها وسيطًا إلى قدميَّ، ولكنَّني أعدتها إليها بانحناءةٍ خفيفةٍ، وفي صمت.

من بادرتي تلك انتابني ندمٌ إضافيٌّ وشفقةٌ كئيبةٌ على نفسي.

«ها أنا جسدٌ لا حياة فيه»، فكَّرتُ. «وأنا ما أزال في ريعان الشَّباب!».

ثمَّ أخذتني أفكاري إلى سِكوندينو الذي كنت أعرف جيِّدًا اندفاعَه

(1) إلهة وفرة الفاكهة في الأساطير الرُّومانيَّة القديمة؛ (أ).

وعشقه الملتهبَ للحياة. كان يعيش بعيدًا، في الجزيرة التي في وسط النَّهر؛ وأنا، فضلًا عن عدم بحثي عنه، لم أبادر حتَّى إلى إعطائه خبرًا عنِّي أو عن وصولي إلى المدينة. ليس من باب النِّقمة، ولكن لشعورٍ مركَّبٍ يختلط فيه الخوف بالنِّسيان. وهكذا، راكِنًا آنذاك إلى الخمول، وأوراق الجريدة مفروشةٌ على ركبتيَّ، ومستغرقًا في التَّفكير في الأسباب التي دفعتني إلى تجنُّبه، لمعت فجأةً فكرةٌ في رأسي: أنَّه هو، سِكوندينو، المسؤول بلا ذنبٍ عن شقائي؛ وأنَّني، بولادتي قبله، إنَّما أكفِّر عن جريمة حرمانه من حقوق الابن البكر، دافعًا ثمن ذلك ندمًا مُضمَرًا وإفناءً للذَّات. «بسبب نصف ساعةٍ فحسب»، قلتُ بصوتٍ عالٍ أفزعَ الفتاة الجالسة قُبالتي. «بسبب الأفضليَّة التَّافهة لنصف ساعةٍ فحسب!»، ونهضتُ واقفًا على قدميَّ، وغادرتُ المكان مسرعًا، تاركًا إيَّاها في حيرةٍ من أمرها. ذلك أنَّني أدركتُ أنَّه كان يكفي، لكي أُشفَى، أن أشارك أخي كلَّ شيءٍ، فأعطيه نصف ألقابي ونصف ثروتي، وأطلب منه في المقابل نصف أوهامه النَّبيلة. بهذه الطَّريقة فحسب كان من الممكن أن أعيد تكوين وتعميد الشَّخص الواحد الذي كنَّاه نحن الاثنان.

ولذلك بحثتُ عن سِكوندينو وأخذته في عِناقاتٍ كثيرةٍ حارَّة. أدخلَني في دائرةِ أصدقائه. وحين أسررتُ إليه نيَّتي في تقاسم الميراث معه، رفض بشدَّةٍ: «ما هذا الهذر وأيُّ طبخة عدسٍ هذه التي تقدِّمها لي؟»، قال لي. «ثمَّ إنَّه ليس يقينًا ثابتًا أنَّ أحقِّيَّة الميراث الكامل تعود إليك. فأكثر من عالمٍ عارفٍ يقولون إنَّ الولد الذي يرى النُّور ثانيًا هو أوَّل من حُبِل به. وذلك أنا».

فسَّر دهشتي على أنَّها تخوُّفٌ، فأضاف على الفور: «لا شيء سيتغيَّر، ابقَ مطمئنًّا. شعارُ نبالتي هو الحرِّيَّة».

كنَّا في مقهى بروكوبيو، وكان معنا العديد من الشُّبَّان ذوي الشَّعر الأسود الطَّويل متحلِّقين حول شيخٍ برزت ذؤابةُ شعره الأبيض من تحت قبَّعةٍ حرير.

«المساواة قبل الحرِّيَّة!»، أعلن هذا الأخير، الذي قالوا لي إنَّه بونارُّوتي[1] الذَّائع الصِّيت، ضاربًا الأرض بعصاه. «لا يمكن أن نكون أحرارًا ما لم نكن سواسية!».

«المساواة، نعم»، ردَّ عليه سِكوندينو بنبرةٍ لطيفةٍ، «ولكن الحرِّيَّة أوَّلًا!».

هنا نشبَ بينهما خلافٌ أخمدَهُ في النِّهاية صوتُ الشَّيخ إذْ قال: «هناك الكثير من المتعصِّبين الذين ليس على شفاههم في كلِّ لحظةٍ سوى كلمتي الحرِّيَّة والجمهوريَّة، ولكن لا لشيءٍ إلَّا لاستخدامهما وسيلةً لتأسيس أرستقراطيَّةٍ جديدةٍ أسوأ وأرذل على أنقاضِ القديمة!».

غلى الدَّم في عروق سِكوندينو وردَّ عليه قائلًا: «هناك آخرون يزرعون الفتنة بين الطَّبقات بدلًا من تعزيز الوحدة بينها. وهم يحسبون أنَّ تحرير النَّاس يتحقَّق باغتصاب حقوق الآخرين».

واستمرَّ الجميع على هذا المنوال لفترةٍ من الوقت، مع أسماء سان

(1) فيليبُّو جوزِبِّهْ ماريًّا لودوڤيكو بونارُّوتي (1761 ـ 1837)، ثائرٌ إيطاليُّ المولد، فرنسيُّ الجنسيَّة، ينحدر من عائلة فنَّان عصر النَّهضة ميكِلانجِلو بونارُّوتي. كان أحد أهمِّ الثُّوَّار الأوروبِّيِّين في أوائل القرن التَّاسع عشر؛ (أ).

سيمون وماتْسِيني، روبْسبيار وبابوف، على شفاههم، يتقاذفون بها تقاذُفَ الحجارةِ بمقلاعٍ، بينما أنا وحيدٌ في الزَّاوية، أنظر إليهم وأشبِّههم بأولادٍ منغمسين في لعبتهم، منغمسين لدرجةٍ لم يلاحظوا معها أنَّ شيخًا خبيثًا كان يراقبهم. مع أنَّ بونارُّوتي الشَّائب بدا أصغرهم، ومع أنَّ دور الرَّقيب الرَّاشد كان لي...

فيما بعدُ، حين بقيتُ وحدي مع سِكونْدينو، سمعتُ منه أشياء كثيرةً: أنَّه كرَّس نفسه لتحرير العالم؛ وأنَّه سيعود إلى وطنه، كما طُلِبَ منه في الرِّسالة التي حملتُها إليه، الآنَ وقد اقتربَ وقتُ العمل. وحين سألته عمَّا قاده إلى هذا التَّفكير، انحنى على أذني وقال لي: «إنَّني ملتزمٌ بأشدِّ درجات الصَّمتِ قسوةً»، تحدَّثَ همسًا مع أنَّه لم يكن هناك أحدٌ على مسمعٍ منَّا. «ولكن إليك أنتَ، يا أخي، يجب أن أبوح بذلك. إنَّ ما حملتَه إليَّ ليس نصيحةً، بل أمرًا. الرَّجل الذي عهد بالرِّسالة إليك، هناك في أرض الوطن، هو قائدنا جميعًا. وهو ليس مثل ذلك الجِنَويِّ الذي يُحاضرُ علينا، من لندن، بلسان لاجئٍ منقطعٍ عن الواقع. لا، إنَّه يتحدَّث من قلب قصر العدوِّ»، وهمس باسمٍ في أذني.

وهكذا علمتُ بهويَّة ذلك الشَّخص التي يكاد لا يتصوَّرها عقلٌ وبخطط التَّمرُّد التي تمخَّضت تلك الهويَّة عنها، ولكنَّني بقيتُ متحجِّرًا، يائسًا من شدِّ أخي إلى أفكاري، أخي الذي كنتُ أشعر به قريبًا منِّي بدمه، مختلفًا وبعيدًا بمشاعره.

في النِّهاية، عقدتُ العزمَ على البوح له بحالتي المزاجيَّة كُلِّيَّةً دون نقصان. أصغى إليَّ بذهولٍ، ثمَّ قال: «لا أعرف مَن منَّا الأكبر،

ولكن لا شكَّ في أنَّ الأقلَّ حكمةً هو أنت. العدمُ وعيبُ الوجود اللَّذان تتحدَّث عنهما لا ينشآن من هنا»، ولمسَ صدرَه، «بل من هنا»، ونقرَ على جبهته بإصبعه. «أنت لم تفهم بعدُ العصرَ الذي تعيش فيه؛ تمامًا مثلما لم تفهم هذه المدينة التي تحمل لواءَ هذا العصر في كلِّ أرجاء العالم».

كنَّا في مَطَلٍّ، بالقرب من مقبرة بير لاشيز، حيث أخذني ليريني رأيَ العينِ مشهدًا كأنَّه من روايةٍ حديثةٍ، ورأينا المدينةَ بأكملها تنبسطُ تحتنا.

«انظرْ إليها!»، قال لي. «إنَّها تغلي كالمرجل. استمعْ إلى الجيشانِ المتصاعد: من ضفاف النَّهر، من الأكواخ والقصور، من المعامل. كما لو من سيلٍ اعترضته الحجارة؛ كما لو من قِدْرٍ على وشك الانفجار. ألا تبدو، وهي مضطجعةٌ على ضفاف السِّين، مثل عملاقٍ اضطجع لينام؟ فها هنا ترى رأسه الغابيَّ، وهناك في البعيد ساقيه الطَّويلتين المنفرجتين، وهنا في المنتصف صدرَهُ الذي منه تُسمَع دقَّاتُ قلبٍ عظيمٍ... حسنًا، لا أنا ولا رفاقي، كنْ متأكِّدًا، ولكن الرُّوح التي تحرِّكنا هي ما سيجعل من هذه المدينة صورةً لخليقةٍ جديدةٍ، خليقةٍ مستمدَّةٍ من روح الإنسان ومن أعماق المخلوق؛ مَجلَىً لسخاء السَّماء وشاهدًا عليها. من هنا ستبدأ شرارةٌ تحرق الأرضَ كلَّها...».

كانت عيناه تلمعان وهو يتحدَّث على هذا النَّحو؛ حتَّى إنَّني لم أجرؤ على مناقضته. بل على العكس، وصلتُ إلى نقطةٍ صرتُ معها، مجاملةً له، غلامَه المتتلمذَ في هذه وفي غيرها من البشائر الأكثر شطحًا: مُمالِئًا في تعاليم لا وجود لها، ولكن شاهدًا عليها جميعها. مثلما حدث عندما

كنتُ في مِنيلمونتان واختلطتُ بحشدٍ من السِّيمونيِّين[1]، مرتديًا على طريقتهم سترةً زرقاء مفتوحةً عند الصَّدر من الأمام، تحتها صُدرةٌ بأربطةٍ عند الظَّهر، وبنطالًا بلونٍ أحمر ناريٍّ. بهرجةٌ انتزعت منِّي، في خضمِّ الحماسةِ المتفانيةِ للجموع، ضحكةً فضَّاحةً ودفعتني إلى الفرار بأقصى سرعة. تلك الضِّحكة غير المتوقَّعة، الأولى بعد سنواتٍ عديدةٍ، كانت هي ما بثَّ الأمل في قلبي: أملًا قد أتمكَّن بفضله، إن لازمتُ سِكوندينو وقلَّدتُ بسذاجةٍ أسلوب حياته، من ملء حياتي بطريقةٍ أو بأخرى. كمن بقطرةٍ من الخلِّ يُحيي أمْوَتَ الأطباقِ طعمًا...

فبدأتُ أُقحِم نفسي حتَّى في أتفه شؤونه. وهكذا صرتُ مواظبًا على لعبة الشِّطرنج التي برعَ فيها، وكنتُ أتبعه إلى المقهى مدفوعًا بغوايةِ الجلوس بجانبه لأتألَّم وأفرح تضامُنًا معه بأحداث كلِّ مباراة. لقد صغُرتُ إلى حدِّ تسوُّلِ الزَّهْدِ اليسيرِ من المشاعر والاكتفاء به، تمامًا كملَّاحٍ يعلِّق آماله حتَّى على أوهى نسيمٍ لينجو بنفسه من مكائد البحر الهادئ...

لمناسبةٍ بعينها من هذه المناسبات أدينُ بالحادثة التي قلبَتْ حياتي رأسًا على عقبٍ وقيَّضَتْ لي المصيرَ الذي ترتسمُ ملامحُ عُقباه اللَّيلةَ.

كنتُ قد ذهبتُ برفقةِ سِكوندينو، جريًا على العادة، إلى مقهى لاريجونس حيث كان من المخطَّط أن يستعرض العظيمُ لابُوردونيه[2]

---

(1) نسبةً إلى السِّيمونيَّة أو السَّان سيمونيَّة، وهي حركةٌ سياسيَّةٌ اجتماعيَّةٌ استلهمت أفكارها من الفيلسوف الفرنسيِّ هنري سان سيمون (1760 ـ 1825)؛ (أ).

(2) لويس تشارلز دو لابُوردونيه (1795 ـ 1840)، لاعب شطرنج فرنسيٌّ يُعَدُّ أعظم اللَّاعبين على الإطلاق في النِّصف الأوَّل من القرن التَّاسع عشر؛ (أ).

براعته بقبول دعوةِ كلِّ مَن أراد تحدِّيه من الوافدين. وتقدَّم لتحدِّيه، مع أقوى اللَّاعبين في ذلك المكان، أخي وضابطٌ في فرقة المشاةِ الرَّاكبة، عقيدٌ متقاعدٌ يُدعَى پيبراك. وكان هذا الأخير مناصرًا شرسًا للسُّلطة التَّشريعيَّة، على جمجمته صفيحةٌ من الفضَّة تُواري جرحًا قديمًا أصابه من ضربة خنجر: تذكارٌ من واترلو حيث قاتلَ، كفرنسيٍّ، ضدَّ الفرنسيِّين.

كان الوحيدَ الذي لم يستسلم ضدَّ لابُوردونيه، وتفاخر بذلك لاحقًا أمامَ سِكوندينو الذي خسرَ بشرفٍ. ومن هنا نشبت بين الاثنين ممازَحاتٌ شتَّى واندلعت مباراةٌ من ثلاث جولاتٍ على أساس أن يهتف الخاسرُ، وفقَ ما يراه الآخر مناسبًا، إمَّا «يحيا هذا» وإمَّا «يسقط ذاك» في تحقيرٍ لمعتقداته الأعزِّ على قلبه.

وفي الواقع، كان من المعتاد، بين عشَّاق هذه اللُّعبة، البحثُ عن متنفَّسٍ لحمَّى أفكارهم في مواجهاتٍ كهذه. كما لو كانت حربُ تلك الشَّخصيَّات الصَّغيرة المنحوتة من خشب البقسِ ظلًّا لحربٍ أخرى أكثر دمويَّةً وتجسيدًا لأبطالها. ولذلك لم يكن من غير المألوف أن يقوم كلُّ لاعبٍ، وفقًا لانتمائه السِّياسيِّ، بإهانة قِطَعِ العدوِّ التي فاز بها مُطلِقًا عليها اسم تيير أو كاڤاجناك أو اسم الملك نفسه...

حلَّ المساء وبدأت اللُّعبة، في قلب صمتٍ مُثقَلٍ بصيحاتٍ مكبوتةٍ، وسطَ متفرِّجين غير محايدين وقفوا بملامح جدِّيَّةٍ خلف اللَّاعبَين. وكان بين الجمع الغفير لابُوردونيه نفسُه وغريماه البَطَلان، دي تشابيل وسانت أمانت، وهذا الأخير كان عائدًا لتوِّه من انتصاراته في

لندن. متفرِّجان يختلفان عن الآخرين في أنَّهما لم يكونا يهتمَّان كثيرًا بالانفعالاتِ الكامنةِ وراء النِّزال بقدر اهتمامهما ببراعةِ النَّقلات.

كان پيبراك وسِكوندينو عِدْلَين تقريبًا في المهارة، ولكن ضدَّين في المزاج. الأوَّل كان حذِرًا وصعبَ المِراس، مطيعًا لإملاءات المدرسة الإنجليزيَّة؛ بينما كان الآخرُ، سِكوندينو، خصبَ الخيال غزيرَ الأفكار، قادرًا على الإتيان بأسرع البِدَع وألمع التَّضحيات. إحداها، وقد أساءَ حِسْبَةَ حِسَابِها، قادته إلى الاستسلام في الجولة الافتتاحيَّة؛ بينما مكَّنَتْه أخرى، في الجولة التَّالية، من معادلة النَّتيجة. وهكذا وصلا إلى الجولة النِّهائيَّة، وفيها بدا أخي، بسبب افتقاره إلى القِطَع وإلى المواقع، في طريقه إلى هزيمةٍ لا مَحِيدَ له عنها. ومع ذلك، بقبضتيه تحت ذقنه وبصدغيه الآخذَين في الانتفاخ بألمٍ مبرِّحٍ، أصرَّ على تفقيس لا أعلم أيَّ سلسلةٍ من النَّقلات الحاسمة. كان التَّيقُّظ من حولهما صامتًا ووحشيًّا ومتوتِّرًا. ولأنَّني عديم الخبرة باللُّعبة لأتمكَّن من التَّكهُّن على وجه اليقين بالمخارج، بحثتُ في وجوه المتفرِّجين عن تفنيدٍ لمخاوفي. ولكنَّ پيبراك أوهنَ عزيمتي حين شكَّل بشفتيه ابتسامةً ساخرةً وأشعل، في الوقت نفسه، سيجارًا، تاركًا نفثات الدُّخان تحرق عينَي سِكوندينو الصَّافيتَين. أردتُ تأنيبه على ذلك، ولكنَّ أخي سبقني. رأيتُ يده الشَّاحبةَ، المرقوشةَ بعروقٍ زرقاء، تقبض على بيدقٍ من بيادقه وتمرِّغ رأسه برماد منفضة السَّجائر الملآنة التي كان پيبراك قد وضعها أمامه. ثمَّ قال: «بهذا البيدق المدموغ، بهذا الجنديِّ القذِر والوضيع سوف أهزم مَلِكَكَ بسبع نقلاتٍ». وبدأ العدَّ ابتداءً بالنَّقلة الأولى.

نظرتُ إلى پيبراك: عَرَقٌ مفاجئٌ نضحَ من رأسه وجبهته وانتثرَ على شفتيه وسَبْلَتَي شاربه. جفَّفه عَفْوَ الخاطرِ بيده، يدٍ قصيرةٍ وغليظةٍ مغطَّاةٍ بهُلْبٍ أحمر، رأيناها في نهاية المطاف ترتاح على طاقيَّته الفضِّيَّة مثل رُتيلاءَ هَلْبَاء. بينما راحت الأخرى، يدُهُ اليُسرى، تحرِّكُ القِطَعَ على مضضٍ وفقًا لما فرضته عليها نَقلاتُ سِكوندينو مربَّعًا تلوَ المربَّع.

ستَّ نَقلاتٍ دامت المأساةُ، إلى أن حبسَ مَلِكُ پيبراك نفسه خلف رعيَّته وماتَ مخنوقًا هناك، بعد النَّقلة السَّابعة والأخيرة، نقلةٍ بتأديةِ البيدق المتوَّجِ بالرَّماد، بينما سُمِعَ صوتُ أخي يشقُّ الهواءَ برَخَامَةٍ هاتفًا: «ها هيَ ذي»، ليهتزَّ المكانُ بعد ذلك بتصفيقٍ طويلٍ انفجرت به أكفُّ المتفرِّجين.

بدا پيبراك في حيرةٍ من أمره للحظةٍ، ثمَّ ألقى برأسه إلى الخلف وهبَّ واقفًا. «أيُّها السَّيِّد»، قال. «لقد لمستَ هذا البيدق قبل بضع نقلاتٍ لتلطِّخ رأسه، ثمَّ وضعته في مربَّعه. ولكنَّك لم تحرِّكه في النَّقلة التَّالية، كما تقتضي قواعد اللُّعبة. لقد حرَّكتَ قطعةً أخرى، أيُّها السَّيِّد، ولذلك فأنت خاسرٌ».

ارتعدنا فَرَقًا، أنا والآخرون، ولكنَّ لابُوردونيه شقَّ طريقه وسط الجميع، ضخمًا وبدينًا، بوجهه المربَّع الصَّدُوق. أخذ مَلِكَ پيبراك، ذلك الأبيضَ، بكلتا يديه، يدَي خنَّاقٍ جميلتَين، ورفعه ثمَّ طفقَ يتحدَّث إليه بوقارٍ مُضحكٍ. «أيْ صاحبَ الجلالة»، قال، «أستميحك عذرًا، ولكنِّي أراك ميِّتًا ومدفونًا»، ثمَّ التفت إلى العقيد وتابعَ بنبرةٍ تعليميَّةٍ: «كان الأولى بك، يا سيِّدي العقيد، أن تتظلَّم في حينه من هذا الانتهاك.

ولكن أنْ تنتظر إلى نهاية اللُّعبة لتفعل ذلك، فأنت مُلزَمٌ بقبول الخسارة. أمَّا الآن»، وهنا أخرجَ ساعةَ جيبه، «إذْ هناك أسبابٌ وجيهةٌ للاعتقاد بأنَّ السَّاعة على وشك أن تدقَّ معلنةً منتصف اللَّيل، فما علينا سوى العودة إلى منازلنا. *أنا تكلَّمتُ؛ فُضَّ النِّقاشُ*[1]».

حبسَ الجميعُ أنفاسَهم إذْ هبَّ الاثنان واقفَين، أحدُهما يهتزُّ غضبًا، والآخر فَرِحًا. ولكنَّ المتفرِّجين لم يحرِّكوا ساكنًا في انتظار المطالبة العلنيَّة بأداء العهد المتَّفق عليه. حينئذٍ قال سِكوندينو لضابط فرقة المشاة الرَّاكبة: «إنَّني أحلُّكَ من العهد، يا سيِّدي، ولكن اعلمْ أنَّ الغرامة التي كان عليك أن تفتح شفتيك لتؤدِّيها لم تكن سوى أن تهتف *فليسقط الطُّغاة*. غرامةٌ أرأفُ من *يحيا المَلِك* التي كنتَ بالتَّأكيد تنوي إنزالها بي لو كنتُ أنا الخاسر. أمَّا *فليسقط الطُّغاة* فستوافق على أنَّ وقعها ألطفُ على الأُذن ولا تُجبر الضَّمير على الحنث بيمينه. اللَّهمَّ إلَّا إن كنتَ ترى في المَلِك كُمَّثرى[2] طاغيةً...».

ضحكتُ أنا أيضًا، فمع أنَّه لم يمض وقتٌ طويلٌ على وجودي في فرنسا إلَّا أنَّني رأيتُ ما يكفي من الرُّسوم الكاريكاتوريَّة في الصُّحف وعلى الجدران تلسعُ المَلِكَ مصوِّرةً إيَّاه على هيئة تلك الفاكهة. ولكنَّ پيبراك لم يضحك، بل إنَّه قام غاضبًا بإخراج عملةٍ معدنيَّةٍ عليها صورةُ المَلِك من جيبه، وطبعَ عليها قبلةً سريعةً، ثمَّ مشى نحو المخرَج.

---

(1) في الأصل باللاَّتينيَّة: *Ego locutus, causa finita*؛ (أ).

(2) الإشارة إلى المَلِك لويس فيليب الأوَّل الذي دأبت مجلَّة (La Caricature 1830 ـ 1843) الأسبوعيَّة على مهاجمته برسومها الكاريكاتوريَّة التي كانت تصوِّره على شاكلة حبَّةِ كُمَّثرى؛ (أ).

كان يبدو أنَّ المسألة انتهت هنا عندما، وقد بلغَ العتبةَ، يعلمُ اللّٰه أيَّ زُنبورٍ لَسَعَهُ فاستدارَ فجأةً وعاد على عقبيه.

«إنَّه دورُ عائلتك الآن ليمرِّغوا رؤوسهم بالرَّماد!»، صاحَ وضربَ سِكوندينو على خدِّه بفردةِ قفَّازه.

في الهرج الذي أعقبَ ذلك، هرعتُ لأُقحِمَ نفسي بين الاثنين، ولكنَّ الأسوأ كان قد وقع، فلم تكن ثَمَّ مندوحةٌ عن الاسترضاء والتَّرضية.

«أنا لا أبحث عن المشاكل، ولكنَّني أحيانًا أصادفها في طريقي»، أعلنَ سِكوندينو باعتزازٍ. «سيأتيك شهودي غدًا».

فاجأني سماعُهُ يتحدَّث هكذا. كان بإمكاني أن أُقسم أنَّه كان من مبادئه رفضُ المبارزة؛ وأكثر من ذلك، مع رجلٍ كهذا. ولذلك خطرَ لي أنَّه، بقدر ما كنتُ أحاول تشرُّبَ روحه وإعداءَ روحي بها، كذلك كان يفعل من جانبه، مقلِّدًا بلا شعورٍ أسخفَ الواجبات المفروضة على منزلتي كرجلٍ نبيل.

فبذلتُ قصارى جهدي لثنيه عن المبارزة. اعترضتُ بحجَّةِ افتقاره إلى الخبرة في السِّلاح بينما كان خصمه مُسايفًا بارعًا... فلم أحصل منه سوى على إقرارٍ بإيثاره المسدَّس على السِّلاح الأبيض الذي تورَّط فيه، وعلى تعليقٍ لآماله على بصر غريمه الكليل.

«هيَّا هيَّا، ما تظنُّ؟»، قال محاولًا طمأنتي. «صحيحٌ أنَّني لم أخترع البارود، ولكنَّ لديَّ عينين جيِّدتين وأعرف كيف أستخدمهما عند الحاجة».

ثمَّ انسحب ليكتبَ وصيَّته.

عشيَّةَ النِّزال ظلَّ الطَّقسُ مشرقًا على نحوٍ لا يُنسَى، مع أنَّ الشِّتاء كان يلوح في الأفق.

أذكرُ الجولةَ التي قمنا بها، أنا وأخي، في الشَّوارع الرَّئيسة للمدينة؛ أذكرُ ملصقات العروض التي ألقيتُ عليها نظرةً خاطفةً وأنا أفكِّر في أنَّه، هو أيضًا، كان ينظر إليها ويفكِّر في دخيلة نفسه: «مَن يدري إن كنتُ سأرى مدام ساكي مرَّةً أخرى ترقص على الحبل، أو إن كنتُ سأستمع مرَّةً أخرى إلى فِردِريك لُومِيتْر يؤدِّي شخصيَّة روبرت ماكاير على خشبة مسرح فولي... مَن يعلم أين سأكون غدًا مساءً...».

جاشَ ذلك كلُّه في داخلي، يجبُ أن أعترف، بتَرجافٍ لم يكن من غُمَّةٍ فحسب، بل من هاجسِ كَشْفٍ وشيكٍ: كما لو كانت تلك المبارزة هي الكارثة الرَّهيبة ولكن الضَّروريَّة لا لحلِّ عُقَدِ حياته فحسب، بل وعُقَد حياتي أيضًا.

انبلجَ الفجر، باردًا دون سابق إنذارٍ، كما يقتضي الفصل. ذهبنا إلى متنزَّه ڤانسن في مركبةٍ خفيفةٍ. في جيبي رحتُ أتحسَّس مغلَّفَ أمنياته الأخيرة المختومَ برقاقةٍ ختميَّةٍ.

حين قفزتُ إلى الأرض، أذكرُ، ابتلَّت جزمتي بالنَّدى ووخزَ ضبابٌ خفيفٌ أنفي. للحظةٍ تمنَّيتُ لو أنَّه يتكثَّف ويجعل النِّزال مستحيلًا، ولكنَّه في أقلِّ من لمح البصر بدأ ينقشع، ولم أجرؤ حتَّى على ذِكْرِ الأمر للشُّهود. كان هؤلاء أربعةً، اثنين لكلِّ طرفٍ، مع تنافرٍ بينهم منقطعِ

النَّظير، فشاهدا پيبراك كانا محاربَين قديمَين متجهِّمَين وصارمَين؛ بينما كان شاهدانا شابَّين مُثقلَين بالكرى، نصفَ خائفَين، ونصفَ جَذِلَين كأنَّهما في نزهةٍ. عبثًا كانت كلُّ محاولةٍ صُوريَّةٍ لرأب الصَّدع بين الطَّرفين.

«لا صُلح على أرض المعركة»، انفجرَ پيبراك غاضبًا. وأضاف: «لو كانت إهانةً لشخصي لغفرتُها، ولكن لشخص مَلِكي، أبدًا».

بدورِهِ، قال أحدُ شاهدَيه: «أنتم بلا شكٍّ لم توقظوني قبل لغيط القطا لأجل لا شيء».

نزعَ پيبراك قبَّعته وانحنى ليضعها على العشب. لامسَ شعاعُ شمسٍ حديثةِ الولادة، وقد اخترقَ ستارَ الغيوم السَّميك، لُجَينَ الصَّفيحةِ أعلى جمجمته. مواجهًا الشَّمسَ، بدا لي العقيدُ مُحاطًا بهالة قدِّيسٍ. ولم يتسنَّ لي الوقتُ لألعن نفسي على هذه الهفوة التي لا تُغتفَر قبل أن يبادر من تلقاء نفسه إلى النُّزول من علياء المذابح: «إذا متُّ»، قال متوجِّهًا بالكلام إلى سِكوندينو الواقف قُدَّامه، «أريد أن تكون هذه آخر فكرةٍ لي عنك!». ورماه، مرَّتين، بكلامٍ بذيء.

في غضون ذلك لُقِّمَت الأسلحة وحُدِّدَت المسافات. ثلاثون خطوةً بين الاثنين، وكان من الممكن أن يزيداها خمس خطواتٍ أُخَر قُبَيل إطلاق النَّار. ولكنَّ كليهما كان مُلزَمًا بالتَّوقُّف بعد إطلاقِ خصمه النَّار وبالرَّدِّ فورًا.

«يبدو لي»، همسَ شقيقي، «أنَّني أقودُ بنفسي فصيلةَ إعدامي بالرَّصاص».

في تلك اللَّحظة وصل الطَّبيب متأخِّرًا عن موعده. كان رجلًا ضئيلًا واهنًا ذا طِباعٍ بَرِمَةٍ نافدةِ الصَّبر. عاجَلنا على الفور بالإدلاء بقيمة أتعابه، ثمَّ اقتعدَ صندوقَ الأسلحةِ يدخِّن.

استوفى الأمرُ عُدَّته. أحصى الشُّهود الخطوات، إحصاءةَ رجلٍ واحدٍ، وإن لم يخلُ الأمر من شِجارٍ قصيرٍ حين حاول أصغرُ شاهدَينا، وكانت له ساقان طويلتان جدًّا، انتزاعَ بضعة أمتارٍ أخرى مبتغيًا زيادة المسافة. وأخيرًا، أُعطِيَ الأمرُ ليأخذ الجميع أماكنهم، ولكن كان لا بدَّ من تكرار الأمر بسبب سِكوندينو الذي أطلق رصاصةً طائشةً لشدَّة ما ضغط بإصبعه على الزِّناد. بدا أنَّ هذه الحوادث ذات النَّكهة الكوميديَّة تجرِّد المشهدَ من أيِّ إصابةٍ قاتلةٍ محتملةٍ، إذْ لم يكن ممَّا يقبله العقل أنَّ أفعالًا وطقوسًا مصطنعةً كهذه يمكن أن تنتهي سوى بإسدال السِّتارة والتَّصفيق. ازددتُ يقينًا بذلك حين شعرتُ بقطرةٍ قويَّةٍ تسقط على أنفي، علامةَ نهيٍ من لَدُنْ جبَّارٍ خارقٍ لنواميس الطَّبيعة. نظرتُ إلى الأعلى فرأيتُ أُسَيْطِيلًا وارِمًا من السُّحب يتناهبُ السَّماءَ فوقنا كأنَّه معمعةٌ من الصِّهاء والخطوم المشوَّهة، طامسًا وجهَ الشَّمس؛ ثمَّ إذا بغارةٍ من برقٍ ورعدٍ تنزل عموديًّا على قمم الأشجار التي طَلِسَ لونُها.

«كفى!»، صحتُ، «فلنسرع بحثًا عن ملجأ!» آملًا أن يتبعاني، ولكنَّهما بقيا واقفَين بلا حراكٍ على جانبَي البقعة التي لا شجر فيها، خدودُهما دَمائعُ وفي عيونهما جنونٌ عنيد. بقيا جامدَين جمودَ الحَجَر، كأنَّهما لا يريدان إخافة الأرنب الذي مسَّ كليهما مسًّا خفيفًا وهو يهرع،

قاطعًا المرجَ من أقصاه إلى أقصاه، ليختبئ في شقِّ شجرةٍ، بينما كنَّا نحن، مثل تلامذةٍ في يوم عطلةٍ، قد تلملمنا بالفعل تحت مظلَّة الشَّجر.

صحنا بهما مرَّةً أخرى ونحن نراهما، تحت زخٍّ كأنَّه رشقُ الحصى، يتقدَّمان بخطواتٍ بطيئةٍ إلى خطِّ إطلاق النَّار. أيقنتُ في تلك اللَّحظة أنَّ سِكوندينو يريد الموت وأنَّني، في دخيلة نفسي، كنت أتمنَّى له الشَّيء نفسه، مهما يكن مقدارُ عجعجتي لتجنُّب ذلك.

أحتفظ بذكرى غائمةٍ عمَّا حدث بعد ذلك، ولكنَّ صورتين لأخي بقيتا راسختين في ذاكرتي، عصيَّتين على المحو: إحداهما، رافعًا ذراعه ليطلق النَّار على سحابةٍ وعلى وجهه تعبيرٌ عن بهجةٍ طفوليَّةٍ، مثل مهرِّجٍ يعرض إحدى ألاعيبه؛ والأخرى، سطيحًا على الأرض في طوفانِ دمٍ يستحيل معه تبيُّنُ موضع الأنف من موضع الفم: أشبه بقناعٍ كرنفاليٍّ، أو بوجوه قاطفي عنبٍ مُرِّغت بالعصير من باب الفُكاهة. وبعبارةٍ موجزةٍ، لا شيء في مرآه كان يوحي بالموت.

ولكنَّه كان قد مات من لحظته، ولسنواتٍ عديدةٍ احتفظتُ في جيب صُدْرَتي بفضلةِ الرَّصاصة التي اخترقت فكَّه. منذ ذلك الحين، كلَّما سمعتُ هزيمَ الرَّعد شعرتُ بيدٍ حديديَّةٍ تضغط على صدري وارتميتُ على الأرض آخذًا في الأنين، مع أنَّني مدينٌ لذلك اليوم، لتلك المِيْتَةِ تحت السَّحاب الهَتُونِ، بشفائي وتجدُّدِ روحي. نعم؛ لأنَّ المعجزة كانت أنَّني بتلك الرَّصاصة القاتلة عُمِّدتُ من جديد. ففي اللَّحظة نفسها التي محقَ فيها انفجارُ الرَّصاصةِ رأسَ سِكوندينو، دوَّى انفجارٌ مماثلٌ بلا سفكِ دمٍ داخل رأسي، بينما عندلَ في كلِّ لُيَيفٍ من جسدي

انشراحٌ باغتٌ. وإذا بي، أنا كورَّادو إنغافو، البارونُ اللِّيتويانيُّ، الفرعُ المفتوقُ نِصْفَين، المفتَّقُ مِزَقًا من سلالةٍ من الأشراف، أنهضُ جديدًا متجدِّدًا من شرنقة تلك الجثَّة الرَّاقدة عند قدميَّ والتي عليها، صدقًا ونفاقًا، ذرفتُ الدَّمعَ. كنتُ قد عشت حتَّى تلك اللَّحظة كطفيليٍّ على نفقته، كما لو أنَّني منذ البدء وكَّلته بأن يعيش نيابةً عن كلينا، والآن، حين لم يعد موجودًا، ضممتُ روحه إلى روحي ونصَّبتُ نفسي وصيًّا على مصيره غير المكتمل. مُذَّاكَ فصاعدًا، بعد قبولي مجدَّدًا في رابطة الأحياء، كان عليَّ أن أعيش السَّنوات التي هي من قِسمته، وأن أنجز الأفعال وأقول الأقوال التي كان ينبغي أن ينجزها ويقولها، وأن أموتَ، في نهايةِ المطافِ، المِيْتَةَ التي كان مقدَّرًا له أن يموتها. فإن كان قبل ذلك مغتصبًا لوجودي وموكَّلًا به، فإنَّ الآيةَ منذ تلك اللَّحظة انقلبَتْ لأصير أنا مغتصبَ وجوده والموكَّلَ به...

سِكوندينو نفسُه لم يتكهَّن بغير ذلك في رسالته الجنائزيَّة التي أحفظ كلماتها عن ظهر قلبٍ، والتي تقول حرفيًّا:

أيْ كورَّادو، إن كنتَ تقرأ هذه السُّطور، فهذا يعني أنَّني قد أفلتُّ من ربقةِ الوجود الشَّخصيِّ وبتُّ أهيمُ أبديًّا مؤبَّدًا في الأثير. لا تُمَنِّيَنَّ النَّفسَ بمتاعِ الدُّنيا من وصيَّتي هذه، فنحن المولودين بعد بِكْرِ الأبوين محرومون، كما تعلم جيِّدًا، من امتلاك ولو السَّقَطِ منه. واعلمْ أنَّه كان بإمكاني استدعاؤك إلى المحكمة والصُّراخ مُطالبًا بحقوقي المحرَّفة. ولكن ما لي وما للحقوق، أنا الذي أجدها في المقام الأوَّل فارغةً وبلا قيمة؟ ما كنتُ لأسمح لنفسي أبدًا بالعيش في البلاط أحلبُ فلَّاحينا

متباهيًا بلقبٍ عقيمٍ أو مُشين. ولكن سأقول لك هذا: تجرَّدْ من كلِّ شيءٍ، لأنَّك إن أردتَ أن تواصلَ عملي فإنَّ الميراث هو كُلُّ ما تحتاج إليه.

لا أستطيع أن أخبركم إلى أيِّ مدىً وافقَتْ هذه الرِّسالةُ رغباتي. لقد كان موتُ أخي، كما قلتُ لكم آنفًا، قيامتي ومعموديَّتي الثَّانية. كانت كلُّ ذرَّةٍ في جسدي تعمل لبلوغ تلك الغاية. أنا الحاملُ له شبهًا خِلْقيًّا في الملامح والشَّعر، شعرتُ آنذاك في حنجرتي أنَّ صوتي هو الآخر كان يتقلَّدُ إيقاعات صوته. سِمَةُ الحدِّ الأدنى من الكلام، التي كانت خَصِيصَةً له، كانت تصبح يومًا بعد يومٍ عادةً وسلوكًا فيَّ. لم أكن في حاجةٍ إلى تقديم طلبِ انضمامٍ، إذْ سرعان ما وجدت نفسي، وعباءته على كتفيَّ، أتسلَّل إلى محافل الأفازيمِني[1]، **سادةِ الكمالِ السُّماة**، مُفحِمًا إيَّاهم هنا، وثانيًا إيَّاهم هناك، متحدِّثًا باسمه، حتَّى صرتُ في مدَّةٍ قصيرةٍ ذَلِقَ اللِّسان في العديد من اللُّغات. ولم تشعر القلَّة التي فطنت إلى ذلك، ولا الأكثريَّة التي خُفِيَ الأمرُ عنها، بالأسف أبدًا لتبادل الهويَّات هذا، ولذلك تقمَّصتُ تمامًا شخصيَّةَ النِّصف المفقود. فكان من الطَّبيعيِّ أن أنسى شخصيَّتي، اللَّهُمَّ إلَّا في أيَّام العواصف الرَّعديَّة...

وهكذا صرتُ الحائكَ لعددٍ لا يُحصى من المؤامرات بين منفيِّي دُوَلِ أوروبَّا بأسرها؛ ونتيجةً لذلك كنتُ معكم، على مدى السَّنوات القليلة الماضية، في سيسبادانيا وفي كابيتاناتا... دائمًا تحت إمرة الأب السَّرمديِّ. كما كان سِكوندينو نفسه ليفعل لو استطاع إلى ذلك سبيلًا. وقد اتَّخذتُ لنفسي، كما تعلمون، لقبَ ديديموس، والذي يعني

(1) بالإيطاليَّة: Afasimeni؛ الأرجح أنَّه محفلٌ ماسونيٌّ؛ (أ).

باليونانيَّة النَّظيرَ والتَّوأم، تكريمًا لظلِّه البعيد. ذلك أنَّ ظلَّه هو الذي يأمرني دائمًا عابرًا، لا أعرف بأيِّ صوتٍ ووحيٍ، ولا بأيَّة وسائل خافيةٍ، من عتمته إلى نورنا...

ولا يُحزنني، وأنا على وشك الموت، سوى أنَّه مع سقوط رأسي، ستسقطُ رأسُه أيضًا. ولا يعزِّيني إلَّا أنَّ ما انشقَّ وانقسمَ في الحياة، سيتَّحد مرَّةً أخرى بالموت.

VIII

عن المشي على الأفاريز

كانت العاصفة قد نفَّست عن غضبها. وكما لو أنَّ قَبَاءَ السُّحب الأسود قد قُطِّعَ ألفَ قطعةٍ بضرباتِ خنجرٍ عملاقٍ، سمحَ بين الكِسْفَةِ والأخرى ببزوغ نجمةٍ هنا ونجمةٍ هناك؛ وتفشَّى هواءٌ خانقٌ مختلطًا بالرُّطوبة العُصاريَّة للأرض. رعدةٌ أخيرةٌ، ولكن بلا عُرَامٍ، أشبه بزمجرةِ دَرْوَاسٍ تَخِمٍ، سُمِعَ ارتجازُها وهي تتبدَّد بعيدًا فوق الأمواه، حيث البحرُ والسَّماءُ يشكِّلان حصنًا واحدًا من السُّدَف.

ليلٌ أَلْيَلُ، ليلٌ مُستطيرٌ لَزِبٌ. ولكن في أيِّ ساعةٍ كانوا آنذاك، فهو ما لم يكن بإمكانهم معرفته. كان قد فاتهم التَّبديلُ الثَّاني لدوريَّة الحرس، ذلك الذي، مع أنَّ هَمْشَتَهُ انطمسَتْ تمامًا وسطَ عصفِ الرِّيح وتذاؤبها، كانوا على يقينٍ تامٍّ من أنَّه جرى في تلك الأثناء.

كان البارون قَلِقًا: «هل تجاوزتُ الوقتَ المحدَّدَ لي؟»، سألَ. ولكنَّ آجيسيلاو، رافعًا ناظريه يستقرئُ السَّماء، استشفَّ أنَّ السَّاعة لم تكد تتجاوز الواحدة صباحًا. وهو الوقتُ الذي من المفترض أن يأخذ فيه السَّجَّانون قسطًا من الرَّاحة لتجفيف ملابسهم على النَّار قبل أن يعودوا ليدقُّوا المسامير الأخيرة المتبقِّية في منصَّة الإعدام.

سرعان ما تأكَّدَ لهم ذلك من الأصوات الصَّاعدة إليهم مجدَّدًا من الفِناء: ولم تكن تلك أصواتَ وقعِ المطارق بأيَّة حالٍ، لم تَعُدْ كذلك، بل صوتًا غير واضحٍ يُلقي نكتةً على حلقةٍ من المستمعين، متبوعًا بقهقهاتٍ عاليةٍ قوطِعَتْ بصفقةٍ غضوبٍ لمصراعَي نافذةٍ في مهاجع الضُّبَّاط.

«بعد تفكيرٍ عميقٍ في قصَّتك، أيُّها البارون»، قالَ الجنديُّ، «أتساءلُ إن كان ميثاق الفروسيَّة ينصُّ على تعليق النِّزال في حال هطول الأمطار».

«تعلَّةٌ كهذه لا تهمُّ كثيرًا في نِزالٍ كهذا أرادَ فيه أحد المُنازِلَين أن يَقتُلَ بأيِّ ثمنٍ، والآخرُ بأيِّ ثمنٍ أن يموت»، كان رأيُ ساليمبيني. وهنا شرع الجميع في مناقشة قضيَّة سِكوندينو والبارون ووحدةِ الجوهر الباطنيَّةِ بينهما.

«متحدِّثًا عن نفسي»، قال الرَّاهب، «إذا سُمِحَ لي بالتَّعقيب على المسألةِ دينيًّا، فإنَّه يبدو لي أنَّ التَّوأمين، المتداخِلَين فيما بينهما تداخُلًا لا انفصامَ له، قد شكَّلا معًا مثنويَّةً مقدَّسةً أو ثانينًا مقدَّسًا، ثانينًا لو أضفنا إليه الأبَ السَّرمديَّ لحصلنا على ثالوثٍ حُرِّ الفِكر، من تلك الثَّواليث التي تُوصِلُ المراهقين إلى النَّشوة بموتِ وآلامِ الابن، فداءً للبشر أجمعين، تحت أمطار ڤانسن...».

غَضِبَ البارون: «هذه توريةٌ لا تروقني»، قال، «ولا يمكنني مسايرة تقلُّباتك بين التَّقوى وتدنيس المقدَّسات».

«إن كنتُ في ثوب راهبٍ»، قال الأخ تشيريلُّو، «فهذا ليس للسُّخرية من الثَّوب، بل لحُبٍّ له طاشَ سهمُه. أنا رجلٌ شديد التَّقوى، مع أنَّني

كثيرًا ما أسأل اللّٰه في سرِّي تفسيرًا لهذه الدُّنيا ومظالمها. ومع ذلك، في هذه اللَّيلة، بينما أستعدُّ لملاقاة وجهه الكريم والتَّحدُّث إليه عن كثبٍ، أجدُني عاجزًا عن أن أكبحَ في نفسي دُفقةَ حموضةٍ، صريفَ ملاحظةٍ، أو صريرَ مُناوأة: كما حين نخدش لوحًا زجاجيًّا بأحد أظفارنا أو يقشُّ حريرُ مظلَّةٍ شَعرنا فتئنُّ أعصابنا من ذلك...».

«أفهم ذلك»، قال البارون، «ولكن أفهم أيضًا لماذا قد تبدو قصَّتي لك غير قابلةٍ للتَّصديق أو مثيرةً تمامًا للضَّحك. بينما العكس هو الصَّحيح».

«مثيرةً للضَّحك، ربَّما»، قال تشيريلُّو، «ولكنَّها ليست غير قابلةٍ للتَّصديق. كلُّ ما هنالك أنَّني لم أفهم إن كنتَ في هذه المغامرة يعقوب أم عيسو...».

فجأةً خرَّ الطَّالب على ركبتيه قائلًا: «ها أنتم جميعًا تنسون الشَّيء الوحيد المهمَّ، الصُّندوقةَ التي على الطَّاولة، تلك التي سنُضطرُّ قريبًا إلى إيداع حياتنا أو موتنا فيها. كان دهاءً من الشَّيطان أن تُترَك هذه الشَّمعة المشتعلة تحترق في أيدينا. وفوق ذلك كلِّه، لم يكن لأحاديثنا، التي رجوتُ منها غوثًا، سوى أثرٍ عكسيٍّ. فأنت الذي كنت تبدو لي رجلًا صُلبًا وراسخًا، أيُّها البارون! ها أنا أراكَ الآن وكيلًا لرجلٍ آخر، بل أكاد أراك شبحًا له بيننا. ولكن سواءٌ أنصفًا كنتَ أم كاملًا، فإنَّك تقوِّي شكوكي فيما إذا كنتُ أعيش قصَّةً خياليَّةً أو أموتُ مِيتةً ستغيِّر التَّاريخ. باللّٰه عليكم»، وهنا أجهشَ بالبكاء، «قولوا لي ماذا أفعل؛ برِّروا لي هذه التَّضحية أو ردُّوني إلى شبابي، إلى الكؤوس المترَعاتِ تحت الدَّالية، إلى الموسيقى، إلى القُبلات؛ دعوني أحيا...».

«رَهبوتُكَ هذا»، قال البارون، «كرَهَبوتِ مَن يمشي على إفريزٍ ويرتجفُ لفكرة السُّقوط. إنَّها فكرةٌ مرعبةٌ إذا ما قُرِنَتْ بفكرة الارتفاع الشَّاهق، بينما لا أحد يخاف المشيَ على جدارٍ ضيِّقٍ ارتفاعُه مترٌ واحدٌ، مع أنَّ إمكانيَّة السُّقوط في كلا الحالتين واحدة. لذلك ترى البحَّارةَ والبنَّائين والسَّائرين في نومهم، المتعوِّدين منهم دُربةً والواثقين منهم جهالةً، يَنْجُون دون أن تُمَسَّ منهم شعرةٌ واحدةٌ حيثما يهوي الرَّجل الواعي».

«ولكنَّني، ولكنَّنا»، قال الفتى، «لا ننظر إلى الهاوية فحسب، بل ننظر إليها ونحن على يقينٍ من أنَّنا هاوون فيها عمَّا قريبٍ لا محالة. مع هذه الشَّوكة في قلوبنا: أنَّنا لو أردنا النُّكوصَ عن الأمر، لاستطعنا ذلك».

وضعَ ساليمبيني يديه على كتفَي نَرتْشِيزو وقال: «صَهْ! سوف نسحب الخيوط معًا في النِّهاية. أمَّا بالنِّسبة إلى اعترافك، أيُّها البارون، فإنَّ نَرتْشِيزو على حقٍّ في أنَّه لا يساعدنا على اتِّخاذ قرار. ليس هذا فحسب، بل إنَّه يتحاشى المسألةَ الأكثر خطورةً، تلك التي التففنا جميعًا حولها مُذْ دخلنا السِّجن، دون أن نجرؤ على التَّطرُّق إليها، بل كنَّا نُخفيها وراء الكلمات المُلطَّفة. أتحدَّث عن الموتى الأبرياء الذين قتلتهم نيرانُ آلتنا الجهنَّميَّة دون أن يُخدَشَ الطَّاغية؛ أتحدَّث عن مِيْتَاتٍ أُخَر ستتسبَّبُ فيها الآلةُ القادمة...».

«ألم أقل لكم من قبلُ إنَّ دماء الشُّهداء هي الطَّريق»، قال البارون بصوتٍ خافت.

«دماء المستشهدين طوعًا، لا خلافَ على ذلك؛ ولكن ليس دماء المستشهدين كرهًا وغفلةً».

«وأنا؟»، قاطعَهُما نَرتْشِيزو الحديثَ. «ماذا عنِّي أنا الذي لا أريد أن أكون شهيدًا ولا جاسوسًا؟».

أجابته جلبةٌ من الفِناء: وقعُ أقدامٍ، وهمهماتٌ قِصَارٌ، ونقراتُ رَكْزِ الحِرابِ في أطراف البنادق.

«كفاكم الآن، فترةُ الاستراحةِ انتهت»، قال آجيسيلاو مُصيخًا السَّمع. «وقد تكون قصَّتي هي الأطول».

حينئذٍ، ودون انتظار مباركةِ أحدٍ، أضاف: «قصَّتي عنوانُها *الخليط*».



IX

روايةُ الجنديِّ
أو
الخليطُ

وُلِدتُ قبل ثلاثين عامًا على دكَّةٍ في خانٍ لعربات الخيل، أو هذا ما أخبروني به حين بلغتُ سنَّ الرُّشد. كانت والدتي ممثِّلةً جوَّالةً تنتقل من أرضٍ إلى أخرى في شراكةٍ مع شقيقيها وشقيقتها الصُّغرى، راميرا، مقدِّمين عروضهم لقاءَ أجرٍ زهيدٍ أمام أكثر الرِّعاع سذاجةً. كانوا يمثِّلون في السَّاحات وفي المخازن وفي البيادر؛ وكانوا يطوون المسافات سيرًا على الأقدام جارِّين وراءهم بذراعَي جَرٍّ عربةَ عجائب كبيرةً، ملأى بالمألوف والغريبِ من الإمدادات: سيوفٌ من القصدير مختلطةٌ بمكانس من نبات الحَلْفَاء، وجواليقُ من الفولِ المجفَّف على متاريس قلعةٍ من الورق المقوَّى... هذا كان ديدنهم في التَّرحال، وإن صحَّ زعمُ الفيلسوف أنَّ السَّفر يضيف حياةً إلى الحياة، فإنَّ أمِّي وأخوالي قد عاشوا حيواتٍ جمَّة. كانوا لا يتفرَّقون أبدًا، إلَّا لِمامًا، ساعةَ الزَّوال، حين تفرغ جعبتهم، فيمضي الذَّكران إلى الحقول بحثًا عن بعض المَجَاني الغجريَّة من أعشابٍ وفاكهة. إلى أن، في هاجرةٍ من هواجرَ كِثارٍ، بينما كانت

المرأتان تنتظران حيث جعلت لهما العربةُ، بذراعيها الميِّتتين المتَّجهتين نحو السَّماء، ظلًّا وسقفًا، مرَّ بهما خيَّالٌ، وفي لمح البصر سدَّ ثغريهما بالقُبلات، عَرقانًا، أهلبَ، مُغبَرًّا، في حَمَارةِ القيظ، بعد أن ربط دابَّته إلى جذع صنوبرة. لم تكن أمِّي امرأةً طاهرةً حتَّى تخاف، ومع ذلك تضرَّعت بصوتٍ خافتٍ إلى الرَّجل أن يوفِّر للفتاة عِرضَها. وإذ لم تلق غير اللَّكْمِ بِجُمْعِ الكفِّ والوَكْزِ برأس الخنجر جوابًا، صاحت بالأخرى «اهرُبي!»، وبعضَّةٍ واحدةٍ انتزعتْ أُذنَ الرَّجل من مكانها. هربت الأخت الصُّغرى، واستسلمت هي لجبروت غازيها، ووُلِدتُ أنا بعد سبعة أشهرٍ، خديجًا ومُباغِتًا مرَّتين، لأنَّ الجميع كانوا عُميًا عن الانتفاخ التَّدريجيِّ الذي أخفته أزياء المسرح الفضفاضة.

حدثَ ذلك مساءَ يوم أحدٍ، في منتصف عرضٍ مسرحيٍّ، في اللَّحظة التي حان فيها دورُ المرأةِ لتُعوِلَ، لا أدري في أيِّ شخصيَّةٍ من شخصيَّات ماري ستيوارت، على جثَّة عاشقٍ مقتول. ولم تكد تفتح شفتيها لرفع العَوْلات الزَّائفةِ من جزئها حتَّى استولت عليها آلامٌ حقيقيَّةٌ، فكان عليهم أن يحملوها إلى المبنى الحجريِّ القريب الذي كان ساسة الخيل ورعاة الماشية يتَّخذونه مبيتًا لهم، وهناك، على دكَّةٍ خشبيَّةٍ، كاتفوها على وضع حِمْلِها. ذانكم كانا الزَّمانَ والمكانَ اللَّذَين ابتدأتُ فيهما وجودي في العالم، ومُذْ سمعتُ عنهما من شاهد عِيانٍ قبل سنواتٍ خَلَتْ وأنا كثيرًا ما أحلم بهما بين اليقظة والنَّوم. منذ ذلك الحين، كلَّما أغمضتُ عينيَّ وجدتُني أقتاسُ ارتفاعَ روافدِ سقف المبنى، المغطَّاةِ بالسُّخام، فوق رأسي المولودةِ حديثًا؛ وأشتمُّ صُنَانَ العلفِ والنَّبيذ؛ وأتخيَّل المرأة منفرجةَ السَّاقين على حشيَّةِ القشِّ، فأرى طستَ الدَّم

بجانبها، وأسمع تصفيق التَّهنئة من أكفِّ النُّزلاء. في ركنٍ بعيدٍ، داخل مخروطٍ من العتمة، وظهراهما إلى الحائط، يقف خالاي، متشكِّكَين، وشاحبَين، وكارهَين في صمتٍ حفنةَ اللَّحم التي هي أنا. ولكن، على أيَّة حالٍ، لم تسنح لهما الفرصة لرؤية تلكم الحفنة مرَّةً أخرى، ففي اليوم التَّالي أصرَّا على استئناف الرِّحلة، وأنَّ على والدتي أن تتوقَّف هُنيهةً عند فتحةِ اللُّقطاءِ في جدار ديرِ الآباء الكاراتشوليِّين[1] لتُوْدِعَ رضيعها هناك. وبعد أسابيع قليلةٍ انتهى الأمر بالأخوين في قاع النَّهر مع حجارةٍ حول رقبتيهما، بعد عراكٍ في وِجَارٍ من أوجرة المهرِّبين.

تلكم أشياء عَلِمْتُها بشكلٍ غير مباشرٍ وتبدو لي محضَ أحلام. في العادة أشكُّ كثيرًا في أنَّ الأشياء تحدث حقًّا وفي أنَّني أنا نفسي موجودٌ، ولا أكفُّ أبدًا عن تصوُّر نفسي حلمًا. فما بالكم بفُتاتِ المشاهد والصُّوَر والإيماءات والرَّوائح التي تتعلَّق بميلادي، تلكم التي وصلني وحيُها مؤيَّدًا بذاكرةِ غريبٍ، بينما تتمنَّع على ذاكرتي هذه الذِّكرى التي هي لي وليست لي، فتظهر لي سريعةَ الزَّوال مثل تقاطُعِ ظلَّين على الحائط، حين تتلامس كتفا عابرَين والشَّمسُ مُدركةٌ إيَّاهما ازورارًا. أحيانًا أسأل نفسي: هل ما نسيتُه موجودٌ؟ وموتي غدًا، هل سيظلُّ موجودًا عندما لا تعود العيون التي شهدَتْه موجودةً: عيونُ الحرس، والحاكم، والجلَّاد؟

«لا تنسَ ابنةَ الجلَّاد»، تدخَّل الشَّاعر بوقاحةٍ. ولكنَّ الآخر واصلَ وهو يمسح جبهته بكفِّه وقد بدأ فجأةً يتعرَّق بغزارةٍ: «لقد نشأتُ في

(1) رهبانيَّةٌ كاثوليكيَّةٌ تأسَّست في عام 1588، وأحد مؤسِّسيها القدِّيس فرانتْشِسكو كاراتْشولو؛ (أ).

مدرسةٍ دينيَّةٍ، ولذلك لم يمضِ يومٌ لم يخطر لي فيه أنَّ قدري قدَرُ كاهنٍ. لم أكن أسِفًا لذلك، بل على العكس، فالفكرةُ التي كانت لديَّ عن العالم هي أنَّه كان مكوَّنًا من أيتامٍ وكهنةٍ فحسب. كان الأيتام هم الأقران الذين اعتدتُ الدِّراسةَ واللَّعبَ معهم، وأيتامًا بدوا لي، أو ربَّما كانوا بالفعل أيتامًا، الكهنةُ الرَّاشدون الذين كانوا يدرِّسوننا. يتيمًا ومذكَّرًا ومتسربلًا بالسَّواد كان الكونُ من حولي لسنواتٍ عديدة. كان الدَّير يقوم في وادٍ عميقٍ محاطٍ بتلالٍ خضراء، وكان يقطنه رجالٌ متجهِّمون متسربلون بالسَّواد. كانت القرية قريبةً ولكن لم يكن مسموحًا لأيٍّ منَّا بالذَّهاب إلى هناك؛ وعرفتُ شكل النِّساء من تمثالٍ شمعيٍّ ملوَّنٍ للسَّيِّدة العذراء، منسيٍّ في غرفةِ الحُلَل الكهنوتيَّة. كثيرًا ما كنت أذهب إلى هناك لأتأمَّله وأكلِّمه. شيئًا فشيئًا صرت مقتنعًا بأنَّ النِّساء كنَّ مجبولاتٍ من عجينة الملائكة نفسها، من شيءٍ ناعمٍ وريشيٍّ، شيءٍ كانت يدي تبحث عنه في الهواء كمن يريد أن يداعب غيمة».

وسرعان ما تعلَّمت من حياة المسيح أنَّ هناك آباءً وأمَّهاتٍ، وأمَّهاتٍ لم يعرفن رجُلًا. وجعلني ذلك أتساءل عمَّا إذا كان لديَّ، أنا أيضًا، أمٌّ وعمَّا إذا كانت من هذا الصِّنف من النِّساء. الصَّمت الذي تلقَّيته ردًّا على سؤالي أرعبني، وبقيتُ لفترةٍ من الزَّمن أحمله معي كحدبةٍ على ظهري.

ذلك كلُّه وأنا أشبُّ أهلبَ وخشنَ الطَّبع. وذات يومٍ، بينما كنت أغنِّي في الجوقة، سمعتُ صوتي يغلظُ في حنجرتي ويخرج بشعًا، كصوت رجلٍ بالغ. احتشد الأصحاب حولي في ذلك الصَّباح، متأرجحين بين

الاشمئزاز والانبهار، وقد بدوا كحملانٍ سمعت عواءَ ذئب. يشقُّ عليَّ أن أخبركم عن الأفعال الذَّميمة التي أسلمتُ نفسي إليها بعد ذلك بوقتٍ وجيز. أشياء تملَّكتني بالفطرة وعلَّمتُها لمن سَلِسَ قيادُه من صحبي. ليس دون أن يعترينا جميعًا، ونحن نقترفها، شعورٌ وبيلٌ بالتَّلاشي، تاركًا إيَّانا عاجزين عن الكلام. لعامٍ أو عامين بقي هذا السِّرُّ وشيجةً بيننا، هالةً حول رؤوسنا، ولكنَّها كانت هالةً حزينةً، مهدَّدةً بنكدِ الخطيئة. كلُّ ما شعرنا به في ذلك الوقت كان في الحقيقة ذا وجهين: فمن ناحيةٍ ندمٌ وتوقٌ إلى الموت، ومن ناحيةٍ أخرى جيشانُ طاقةٍ بطوليَّةٍ تفوق طاقة البشر؛ من ناحيةٍ هلعٌ من عزلةٍ تشاركناها معًا، ومن ناحيةٍ أخرى نشوةُ أن نشنَّ نحن القلَّة، كلٌّ من جانبه، حربًا ضدَّ بقيَّة البشر. تلك كانت سنُّ الخمسة عشر بالنِّسبة إلينا. ولكن انضافَ إلى ذلك عندي شعورٌ بالانفصال عن كلِّ ما كان يدور حولي، كما لو كنتُ كلَّ صباحٍ أشاهد عرضًا صامتًا لدُمىً متحرِّكةٍ خاليةٍ من المشاعر، دِمْناتِ حياةٍ كانت في الغالب زائفة. أعلم أنَّني أقول كلماتٍ مُبَلْبَلَةً، فاعذروني، لأنَّني لا أستطيع أن أجد أفضل منها. لا شكَّ في أنَّني حين كنت أرى البِذارَ ينبثق من أعماقي ويسفك زُلالَه على الأرض، في تلك اللَّحظة فحسب، كنتُ أشعر بمثل هذا الانتشاء العظيم، وبأنَّني برأتُ للحظةٍ من غُصَّةِ عدم كوني إلهًا. قصيرةَ الأمد كانت خطيئتنا الجماعيَّة، فقد سئمتُ من اتِّخاذ أولئك البُلَداء، السُّذَّج المتطابقين، رعيَّةً لي، واعتزلتُ في ملكوت متعتي كما لو في خلوةٍ شمَّاء.

مرَّ مزيدٌ من الوقت. صرتُ أنشُدُ في الكتب ضالَّتي من وُسَطاء البغاء.

أذكرُ كتاب «اللَّاهوت الأخلاقيُّ»[1] الذي استقرأتْ فيه لاتينيَّتي الحديثةُ العهدِ صفحاتِ «فسخ الزَّواج»[2]؛ عالمٌ مسرحيٌّ يسرد في كلِّ فقرةٍ من فقراته زيجات الحوريَّات والآلهة؛ أذكر العهدين، الجديد والقديم، مع مجدليَّاتهما وسامريَّاتهما، وذلك النَّشيدَ، نشيدَ سليمان الذي ما أزال أذكر آياته: «شَعرُكِ كقطيع مِعْزٍ رابضٍ على جبل جلعاد... شفتاك كسِلْكَةِ قرمزٍ، خدُّكِ كفلقةِ رمَّانةٍ تحت نقابكِ... ثدياكِ كخشفتي ظبيةٍ، توأمين يرعيان بين السَّوسن...».

شفَّني الهمُّ، وتشكَّلت تحت عينيَّ نُقرتان، وفي نظرتي بانَ بريقٌ مُهَوَّسٌ ومُجَوَّع. كان خلال هذه الفترة أنَّ الدُّون كارافا، وهو رجلٌ كَذِبُ الطِّباع مُبهجُها اعتاد التَّسلُّل إلينا خفيةً بنعاله الرَّخوة وقَرْصَنا بخبثٍ، جاءَ يبحث عنِّي نيابةً عن رئيس الدَّير، الأب أرَّابيتو، الذي بَغَتَتْهُ سكتةٌ دماغيَّةٌ فأقعدته، منذ فترةٍ طويلةٍ، على كرسيٍّ في غرفته. «يريد أن يراك»، قال لي. «لا أعلم لأيِّ غرضٍ، ولكن بالإيماءات والكلمات المفكَّكة طلب عدَّة مرَّاتٍ لقاءك». خفض ذقنه بتملُّقٍ غير متوقَّعٍ وتابعَ حديثه، «كن متواضعًا ومطيعًا، أيًّا يكن ما قد يطلبه منك: لقد كان الأب أرَّابيتو قدِّيسًا على الدَّوام، والآن جعله المرض أكثر قداسةً». تبعتُه في صمتٍ وإن كنتُ في دخيلتي رافضًا ذلك بشدَّة. لم أكن أحبُّ أيًّا منهما، وخاصَّةً وظُلْمًا أكبرهما، لأنَّه كلَّ صباحٍ، بفمه الملويِّ، كان يجعلهم يحملونه إلى القُدَّاس على محفَّةٍ، مسنودًا من كلِّ جانبٍ بسواعد اثنين من أقوى

---

(1) Theologia Moralis تسعة مجلَّداتٍ كُتبَتْ بين عامَي 1748 و1785 من قِبَل القدِّيس ألفونسو ليغوري؛ (أ).

(2) في الأصل باللاَّتينيَّة: nuptiis dirimendis؛ (أ).

فِتْيَتِنا، وكثيرًا ما كنتُ أحدهما، وكان عليَّ أن أراه يريلُ من بين لثَّتيه الخاملتين، كعُنَّابةٍ سكَّريَّةٍ، فوق الحضور السَّامي لخبز القربان المقدَّس.

ومع ذلك أطعت، وحين صرت أمام المُقعَد، وبعد أن صُرِفَ الدُّون كارافا بإيماءة يدٍ، انتظرتُ بأذنين مخفوضتين ومفتوحتين أن يبدأ. كان الأب أرَّابيتو سليم العقل وإن اعتاد أن يتلعثم في عباراته بسبب الشَّلل الذي أصاب نصف وجهه. ولكنَّه هذه المرَّة، وخلافًا للعادة، تكلَّم بقدرٍ كافٍ من الوضوح: «اسمعْ يا آجيسيلاو»، قال لي، «إنَّ حظَّك من الأصدقاء بين آباء الدَّير قليلٌ، وسيكون أقلَّ حين أرحل. الآن، وقد شببتَ بسرعةٍ، فإنَّك بتَّ تعكِّر صفاء الجوقة ونقاء الصِّبية الآخرين، وكثيرون يتذكَّرون الطَّريقة الغريبة التي جئتَ بها إلينا. وليس بيننا، حيالَ هذا الصَّوت الذي حَبَتْكَ إيَّاه الطَّبيعة أخيرًا ليقرقر داخل حنجرتك، مَن لا يسمع، بدلًا من الجَرْس النَّاضج للعمر الذي بلغتَه، الصَّوتَ الخشنَ الخارج من بطن لوسيفر. يكلِّفك ثمنًا باهظًا أن تكون ابن امرأةٍ غجريَّةٍ وأن تولد من علاقةٍ محرَّمة. ولذلك حان الوقت لإخبارك بهذه الأمور، قبل أن يحرِّفها آخرون أو يُخفوها»، وهنا طفق يحدِّثني عن ولادتي وعمَّا صاحبَها من إشاعاتٍ انتشرت بين القرية المجاورة والدَّير، ثمَّ صمتَ. وحين عاد إلى الحديث مرَّةً أخرى أمرني: «افتح ذلك الدُّرج»، مُشيرًا بإصبعه إلى خزانةٍ صغيرة. «ستجد في الدَّاخل قطعةً من القماش تضمُّ الأشياء الصَّغيرة التي جاءت معك قبل خمسة عشر عامًا: نَوْطٌ صغيرٌ، قلادةٌ من الزُّمرُّد الزَّائف، خنجرٌ طُلَيطِليٌّ، مقبضه من العوهق، يخترق ورقةً من جهةٍ إلى الأخرى. على هذه الورقة وجدنا إشارةً إلى اسمك...».

كانت هذه الكلمات، كما قلتُ آنفًا، تخرج بسلاسةٍ من بين شفتيه، ولكن لم يكن لديَّ وقتٌ لأنذهل لأنَّ صوته اختنق فجأةً في هسيسٍ متلعثمٍ، ثمَّ تلاشى تمامًا.

حين خرجتُ إلى الممرِّ كان الأب كارافا كامنًا لي وبدأ يتملَّقني: «ماذا هناك، ماذا يريد؟». انتزعتُ نفسي منه وجريتُ إلى حُجَيرتي. وهناك، بعد أن حللتُ اللِّفافةَ عمَّا احتوته من متروكاتٍ متنافرةٍ، وجدتُ بين يديَّ قَدْرًا لا يُستهان به من الأشياء التي تستدعي التَّأمُّل. بدءًا بالقلادة التي كانت زينةً مسرحيَّةً لا قيمة لها على الإطلاق، تباهيًا بمَلَكيَّةٍ زائفةٍ؛ وليس انتهاءً بالخنجر الذي لم يحُل تنميقه بالأحجار الكريمة دون افتضاح طبيعته القاتلة، خاصَّةً إذا افترضنا أنَّ البقع البنِّيَّة التي تلطِّخ رأسه دماءٌ وليس زنجارًا. قلادةٌ وخنجرٌ لم يعطياني، على أيَّة حالٍ، تلميحًا سوى إلى أنَّ الأولى، بتطويقها عنقًا، والآخر، بتسليحه يدًا، كانا لامرأةٍ ورجلٍ يكتنفهما الغموض، لمريم من المريمات ويوسف من اليوسُفات، لا أعرف كيف أنجباني.

من الأشياء الأخرى تبيَّنتُ أكثرَ من ذلك: نمَّ النَّوطُ عمَّا يشبه عينين زرقاوين، حزنهما يجلُّ عن الوصف، تعبُرُهما تحت الزُّجاج خصلتان من شعرٍ أشقر؛ أمَّا الورقة، فما إن سحبتُها من نصل الخنجر حتَّى تبيَّنتُ إهداءً شبهَ ممحوٍّ: *إلى ابني آجيسيلاو*، وتحت الإهداء إلماعتان تقول أُولاهما: *ابحثْ عن المالكِ تجدْ أباكَ*؛ بينما تقول الأخرى، الأكثر تجبُّرًا من الأولى: *أغمدْ هذا الخنجر في قلبه*...

حين قرأتُ هذه الكلمات، اجتاح الهياجُ كلَّ أطرافي. لم أستطع فهم

الأسباب التي دفعت رئيس الدَّير إلى مباغتتي بهذا الإفصاح. لم أكن حتَّى تلك السَّاعة، شأني في ذلك شأن جميع الرُّهبان المبتدئين، قد سمعتُ أكثر من همساتٍ بخيلةٍ عن ولادتي: أنَّها كانت ممنوعة الذِّكر وغير شرعيَّةٍ؛ وأنَّني، كما الآخرين، كنتُ لقيطًا، أكسحَ في كلا السَّاقين، مفتقرًا إلى السَّندَين، الأب والأمِّ، اللَّذين هما حقٌّ لكلِّ ابن إنسانٍ؛ ولكن في مثل هذه الحالة الوحشيَّة كان هناك دواءٌ وكانوا همُ الدَّواء، الآباء الكاراتشوليُّون: مئة أبٍ بدلًا من الأب الأوحد. والكنيسةُ، من جانبها، ضامَّةً إيَّاي كامرأةٍ إلى صدرها الدَّافئ، كانت هي التي ستروي حتَّى الشَّبع يُتميَ المنبوذ. هكذا كبرتُ، وفي ذهني ظلامٌ ونورٌ: ابنُ لا أحد، ولكن مُرَقًّى لأكون ابن اللّٰه، ومرصودٌ لخدمته.

ولكن وجدتُني آنذاك، بشكلٍ أو بآخر، مبتورًا من عائلتي الجديدة دون أن تُرَدَّ لي الأولى، بل دون أن يُقَدَّم لي سوى إشاراتٍ عنها، إشاراتٍ شوَّشتني وبلبلَتْ فِكري: تصويرةُ العينين الزَّرقاوين، بقيَّة الشَّعر التي فصل الزُّجاجُ بينها وبين لمسةِ أصابعي، ذلك الخنجرُ اللَّهْذَمُ، ذلك الأمرُ بالقتل... أعدتُ المتروكات إلى صرَّتها وأخفيتُ الصُّرَّة تحت الوسادة.

حين خرجتُ من حُجَيرتي وجدتُ الأب كارافا ما يزال كامنًا لي، متطفِّلًا ومتملِّقًا. قال: «عليك حقًّا أن تفقأها»، وبأصابع ناعمةٍ عصرَ بثرةً على ذقني. ثمَّ مُصِرًّا: «ماذا قال لك أبونا؟ ماذا أراد منك؟».

«عليَّ أن أكتم السِّرَّ»، أجبته بجفافٍ. «الطَّاعة المقدَّسة تقتضي ذلك»، وانزلقتُ من بين ذراعيه.

بعد أيَّامٍ قليلةٍ انتقل الأب أرَّابيتو إلى الرَّفيق الأعلى، واليدُ الحاميةُ الَّتي، على الرَّغم من عجزها وصمتها، أبقاها ممدودةً فوق رأسي، ذبلت وتركتني أعزل بلا حولٍ ولا قوَّة. وسواءٌ أكان الأمرُ أنَّ واحدًا من صحبي قد وشى بي، أم أنَّ كاهن اعترافي أو شخصًا آخر قد خان سرِّيَّة الاعتراف، أم أنَّ أثر فعلتي قد اكتُشِفَ في بعض ملابسي الدَّاخليَّة أو في قعر المِبْوَلة... فواقع الحال هو أنَّني اتُّهمتُ، وإنْ بمُبْهَمِ وغائمِ الأحاديث، باقتراف فعلاتٍ نجسةٍ وبإغراء رفاقي على الفاحشة. فكان عليَّ أن أتَّبع الأوامر بأن أستحمَّ مرَّتين في اليوم بماءٍ باردٍ كالثَّلج، وبأن أترك بابَ بيتِ الرَّاحة موارَبًا ونوافذَ حُجَيرتي مفتوحةً على مصراعيها. في تلك الحُجَيرة، أحيانًا في النَّهار، ولكن بالأخصِّ في اللَّيل، كان الدُّون كارافا يدخل عليَّ على حين غفلةٍ وبأصابع خفيفةٍ يرفع الملاءة عنِّي. إلى أن في إحدى الأمسيات، وأنا أتكلَّف النَّوم عنادًا، سمعتُ هبَّةَ نَفَسٍ تُطفئ الشَّمعة ووَقْعَ خطوٍ يتوقَّف عند أقدام سريري، ثمَّ أحسستُ بلحمٍ سمينٍ ورخوٍ يندسُّ بجانبي.

«عليكم بالقاتل!»، صحتُ وأنا أركُل، بينما منامةٌ بيضاءُ تولِّي هاربةً في العتمة. ولم يكن من العسير بعد ذلك إقناعُ مَن هرع إليَّ من الرِّفاق بأنَّني كنتُ أصرخ في منامي.

ولكنِّي آنذاك كنت أشعر بالخزي بين جدران الدَّير. أحيانًا، من النَّافذة، كنتُ أراقب مرور الطَّير وجريان الغيوم في مَهْرَبِها صوبَ دائرة الأفق، وكنت أشعر بحكَّةٍ في أصابع قدميَّ العارية داخل صندلي. نبتت لحيتي وامتثلتُ على مضضٍ لواجب حلقها، خاصَّةً وأنَّ الشَّفرة هيَّجت البثور

التي غزت وجهي. كنت أستخرج ماءَها، هُلامًا شاحبًا ذكَّرني بالهُلام الآخر، بالمنيِّ المسفوح على الأرض: كما لو أنَّ فائضًا من القيح كان دفينًا في جَنَنِ جسدي وكان عليَّ أن أساعده على الخروج. أخيرًا، في يومٍ من الأيَّام ـ ها أنا أقترب من أخطر حوادث حياتي شأنًا، ذلك الذي تنبثق منه الحوادثُ الأخرى ومنه ينبثق موتي هذا ـ بينما أنا منكبٌّ، بمقتضى الكفَّارة، على ترتيب بعض أوراق أرَّابيتو الرَّاحل، إذ سقطت من أحد المجلَّدات ورقة. وجدتُ ملخَّصًا بخطٍّ يد المالك السَّابق لأخطاء بايوس[1] التِّسعة والسَّبعين، وهو اسمٌ كان جديدًا عليَّ ولكن سرعان ما علمتُ أنَّه كان لاهوتيًّا في جامعة لويفن ومؤثِّرًا رئيسًا في فِكْرِ جانسينيوس[2]. حين استطعتُ تبيُّن ذلك الحبر الباهت والقديم، بحروفه الشَّائهة المكتوبة على ما يبدو بخطِّ صبيٍّ صغيرٍ (ومن يكون الصَّبيُّ غير أرَّابيتو نفسه؟)، أذهلني فحواه. ذلك أنَّني وجدتُ في كلِّ عبارةٍ، ودون حجاب الرُّموز والإشارات، انعكاسًا لأفكاري الأكثر سرِّيَّةً، فتولَّد في قلبي فزعٌ فخورٌ، كفزع شخصٍ اكتشف على صدره، وهو يتمرأى، شِيَةً ولم يعرف أوَحْمَةٌ هي أم جُذامٌ أم شعار الزَّنبقة الملكيَّة.

كان المهرطق يتحدَّث عن آدم شبيهٍ بجسمٍ نورانيٍّ عظيم، عاش في سلامٍ وسعادةٍ، مفعمًا بطبيعته بحُبِّ اللّٰه وبمعرفته، وبقي كذلك حتَّى لحظة الانفصال، لحظة السُّقوط، حين لم يعد الجنس البشريُّ، وقد

(1) مايكل بايوس (1513 ـ 1589)، عالم لاهوتٍ بلجيكيٌّ؛ (أ).

(2) الاسم الذي عُرف به عالم اللاَّهوت الهولنديُّ كورنيليوس جانسين (1585 ـ 1638) الذي عارض الرَّهبانيَّة اليسوعيَّة التي أسَّسها إغناطيوس دي لويولا، وقد تعرَّض أتباعه للاضطهاد من قبل لويس الرَّابع عشر ملك فرنسا؛ (أ).

صار مدفوعًا بشهوةٍ لا تُقاوَم، يفعل سوى الخطيئة، أو يعرف سوى الخطيئة؛ أو بالأحرى حين لم يعد أمامه خيارٌ سوى الخطيئة. فاستحقَّ العقاب على جريمةٍ كان لا بدَّ من أن يرتكبها، وإن على كُرهٍ...

فإذن؟ ألم أكن أنا نفسي ذلك الآدم؟ أنا الآثم الذي لا مفرَّ منه ولا مفرَّ له، المطرودُ من كلِّ الجِنان، والمحكوم عليه بأن يضلَّ سواءَ السَّبيل حتَّى وهو أسيرُ هذه الجدران...

الآن، أنا لا أعرف من منكم مؤمنٌ ومن منكم كافر. في خضمِّ شؤوننا الحياتيَّة لم نجد وقتًا للتَّطرُّق إلى شؤونٍ أسمى. ربَّما كان الأخ تشيريلُّو، الذي لديه بعض المعرفة بالدِّين والعاطفة تجاهه، الوحيدَ القادرَ على فهمي، ولكنَّني أشكُّ في أنَّه يمتلك من الآذان أكثر ممَّا تمتلكون. صحيحٌ أنَّني مؤمنٌ إيمانًا راسخًا، إيمانًا أعمى عمى جثَّةٍ راقدةٍ، ولكن فيما يتعلَّق بنجاتي فإنَّني أفوِّض أمري إلى اللّٰه، وليس إلى أعمالي، تلك التي كان شرُّها حتمًا مقضيًّا. أتخيَّل الشَّرَّ الذي اجترحتُه ينساح حولي كأثيرٍ عديم الوزن ويرشح من جلدي في قطراتٍ غير مرئيَّةٍ، ويخرج في أوساخ أظافري، وفي مخاط أنفي، وحتَّى في ماء عينيَّ الأزرق. الشَّرُّ في كلِّ مكانٍ، أقولُ - *كلُّ شيءٍ في عيون الأنجاس نَجِسٌ*[1] - ولكنَّ الشَّرَّ الذي في داخلي ينتصر على كلِّ الشُّرور! هذا ما أقنعني به بايوس وأنا صدَّقته كما لم أصدِّقه من قبل، فقد رأيتُ في كلماته تجسيدًا لأفكاري، تلك التي لن أعرف في النِّهاية إن كانت ظلًّا أم جوهرًا إلَّا بالخروج بين النَّاس واختبارهم...

---

(1) في الأصل باللَّاتينيَّة: *omnia immunda immundis*؛ (أ).

لذلك كان عليَّ أن أغادر. لم أتوقَّف لأفكِّر في الأمر لأكثر من دقيقة. نعلم جميعًا أنَّ التَّخطيط للهروب من السِّجن يتطلَّب تحضيرًا أكثر دقَّةً ممَّا يتطلَّبه التَّحضير لحفل زفاف. على النَّقيض من ذلك، رميتُ بنفسي إلى ما عقدتُ النَّفْسَ عليه كما يرمي المرءُ بنفسه من فوق جسر. هكذا، في منتصف إحدى اللَّيالي، مع بُقجةٍ صغيرةٍ على ظهري، والخنجر في جيبي، والتَّعويذات الأموميَّة الأخرى مخبَّأةٌ بين شَعري والقبَّعة، تسلَّقتُ البوَّابة وانطلقتُ عبْرَ الوادي مسلِّمًا نفسي للأقدار.

كان ذلك في أغسطس، وكانت اللَّيلة صافية. سرتُ حثيثًا، سالكًا الطَّريق الوحيد الذي كان أمامي، ذلك الذي كنتُ أرى الباعةَ يتوافدون عبْرَه كلَّ صباحٍ، والذي كان سيقودني مثل سهمٍ معصومٍ إلى القرية. ولمَّا كانت أرضه صلبةً وجافَّةً، فقد خلعتُ صندلي ومضيتُ حافيَ القدمين، أكادُ أعدو عَدْوًا. ليس خوفًا من أن أكون مُلاحَقًا، ولكن ليقيني النَّشوان بأنَّني حرٌّ وحيٌّ. أعلمُ الآن أنَّ كلَّ خطوةٍ في تلك المَهْرَبة كانت تقرِّبني من هذه الخاتمة المأتميَّة، ولكن ليس لديَّ ما أندم عليه. السَّنوات التي عشتها منذ تلك اللَّحظة، وإن كانت قليلةً، تساوي عشرات السِّنين التي كنت سأقضيها في الدَّير مرتِّلًا المزامير...

بلغتُ المنازلَ الأولى بعد ساعتين أو ثلاث ساعاتٍ، لا أعلم على وجه اليقين، ولم يكن بالدُّور ديَّارٌ، وفي الحال أخذتني التَّهويمات. جالسًا على أوَّل عتبةٍ وقع بصري عليها، أمام بابٍ بسيطٍ، ومادًّا ساقيَّ على برودة الحَجَر، رأيت من بين جفونٍ نصف مُطْبَقَةٍ رؤىً خَيَادِعَ. لم تكن هي المرَّة الأولى التي، بعد وهنٍ أو دُوَارٍ، وبمساعدة القمر،

تخادعني فيها عيناي بالأخيلةِ والرُّؤى. ولذلك لم أخف، ولا حتَّى شعرت بالدَّهشة، من العجائب التي ظهرت أمامي. بل كدتُ أستسلمُ لإغراء التَّصفيق لكلِّ صورةٍ من صور ذلك العرض: ملائكةٌ تحمل سيوفًا معقوفةً وتسير بخطىً متوازنةٍ على أسطح الدُّور؛ وموكبٌ من كبار السِّنِّ، كلُّ واحدٍ منهم يدنو منِّي بوجهه المضبَّب، وجهٍ لا يُنيره الفرح بل يقبِّحه؛ ومن البحر، مبتلَّةً بالماء، جُمَّةُ شَعرٍ مشعَّةٌ ومتشعِّبةٌ كتشعُّب البرق، أو كضوء مصباحٍ سقط على الحائط خَلَلَ ستارةٍ مرتجفة.

أيقظتني همهمةٌ من وراء الباب الذي كنتُ مُسنِدًا إليه رأسي. شخصٌ ما، صوتُ امرأةٍ، كان يغمغمُ أدعيةً متوسِّلًا بها إلى اللّٰه، ممَّا استشفَفْتُ من الكلمات التي التقطتُها بين حينٍ وحينٍ خَلَلَ الألواحِ الخشبِ، أن يدرأ عن سريرها، إن لم يكن الموت، فعلى الأقلِّ الصَّراصير والبعوض.

نهضتُ وطرقتُ البابَ بجُمْعِ يدي. الصَّمت الذي حلَّ وراءَ الباب كان ينضح بالشَّكِّ والخوف والفضول. مرَّت دقيقةٌ قبل أن أسمع «مَن هناك؟»، وخمسُ دقائق قبل أن يطلَّ من شبَّاك الباب وجهُ شيطانٍ أشعث ليفلِّيني بعينيه، ليتأكَّد ما إذا كنتُ حقًّا، كما ادَّعيتُ، شابًّا عَطِشًا لا يطلب سوى كوبٍ من الماء.

لا بدَّ وأنَّ تلك التَّفلية انتهت لمصلحتي، فقد فُتِحَ الباب، ويدٌ لَهِمَةٌ أمسكتني في لمح البرق، وسحبتني إلى الظَّلام. شبَّاك الباب، الذي على مستوى النَّظر، بقي مفتوحًا على القمر، ولم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا حتَّى بدأت أستغلُّ نورَه أحسن استغلال. تبيَّنتُ، في ذلك المسكن المكوَّن من غرفةٍ واحدةٍ، سَقْطَ متاعٍ، إبريقًا، وكرسيًّا، وحبلًا ممدودًا

من حائطٍ إلى آخر، تتدلّى منه بضع خِرَقٍ؛ وأخيرًا، على الأرض، حَشِيَّةٌ من شعر الخيل، رقدت عليها، عُريانةً، عجوزٌ صغيرةُ الوجه والأطراف، ولكن ضخمة الثَّديين.

تولَّد في داخلي شكٌّ في ألَّا تكون تكملةً لأخيلتي السَّابقة، ولكن أذهلتني الهيئة التي صوَّرها ذهني عليها، لأنَّني حتَّى تلك اللَّحظة لم أكن قد رأيت امرأةً إلَّا في شكل تمثالٍ، ولم يحدث قَطُّ أن رأيتُ امرأةً من لحمٍ ودم. ولكنَّها كانت تتفحَّصني وتحكم عليَّ من هيئتي. وعلى الفور، من طريقة ملبسي، ومن شحوب وجهي، ومن رائحة الشَّمع والبخور، تبيَّنَتْ فيَّ رجلَ دينٍ: «لقد هربتَ»، استنتجَتْ ضاحكةً، ثمَّ أوصدت شبَّاك الباب، فلم أعد أرى شيئًا. شعرتُ بيديها فحسب ترتعشان على جسدي، تتحسَّساني وتعرِّياني. دون وخز ضميرٍ سمعتُ رنين الذَّهب الزَّائف والحديد إذْ تناثرَ كنزيَ الصَّغيرُ من ردائي وتدحرجَ على الأرض. ولكنَّها قالت: «يا نَسَمَ روحي! يا نَسَمَ حياتي! مَن قادَكَ إليَّ في هذا اللَّيل؟»، وبلسانٍ طويلٍ باعدَتْ بين شفتيَّ، وضمَّتني إليها ممتصَّةً إيَّاي، خَلَلَ هالةٍ من النَّشوة المقزِّزة، إلى كهفها الملتهب.

بعدئذٍ، وهي مستلقيةٌ بجانبي، لطمَتْ جبهتها بكفِّها ما إن سمعَت اسمي: «لقد رأيتُكَ تولَد»، صاحَتْ مُباهيةً. «كنتُ غاسلةَ صحونٍ في خان السَّيِّد أنطونيو، وقد ثبَّتُّ والدتك على الدَّكَّة، ممسكةً بها من ضفائرها، وأخرجتُك من رحمها!»، وحدَّثتني عن العرض الذي توقَّف، وعن ولادتي، وعن الرَّحيل المفاجئ صبيحةَ اليوم التَّالي، وكيف تُرِكْتُ هناك في سلَّةٍ، مع آجيسيلاو، الاسم المقترح لمعموديَّتي.

لم تقل أكثر من ذلك، وغطَّت في نومٍ كأنَّه همودُ الحَجَر، متكرمشةً مثل خرقةٍ في قبضةِ تجاعيدها. وكانت ما تزال نائمةً حين نهضتُ مُزمِعًا الرَّحيل. لملمتُ حوائجي متحسِّسًا إيَّاها في الظَّلام، وكنتُ على وشك التَّسلُّل إلى الخارج في هدوءٍ حين شعرتُ برغبةٍ في إلقاء نظرةٍ أخيرةٍ عليها. أعترف أنَّني، وأنا راكعٌ، ونور القمر الدَّاخل من الباب الموارَب رِفْدٌ لي، عدتُ بعينين شَرِهَتَين لأتلصَّص على الحفرةِ المخيفةِ وسطَ أجمة العانة، تَلَصُّصَ مشرِّحٍ على جرحٍ عميق...

على هذا النَّحو دخلتُ لعبةَ الحياة. كان ذلك ـ فلتعلموا ـ العامَ الذي كانت الحربُ فيه تغلي في الهرسِكْ، وكان المتطوِّعون يُجَنَّدون في كلِّ مكان. حين وصلتُ إلى المدينة، وقد تشقَّق باطنُ قدميَّ من القيظ والنَّصَب، شاحبَ الوجه من قلَّة النَّوم وبُدائيَّةِ الطَّعام، بدا لي أروع من أن يُصَدَّق، بعد إضافة عامٍ أو نحو ذلك إلى عمري، أن أجد نفسي مسلَّحًا، ممتلئَ المعدة، مكسوَّ الجسد. وهنا عليَّ أن أتوقَّف قليلًا لأشرح لكم، بل لأشرح لنفسي أيضًا، ما كانت عليه حالتي النَّفسيَّة في ذلك الوقت العصيب.

وهذا ما كانت عليه: كنتُ قد شببتُ على الإيمان بوجود قدرةٍ وروحٍ أبديَّتين، ولكنَّني وجدتُ نفسي من البداية مُبعَدًا عن العالم الخارجيِّ، فكنتُ أشعر على الدَّوام بفراغٍ في داخلي، بخواءٍ أشبه بتجويفٍ لا نهاية له، وكان عليَّ أن أملأه بالسَّفاسف والمعاصي والضَّغائن. ضدَّ مَن، لم أكن أعرف؛ ولكن إذْ كنتُ شهوانيًّا بطبيعتي، وميَّالًا إلى الاعتقاد بأنَّ كلَّ متعةٍ جريمةٌ، ولكن أيضًا بأنَّه ما من جريمةٍ تستحقُّ اللَّوم، فقد استسلمتُ

عن طيب خاطرٍ لنوبات شهوانيَّتي، متلمِّسًا فيها نُهزةَ تجريحٍ أكثر من تلمُّسي عربونَ قصاصٍ. ولكنَّني سرعان ما أدركتُ أنَّ كليهما، التَّجريح والقصاص، كانا يُستنزَفان في داخلي بلا هدفٍ. فحاولتُ حينئذٍ نشدانَ أهدافٍ أقلَّ غموضًا، ولكنَّ الاسمَ الذي كنتُ أسترحمه وألعنه بتصبُّرٍ، كلَّ مساءٍ، ضاغطًا فمي على الوسادة، والذُّبابَ الذي كنتُ أتركه يموت حبيسَ كأسٍ مقلوبٍ، لم يفيا بالغرض، ولم يفعلا سوى أنَّهما جعلاني أشعر بأنَّني نصفُ آثم.

في هذه المرحلة وقع لحُسنِ حظِّي الاكتشافان اللَّذان ذكرتهما آنفًا: أنَّه بالنِّسبة إلى ولادتي كان هناك شخصٌ بلا وجهٍ وبلا اسمٍ مسؤولٌ عنها ويستحقُّ العقاب؛ وأنَّ كلَّ الخطايا كانت محتومةً، ولذلك فإنَّها مغفورةٌ مقدَّمًا. تناقضٌ غريبٌ: صكُّ الغفران الذي منحته لنفسي كنتُ حريصًا على ألَّا أمنح أبي مِثْلَه، كائنًا مَن كان ذلك الأبُ؛ بل إنَّني ولَّفتُ في ذهني بين الاشمئزاز من عنفه الماضي وبين أقصى درجات التَّسامح تجاه عنفي الآتي. عنفي الذي، زيادةً على ذلك، كنتُ أبحث له عن أعذارٍ أسمى من مجرَّد احترام وصيَّة الأمِّ. أمٍّ لم أرها أبدًا من قبل، ولا أعلم إن كانت ما تزال على قيد الحياة، ولم أشعر بأيِّ وثاقٍ يشدُّني إلى رحمها، اللَّهمَّ إلَّا وثاق ذلك النَّوط الصَّغير. بينما كنتُ أكثر تعطُّشًا إلى منح رحلتي الأرضيَّة ما كانت تفتقر إليه، أخدوعةَ العنصر المأساويِّ، كقتل الأب مثلًا...

بهذا المزاج كنتُ أحملق كلَّ صباحٍ في وجه المُنَمنَمَةِ وأردِّد بصوتٍ خافتٍ سطرَي التَّحريض، وأصابعي تداعبُ مقبض الخنجر

في جيبي. سأقتل أبي؛ ملأت الفكرةُ قلبي بالنَّشوة. والحقيقةُ أنَّني لم أصبح جنديًّا إلَّا لكي أدرِّب نفسي على القتل؛ ولأنَّه بدا لي أنَّني سأتمكَّن من تعقُّب الصَّيد بشكلٍ أفضل إن أنا تحرَّكتُ في الأوساط العسكريَّة التي ينتمي إليها.

كنتُ قد علمتُ من الأب أرَّابيتو أنَّني تُرِكتُ عند فتحة اللُّقطاء في شهر مارس؛ ومن همسات المرأة العجوز أنَّ الاغتصاب وقع في موسم قطاف العنب، في البلدة المجاورة، حين كانت كوكبةٌ من الخيَّالة تطوف هناك. آنذاك، وعلى الرَّغم من مرور سنواتٍ كثيرةٍ، ومن خلال طرح الأسئلة المناسبة، تارةً على هذا المحارب القديم وتارةً على ذاك، توصَّلتُ إلى افتراض أنَّ الرَّجل المطلوب يجب أن يكون نِهازَ الخمسين آنذاك، ومن بين أعلى ضبَّاط الفوج الثَّاني رتبةً: الشَّيء نفسه قيل عن علوِّ كعبه في سلاح فرسان سالونيك.

في هذه المرحلة، استولت عليَّ حمَّى الحرِّيَّة التي كانت تسري بين الجنود، صارفةً إيَّاي قليلًا عن هدفي. حتَّى تلك اللَّحظة، ومع أنَّني كنت متمرِّدًا على كلِّ شكلٍ من أشكال الاستبداد، لم يحدث قَطٌّ أن فكَّرتُ في المصير المشترك للبشر، بل في مصيري فحسب؛ ولا في طغاةٍ غير أولئك الذين كانوا في متناول ضغينتي: ككاهني ورقيبي. اكتشفتُ حينذاك أنَّ العالم كان مُبتلىً بطغاةٍ أشدَّ خبثًا؛ وأنَّ هؤلاء، على الرَّغم من بُعدهم، لم يكونوا آلهةً غير مرئيِّين، بل أناسًا من لحمٍ ودمٍ، أناسًا يمكن أن ينزفوا إن اخترق الحديد حلوقهم. أغرتني فكرةٌ أنَّ أشفي غليلي منهم بأفعالٍ تنبَّأ غروري بأنَّ شهرتها ستبلغ الآفاق. فانخرطتُ في

جمعيَّة كاربونِريَّا السِّرِّيَّة مصمِّمًا على أنَّني، فورَ استطاعتي، سأتصرَّف بمفردي وأقتل، بعد قتل والدي، صاحبَ الجلالةِ أيضًا.

فاحكموا أنتم، أيُّها الأصدقاء، إن كان عليَّ أن أخجل أم لا من دخولي المؤامرة بدافع العناد، عنادٍ يبدو لي، إن أردتُ مكاشفتكم بذلك، لا أكثر من جُشاء تعاسةٍ نزِقة. ولا شكَّ في أنَّني كرَّستُ نفسي بحماسةٍ لهذا الهاجس الجديد، محاولًا غايةَ جهدي أن أصبح خبيرًا في الذَّخيرة والعبوات النَّاسفة، على أمل أنَّ معرفتي بهذه الأمور ستعود عليَّ يومًا ما بالفائدة.

مرَّت سنواتٌ. وكانت الحربُ قد وضعت أوزارها للتَّوِّ عندما اندلعت الأخرى، حربُ الحصون الرُّباعيَّة[1]. توزَّع النَّاجون القلائل من فرقة الفرسان الخفيفة الثَّانية على الفصائل الأخرى، وعَدِمْتُ كلَّ سبيلٍ لمواصلة بحثي عن والدي. فعوَّضتُ عن ذلك بالالتفات إلى أعدائي الجُدُد متلذِّذًا بتحريك الشِّعارات الثَّلاثة، الجمهوريَّة والشَّعب والحرِّيَّة، ضدَّهم.

في تلك الفترة التقيتُكَ، أيُّها البارون، ولا شكَّ في أنَّك تذكر تلك العشيَّة، في سردابٍ بالقرب من الميناء، حين كانت مشاعل عيد القدِّيس تتوهَّج في الخارج، بينما نحن تحت الأرض، ملتفِّين بعباءاتٍ فضفاضةٍ، نخطِّط للمستقبل. في تلك العشيَّة، جاء الأب السَّرمديُّ بلحمه وشحمه

(1) حرب الاستقلال الإيطاليَّة الثَّانية وتُسمَّى بحرب الحصون الرُّباعيَّة من منطلق أنَّ القلاع المشكِّلة للنِّظام الدِّفاعيِّ للإمبراطوريَّة النِّمساويَّة، في إقليم لومبارديَّا الإيطاليِّ آنذاك، كانت تشكِّل رؤوس شكلٍ رباعيِّ الأضلاع؛ (أ).

إلينا، جاء ملثَّمًا، ولم ينبس ببنت شفةٍ إلَّا إليك، وفي أذنك. كان حريصًا للغاية على صون غموضِ صوته الذي كان، كما أدركتُ لاحقًا، أكثر سِمَاتِهِ تميُّزًا. تبعَتْ تلك العشيَّةَ عشيَّاتٌ أُخَرُ مماثلةٌ، ولكنَّني أكثر تذكُّرًا للأولى، لأنَّني في اليوم الذي تلاها، وكنتُ رئيس الحرس على بوَّابة الثُّكنة، رأيتُ فارسًا مجهولًا برتبة عقيدٍ يترجَّل أمامي ويُوكِل لي، بإيماءةٍ مقتضبةٍ، عِنانَ الدَّابَّة.

كان ملطَّخًا بالغبار من رأسه إلى أخمص قدميه، ولم يكن من السَّهل استقراءُ شَبَهِ ما تحت غطاء الأتربة؛ ومع ذلك، في اللَّحظة التي لوى فيها رأسه على رقبته قبل أن يمشي مبتعدًا، انتبهتُ، ليس من دون رعشةِ انتصارٍ ماحقٍ، إلى أنَّ شحمة أذنه اليمنى كانت مفقودةً.

تأكَّدَ لي، خلال الدَّوخة اللَّطيفة التي جعلت بصري يَغِيمُ، أنَّني كنتُ بالفعل في المكان المنشود، على مقربةٍ من وِجَارِ طريدتي. شعرتُ بينبوع الدَّم يزمجر في قلبي، مثلما أحيانًا يُغنِّي نهرٌ حين يحسُّ دنوَّ مياهه من المصبِّ. هناك كان، غيرَ مدركٍ رابطة الدَّم بيننا، الصُّلبُ الذي كنتُ بذرةً منه؛ هناك كان فمه الوحشيُّ، الشَّديدُ الشَّبه بفمي؛ وهناك، على لحمه، كانت طبعةُ أسنان لبوةٍ فتيَّةٍ اعتُديَ عليها... صعدَتِ الحزازةُ إلى حلقي، عارمةً وسابغةً حتَّى ظننتُ أنَّها الحُبُّ. ولكنَّني في طرفة عينٍ عدتُ إلى رشدي وبُرودي؛ عدتُ ذلك الجنديَّ المنكبَّ على تلميع بندقيَّته بالزَّيت ونسالةِ الكتَّان عشيَّةَ المعركة.

وما هي إلَّا أن علمتُ أنَّه جاء ليختار بعض المتطوِّعين ليسوقهم إلى ما وراء الجبال ويعيد بناءَ الجيش. قدَّمتُ نفسي بلا تأخيرٍ، وهناك، على

الجبهة، لم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا حتَّى أترقَّى إلى منصب حاجبه وحامل لواء فَوْجِه. فقُيِّض لي، بفضل ذلك، أن أستجلي شيئًا فشيئًا إثباتات الحقيقة القديمة التي كنتُ أبحث عنها، إن كنتُ في حاجةٍ إلى أيٍّ منها. إلى أن، في صباح أحد الأيَّام، باغتُّهُ جالسًا على طرف السَّرير يرتدي ملابسه ويحاول حَشْرَ قدمه المتورِّمة من النِّقرس في فردة حذائه، بينما سرواله الفروسيُّ ما يزال محلولًا ومنفرجًا عن الجذر الأسود الرَّخو المتدلِّي، جذر آلامي كلِّها.

تلذَّذتُ بسؤاله، وأنا أريه الخنجر المرصَّع بالعوهق، عمَّا إذا كانت عيناه قد وقعتا عليه من قبلُ... كنتُ ما أزال جالسًا بجوار الجثَّة عندما أخذوني، ملطَّخًا بالدِّماء كقصَّاب.

حَدَثَ هذا قبل عشر سنوات. ولا حاجة بي إلى إخباركم عن هروبي الذي طبَّقَت قصَّةُ نجاحه الآفاق؛ ولا كيف همتُ بعد ذلك على وجهي في المراسي، أعمل في السُّفن وفي مخازن الأسلحة؛ في كلِّ مكانٍ، مُذكِيًا نيران الفوضى القوميَّة: في مرسيليا بين اللَّاجئين، وفي كورفو إبَّان تعذيب ريتْشي[1] حتَّى الموت... في الوقت نفسه وجدتُني ألجأ إلى أتفه الحماقات؛ كمواجهة الموت حين لم يكن لذلك أيُّ داعٍ على الإطلاق: بسبب مسبَّةٍ لا تستحقُّ الذِّكر، أو للحصول على خدمات امرأةٍ كنتُ أحتقرها...

ماذا بعدُ؟ صرفني البارون عن الأعمال الفرديَّة. وبعد فَيْئَتي النِّهائيَّة

(1) فرانتْشِسكو ريتْشي، مواطنٌ إيطاليٌّ نُفِيَ إلى جزيرة كورفو اليونانيَّة، وفي صيف 1853 اتُّهم بقتل مواطنٍ يونانيٍّ خلال شجار وحُكِمَ عليه بالإعدام؛ (أ).

إلى أرض الوطن، وقفتُ إلى جانبكم، وإلى جانبكم سأبقى في هذه اللَّحظة السَّامية. لكن دون أن أعرف في نهاية المطاف إن كنتُ، في معمعة حياتي هذه، قائدًا أم مَقُودًا؛ وإن لم يكن ثمَّة، تحت قناع الشَّهيد، بربريٌّ فاسقٌ ومتطرِّفٌ يعيش بداخلي...

X

الجلّاد الغيور

في هذه اللَّحظة، كما لو أنَّ تكّات ساعةٍ كانت تؤقِّتُ بدقَّةٍ زمنَ حديثه، صمتَ آجيسيلاو فجأةً، وفي اللَّحظة نفسها تناهت إلى أسماعهم الهَمْشَةُ المعتادةُ من الفِناء، مُنذرةً بتبديلٍ آخر للحرس.

«إنَّها الثَّالثة الآن»، قال الجنديُّ بهدوءٍ، بينما أطلَّ خفيرٌ عبوسٌ متلصِّصًا من فتحة باب الزِّنزانة، وبدا مندهشًا من الغُبشةِ في الدَّاخل.

«نفضِّل البقاء هكذا، دون أن يرى بعضُنا بعضًا»، قال البارون مُبتدرًا إيَّاه بالكلام. «إنَّنا نصلِّي»، كذبَ مُقنعًا إيَّاه بالتَّراجع. ثمَّ التفت إلى آجيسيلاو قائلًا: «إذن كان والدَك، أو هكذا افترضتَ، الضَّابطُ الذي قتلته! لم يكن عملك الوحشيُّ نابعًا من غضبٍ وطنيٍّ إذن، كما اعتقد العديد منَّا حتَّى الآن، ولكنَّه أفاد في تبديد هاجسٍ شخصيٍّ لا أكثر...».

«أيُّ عملٍ»، عقَّبَ الجنديُّ على قوله، «غالبًا ما يكون له دافعان أو ثلاثة، دون أن يُقصي أيُّ دافعٍ منها الدَّوافع الأخرى».

«صحيحٌ»، أجاب البارون، «ولكنَّ قصَّتك لم تقدِّم إجابةً على السُّؤال، أو لعلَّها أفرطت في تقديم الأجوبة. هل كنت سعيدًا لحظةَ

الهروب من الدَّير؟ أم لحظةَ خصيتَ وذبحتَ نفسكَ في شخص أبيك؟ أم حين اكتشفتَ تلك الشَّهوةَ المشؤومةَ، شهوةَ الحرِّيَّة؟ أم لا في هذه الحالة ولا في تلك؟ زِدْ على ذلك هذا الولوعَ الشَّديدَ بكره نفسِك والذي أجده، فلتعذرني، بغيضًا ومقيتًا تمامًا... وهذه الحربَ العنيدةَ مع اللّٰه بين حُبٍّ وكراهية... لا أوافق على حياتك، أيُّها الجنديُّ. والأسوأ من ذلك، لا أفهمها».

«أمَّا أنا»، قال الطَّالب، «فأعتقد أنَّك، يا آجيسيلاو، أفضل ممَّا قلته عن نفسك. أعتقد أنَّك شببتَ، داخل أسوار الدَّير، متوحِّشًا ولكن نبيلًا. أراهنُ على أنَّ بهجتك، لحظةَ صادفتَ الضَّحيَّة التي كنت تتعقَّبها، كانت أقلَّ من اغتمامك من ذلك الالتزام الذي كدتَ تنسى أمرَه، وربَّما كنت تتمنَّى الرُّجوع عنه. لأنَّك إذا...».

هنا فقدَ خيطَ أفكاره، فاحمرَّ خجلًا، ولم يقل كلمةً أخرى، والتفتَ إلى الشَّاعر كأنَّه يلتمس العونَ منه. فعاد الشَّاعر، بدفقةِ حنوٍّ، يداعب شَعْرَ الفتى مرَّةً أخرى: «ماذا حلَّ بشَعرك يا فيدون؟»، قال، ولم يتَّضح من نبرته ما إذا كان متأثِّرًا أم قاصدًا المزاح فحسب.

ثمَّ أضاف بنبرةٍ أكثر بساطةً: «تفسيري مختلفٌ. أنتَ، يا آجيسيلاو، لم تكن وليدَ تَحَابٍّ بل وليدَ عنف. البذرةُ التي ألقت فيكَ الحياة، نقلَتْ إليكَ، بفعلتها هذه، عدوى طبيعتها البهيميَّة. بعبارةٍ أخرى، صنعَ أبوك منك القردَ الشَّبيه به، ولهذا السَّبب هَلَكَ. لستَ أنت مَن قتل أباك، بل هو أبوك مَن قتل نفسه بيديك!».

انتفض الأخ تشيريلُّو: «لا!»، وبدا كما لو أنَّ دبيب الحياة دبَّ في

الرَّجل العجوز من جديد. بعينين حادَّتين جيَّاشتين، وبصوتٍ ريائيٍّ، وبعمامةٍ من مِشَقِ الكتَّان حول رأسه، عمامةٍ جعلته أشبه بخليفةٍ مسرحيٍّ، كان من الواضح أَنَّه تمكَّن من فرض نفسه على الجميع، مختلسًا حصَّةً من سلطة البارون، لدرجة أَنَّه بدا مختلفًا تمامًا عن صورته المعهودة، صورةِ قاطع الطَّريق. ما لا مِراءَ فيه هو أنَّه، بالرَّغم من أسلوبه البغيض، لم يتوقَّف لحظةً واحدةً عن استهوائهم، إن لم نقل عن إخضاعهم، بطريقةٍ أو بأخرى.

«لا!»، صاح ثانيةً، «أنا شخصيًّا أبرِّئ هذا الرَّجل. سيرته تبدو لي ناصعةً. هو الذي جاء بلا إرادته إلى هذا العالم، محبولًا به رغمَ أنفه من حالبٍ عنيفٍ، كابدَ مرَّتين خزيَ كونه ابنَ زنىً: الأولى، لأنَّ اللّٰه لم يطلب منه، كما هو شأنه مع أيِّ بشرٍ آخر، الإذنَ في ذلك؛ والثَّانية، لأنَّه حتَّى والده لم يطلب هذا الإذن من والدته. فكيف تلومونه إن هو لم يستطع الأخذ بثأره من اللّٰه فأخذ به من أبيه البيولوجيِّ؟ كيف تلومونه إن أراد أن يعالج ظلمًا بآخر؟ كيف تلومونه، أخيرًا، إن هو نَشَدَ في الأب السَّرمديِّ الخفيِّ، وفيكم أنتم مبشِّريه، بديلًا مُخيَّلًا لقرابة دمٍ مفقودة؟ له ولكم، وليس لقضيَّة الشُّعوب التي لا يأبه لها إلَّا قليلًا، وإن نمَّت المظاهر عن غير ذلك، سيقدِّم رأسه غدًا في محرقة البنوَّة».

«هل الأمرُ كما تقول؟ هل قلبي مضطربٌ حقًّا؟»، سأل الجنديُّ متشكِّكًا. «وحتَّى لو كان ما تدَّعيه صحيحًا، كلُّ ما أعرفه هو أنَّني أشعر بأنَّني أمام جدار. لا أحبُّ أن أحيا ولا أحبُّ أن أموت. مشطورٌ نصفين، وفوق ذلك...»، أنهى كلامه بتنهيدةٍ وهو يقترب مرَّةً أخرى

من مَطَلِّ النَّافذة التي منها أصبح من الممكن، حينذاك، رؤية منصَّة الإعدام منصوبةً في ضوء القمر، تارةً نعم وتارةً لا، وفقًا لتمزيقه حُجُبَ الغيم أو لاحتجابه وراءها. وكانت المنصَّة لعبةً من خشبٍ وحديدٍ، سهلةً ومتينةً، معدَّةً ليلعب بها أطفالٌ عماليق. كان المكان مُقفِرًا من أيِّ مخلوقٍ في تلك اللَّحظة. ربَّما كان الجلَّاد والشَّمامسة قد أخلدوا إلى قسطٍ من الرَّاحة.

«ما أزال مصرًّا على أنَّني أفضِّل الشَّنق»، قال آجيسيلاو وانحرف مسارُ الحديث فجأةً. بدا أنَّ الجميع، وعلى رأسهم هو، فقدوا الاهتمام بقصَّة اللَّقيط فراحوا يتجادلون حول تفضيل هذه الطَّريقة أو تلك من طُرُق الإعدام. تمامًا مثلما يلجأ رجلٌ، عند مناقشة مواطن الجمال في جسد امرأةٍ ما، إلى رفع صوته على كلِّ من يجرؤ على مخالفة رأيه.

وكان الرَّاهب في النِّهاية هو مَن احتلَّ المسرح مرَّةً أخرى: «أحسب أنَّ هذا الانحراف في إعادة المقصلة إلى الاستخدام مردُّه إلى الحاكم. إنَّه مناصرٌ لدودٌ للملكيَّة ولا شكَّ في أنَّه يتلذَّذ بقدرته على الانتقام بالكيل نفسه من الأصنام القديمة، أصنام طفولته، لويس، ماري أنطوانيت... إنَّه من النَّوع الذي يستمتع بمثل هذه الثَّارات والرُّدود الانتقاميَّة الرَّمزيَّة. أو ربَّما سئم من لقب سبارافوتشيلِهْ...».

كان يتحدَّث بصوتٍ جَهْوَريٍّ غريبٍ، ما لم يكن السَّقف الواطئ هو الذي زادَ صوتَه إصداءً. جَهْوَريٌّ ولكن مع صفير تصنُّعٍ بين الحين والآخر. مثلما تتحدَّث مغنِّيةٌ كونترالطو أجهدت صوتها بالغناء أو تعاني احتباسًا صوتيًّا. وقد أضفى هذا على المشهد مسحةً

أوبِّراليَّةً: هو فيه مغنٍّ منفردٌ، مغنٍّ عبوسٌ مستغرقٌ في أغنيته: *تركيٌّ في إيطاليا*[1]، أو *متعهِّدٌ من إزمير*[2]؛ والآخرون منكثبون بعضُهم على بعضٍ في جوقةٍ أمامه.

«عند الفجر»، استأنف الرَّاهبُ كلامه وبدا الأمر كما لو أنَّه يعدِّل أداءه الصَّوتيَّ ليوافق الكاباليتَّا[3]، «لن يكون أحدٌ منَّا على قيد الحياة، ولن يكون هناك من المثالب والمحامد ما يساوي نقيرًا. ولا يحزنني ذلك. فبقدر ما أنا فضوليٌّ تجاه الحياة، أشعر بالفضول تجاه الموت. ولذلك أودُّ أن أقول إنَّني على عكسك»، والتفت إلى الجنديِّ، «أحبُّ أن أحيا، ولكنَّني لا أرفض الموت. فبالنِّسبة إليَّ، كلُّ ما أشعر به بحواسِّي، سواءٌ ألذَّةً كان أم ألمًا، يرفعني. حتَّى التَّعذيب، ليلة البارحة، بآلامه المستمرَّة في كلِّ جارحةٍ من جسدي، بدءًا من جبهتي التي أطبقوا عليها تاجَ الشَّوك؛ نعم، حتَّى هذا التَّعذيب كان مشحونًا بعاطفةٍ لا نظير لها. هذه الشَّبكة التي في جسدي، التي من خيوطٍ رقيقةٍ ومتعرِّجةٍ، أعصابي أقصدُ؛ هذه الكمنجة من الأعصاب، التي في كلِّ آنٍ تعزف معزوفةً مختلفةً، سأتركها تتألَّم عن طيب خاطرٍ، ما دامت تنبض...».

«كلٌّ يعزِّي نفسه على طريقته»، قال البارون بجفاء. «هناك نحن الذين نحسب أنفسنا أبطالًا، وهناك أنت الذي تُفاخر بالرِّضا عن كلِّ تجربةٍ غير مألوفة. مع أنَّ الموت تجربةٌ يستطيع حتَّى العاجزُ منَّا القيام بها...».

---

(1) عنوان عملٍ أوبِّراليٍّ هزليٍّ لِجواكينو روسِّيني (1792 ـ 1868)؛ (أ).
(2) عنوان عملٍ أوبِّراليٍّ لكارلو غولدوني (1707 ـ 1793)؛ (أ).
(3) شكلٌ موسيقيٌّ من جزأين شاع في أوبِّرا القرن التَّاسع عشر في إيطاليا، وخاصَّةً في أغاني الآريا aria التي تمثِّل الذُّروة العاطفيَّة في الدِّراما؛ (أ).

سكتَ إذْ سمع صوت المفتاح يُدار بجهدٍ جهيدٍ في القفل؛ ثمَّ شوهد ضوءٌ يتدفَّق من فتحة الباب؛ حزمةُ ضوءٍ متحرِّكةٌ جاست الزِّنزانةَ بأكملها. فُتِحَ الباب ودخل الجنود يحملون المشاعل، فعاد وجه العذراء يطلُّ كَمِدًا من الجدار.

كان الدَّاخلُ واحدًا من الحرَّاس، وظنَّ الجميع أنَّه الحاكم وقد جاء ليحصل على الجواب المنتظَر بالوشاية أو بالموت. ولكنَّه لم يكن سوى الجلَّاد.

«لا تخافوا»، قال المعلِّم[1] سمِيريليو وهو يتقدَّم داخل الغرفة التي أصبحت الآن مكتظَّةً بالرِّجال وبضوءٍ باثق. «لم تحن السَّاعةُ بعد. أنا هنا لأخذ المقاسات. فكما تعلمون، أحيانًا يكون الحُلقوم جلديًّا، وأحيانًا يخرج عن الحدِّ الذي تسمح به فتحة الإطار الهلاليِّ. لا بدَّ من أخذ المقاسات إذن. كذلك يصنع الخيَّاطون والحذَّاؤون مع زبائنهم في محلَّاتهم...».

«هل كان عليك أن تبكِّر كثيرًا في المجيء؟»، احتجَّ آجيسيلاو بنبرةٍ لطيفة.

«لكنتُ فضَّلتُ الإيواء إلى فراشي، ولكنَّها الأوامر، وكما يُقال، من يأمر لا يعرق».

كان، كعادته، متزلِّفًا وفكِهًا في حديثه، هو المعروف كنارٍ على علمٍ

---

(1) المعلِّم هنا بمعنى مَن له الحقُّ في ممارسة إحدى المهن استقلالاً، وليس بمعنى مَن يتَّخذ مهنة التَّعليم؛ (أ).

في القلعة: الصِّقِلِّيُّ المولد، الذي انضمَّ صبيًّا إلى حاشية مورات[1]، ثمَّ إلى حاشية الملك؛ الرَّجلُ الذي يتحدَّث ثلاث لغاتٍ، كلَّها على نحوٍ سيِّءٍ، مبهِّرًا إيَّاها بالأفاكيه الجنائزيَّة وبالتَّهتُّكات الغبيَّة، لغايةٍ وحيدةٍ مؤدَّاها التَّرويحُ عن نفوس مرضاه. وقد دخل الآن في أزهى حلَّةٍ، مرتديًا، لتقميط شحومه الخفيفة، صدرةً من السَّاتان الأسود، ومنتعلًا حذاءً أسود، ومسربلاً كفَّيه بقفَّازاتٍ قطنيَّةٍ سوداء.

فهبَّ الخمسة، إذْ رأوه، وقوفًا على أقدامهم؛ ولكنَّ الأخ تشيريلُّو تجشَّم عناءً أكبر بسبب جروحه وتقدُّمه في السِّنِّ. وكان هو أوَّل مَن دنا منه سمِيريليو، فأخرج مترًا قماشيًّا من جيبه وبحركاتٍ رشيقةٍ طوَّقَ منه تفَّاحةَ آدم.

«ربَّما كنتُ مغاليًا في وساوسي»، قال. «ولكنَّني أحبُّ إتقان عملي، فأنا لست قاطع رِقابٍ عاديًّا، بل *منفِّذَ أعمال العدل العظيمة*[2]، كما هو مدوَّنٌ في وثائقي الشَّخصيَّة. لقد درستُ في فرنسا مع مِسيو سيمون...».

ظلَّ المحكومون منتصبين على أقدامهم، متلهِّفين إلى التَّخلُّص منه، منزعجين من ثرثرته ومن حضوره الدَّخيل. أمَّا هو، فبكفاءةٍ باردةٍ استأنى مستمتعًا بمقارنة الرَّقبة بالرَّقبة، ثمَّ استدار لينظر بأبوَّةٍ من مَطَلِّ النَّافذة إلى الآلة في الأسفل.

---

(1) يواكيم مورات (1767 ـ 1815)، مارشال فرنسا والأدميرال الأكبر، كان الدُّوق الأكبر لبيرغ بين 1806 ـ 1808 وملكَ نابولي بين 1808 ـ 1815. حصل على بعض ألقابه بفضل مصاهرته نابليون بونابرت إذ تزوَّج بشقيقة نابليون الصُّغرى كارولين بونابرت. عُرِف بلقب «الملك الأنيق» لاهتمامه الكبير بأناقته؛ (أ).

(2) في الأصل بالفرنسيَّة: *l'exécuteur des grands oeuvres de justice*؛ (أ).

«*أوه، يا دُميتي الجميلة!*»[1] صاحَ، وما لبث أن أضاف: «إنَّها تشكو الإهمال، حبيبتي المسكينة. *L'avugghia - si nun cusi s'arrugghia*،[2] كما اعتادت جدَّتي أن تقول».

«الإبرةُ إذا لم تَخِطْ تصدأ»، ترجمَها ساليمبيني لنفسه، ثمَّ رأسًا وبشيءٍ من الغِلِّ قال: «هل لديك ابنةٌ، يا سمِيريليو؟»؛ وكانت خيبته كبيرةً حين أتاه الجواب: «هيَ ذي هناك في الأسفل، اسمها لويجينا»، وأشار إلى الآلة المنتصبة.

فقال الفتى: «أيؤلم ذلك، يا سمِيريليو؟ ما أفتأ أسأل هذا السُّؤال ولكن لا أحد يعرف الجواب ليجيبني».

سوَّى الرَّجل صُدرته بإحدى يديه، ثمَّ وضع الأخرى على قلبه بحركةٍ هزليَّةٍ وأجاب: «سيكون مثل شُرب كأسٍ من الماء. لن تشعر بألمٍ يفوق الألم الذي قد تشعر به إنْ قصلوا تمثالًا يجسِّدك. وإنْ كنتُ أكذب»، أضاف، «فلترجعْ وتسحب عنِّي الملاءة ليلةَ الغد».

«اخرجْ من هنا»، قال البارون وهو يدفعه من كتفيه برفقٍ، وغادر في النِّهاية، ليس من دون أن يترك في زاويةٍ من الزِّنزانة، جريًا على العادة، زجاجةً من اليانسون لم يلمسها منهم أحد.

غاصت الزِّنزانة مرَّةً أخرى في الظَّلام، مع أنَّ مربَّع النَّافذة كان قد حصحصَ قليلًا.

---

(1) في الأصل بالفرنسيَّة: *Oh, le joli bilboquet!*؛ *(أ)*.
(2) بالصِّقلِّيَّة؛ *(أ)*.

«إنَّها الرَّابعة!»، صاحَ آجيسيلاو، بينما تعالت هَمْشَةُ الجُند المعتادة من الأسفل.

«لم يعد في الوقت متَّسعٌ، يا رفاق»، قال البارون مرجِّعًا صدى أفكار آجيسيلاو. «وفي هذا الوقت القليل المتبقِّي، لن أنسى التزامنا الذي أودُّ أن أحثَّكم على اختتامه. فأنتم ترون كيف أنَّ اللَّيل آخذٌ في التَّبدُّد، ومعه آخرُ قطرات حياتنا».

«أيُّها الشَّاعر!»، أوعزَ الأخُ تشيريلُّو بغطرسة رئيسٍ، «الآنَ تنتقلُ المِخصَرةُ من يدَي البارون إلى يديك. إنَّه دورك الآن لتحدِّثنا عن نفسك».

«حسنًا»، قال ساليمبيني. «لديَّ ألوفٌ مؤلَّفةٌ من الذِّكريات، وما عليَّ إلَّا أن أختار. سأخبركم بأحبِّها إلى قلبي، تلك التي أسمِّيها: الدِّيك الأعمى».

وبدأ يحكي حكايته.

XI

روايةُ الشَّاعر
أو
الدِّيك الأعمى

كنت أفكِّر، وأنا أستمع بأذنٍ واحدةٍ إلى مغامرات آجيسيلاو، فيما سأحكيه لكم حين يحين دوري، وأيَّ شُطفةٍ يجب أن أختار من مرآة حياتي المكسورة، أأختار أكثرها رقَّةً أم أكثرها وخزًا. قبل أن أُبتلَى، ببساطةٍ، بفراق هذه الدَّار بأكذوبةٍ هائلة. كما ترون، لقد نشأتُ لا أفرِّق ـ مثل سمكةٍ في ماء حوضين متَّصلين ـ بين الحقيقة والكذب، بين الكذب والحقيقة. لدرجةٍ صرتُ معها لا أفرِّق بين اللَّوح الزُّجاجيِّ والهواء، بين الوهم والحياة. فمن أنا في الجوهر، وأيُّ طبيعةٍ ملتويةٍ هي طبيعتي، أمرٌ ليس الرِّياء ما يجعلني أتكتَّم عليه، بل لأنَّني في الواقع آخر شخصٍ يمكنه معرفة ذلك. أعترف، فوق ذلك، بأنَّني أحبُّ المهرِّجين، أولئك الذين يطوفون بأقنعةٍ من مساحيق التَّجميل مكانَ وجوههم، وهم مقتنعون تمامًا بالرِّقاع التي يرتدونها لتزييف وتمويه أنفسهم.

وربَّما أدين للمثلبة المذكورة آنفًا، وإلى المثلبة الأخرى، مثلبةِ عدم لجوئي أبدًا إلى سُبُلٍ بسيطةٍ لأجل غاياتٍ بسيطةٍ، بل إلى تعقيد السُّبل

والغايات معًا... أدين لهذا بتمتُّعي بلقب شاعر. شاعر! هراء! لقد قرأت الكثير من الشُّعراء في شبابي، وأعرف الكثير من أغاني الأوبِّرا، وإن لزم الأمر، أعرف كيف أنظِمُ بيتين هزليَّين، ولكن أن أسمِّي نفسي شاعرًا... مع أنَّني كَلِفٌ حقًّا، أعترفُ، بتشابُكِ الكلمات، بعضها مع بعضٍ، في مُخاصَراتٍ متموِّجةٍ؛ كَلِفٌ بترنيمها التَّجاوبيِّ؛ بترجيعها المنغوم لخوالج القلب. لذلك، في الأسابيع الأخيرة، سمعتموني أُلقي مرارًا وتكرارًا مطلعَ سجين *قلعة شيلون*[1]:

في البصيص الشَّاحب لشعاعٍ

مسجونٍ...

وأصفِرُ دورَ جوقةِ *فيدليو*[2]، عندما يصعد المحكومون من الهاوية إلى النُّور. لا لشيءٍ إلَّا انتزاعًا للأمل في أنَّنا نحن أيضًا سنحظى بخلاصٍ أعجوبيٍّ مماثل. تسرياتٌ حزينةٌ، أعرف. ذلك أنَّني، مثلكم، أسمع همهمة السَّاعات وهي تقترب من النِّهاية، دون أن يكون هناك ما يُجدي لإيقاف اندفاعها العنيد...

ومع ذلك، ها أنا أقترب من صُلب الموضوع. وسأترك لكم أن تحكموا ما إذا كنتُ أعدُّ لكم طبقًا من الأكاذيب، وما إذا كان استمرائي حالة الضَّجر أجدر بالتَّصديق من استمراء القتل والقسوة الذي طرحه علينا آجيسيلاو قبل قليل...

---

(1) قصيدةٌ سرديَّةٌ للُّورد بايرون تسردُ قصَّة سَجْن الرَّاهب فرانسوا بونيفار في قلعة شيلون المطلَّة على بحيرة ليمان؛ (أ).

(2) هي الأوبِّرا الوحيدة التي وضعها بيتهوفن؛ (أ).

عليكم، قبل كلِّ شيءٍ، أن تعودوا معي في الزَّمن لتتخيَّلوا كيف كنتُ يومَ كنتُ في العشرين، عيناي طافحتان بنورٍ حالمٍ، مخضرَّتان بوعد سعادةٍ لا لُبس فيها. وليس الأمرُ أنَّني أعوِّل كثيرًا على نظرات النِّساء، ولكن صدقًا لا بدَّ أنَّني كنت حسن الطَّلعة، واثقَ الحُسن مزهوَّه. حُسنٌ زادته الهمساتُ الأسطوريَّةُ شأنًا: عن شجاعتي، وحماسي للحرِّيَّة، وظهوري واختفائي، من مخدعٍ هنا إلى متراسٍ هناك؛ دائمًا مع زهرةٍ في يدٍ وبندقيَّةٍ في الأخرى...

بصفتي هذه، أو متخيِّلًا صفتي هذه، دخلتُ الدُّوقيَّةَ الكبرى لأؤلِّبَ النُّبلاء على الطَّاغية. أيْ نعم، النُّبلاء، لا عامَّة الشَّعب. ذلك أنَّ طموح وحسد القلَّة يمكن أن يكونا لنيران الثَّورة أذكى وقيدًا من بؤس الكثرة. ولذلك كان عليَّ أن ألتقي روميو وتورِّمُوتْزا، مرَّةً في أماكن سرِّيَّةٍ في المدينة، ومرَّةً في أريافٍ بعيدةٍ كنتُ أصل إليها راكبًا تحت شمسٍ حارقةٍ، أدلَّائي إلى هناك حرَّاسُ حقولٍ بوجوهٍ مكفهرَّةٍ وابتساماتٍ مفاجئة.

وهكذا، بعد مسيرة يومٍ كاملٍ، وجدتُ نفسي عند سفح البركان، وكنتُ قد استُقدِمتُ إلى هناك برسائل عاجلةٍ من دوق مانياتْشِهْ[1] الذي كان، وقتذاك، على وشك الموت بسرطانٍ في الحنجرة. أذكرُ أنَّني مشيتُ ردحًا من الوقت، في وهج رمضاء غباريَّةٍ، متوقِّفًا ثِنْيًا بعد ثِنْيٍ في فيء خرُّوبةٍ هنا وخرُّوبةٍ هناك كأنَّني أتوقَّف في مراحل دربٍ آخر للصَّليب، دربٍ دنيويٍّ. الحمم البركانيَّة، على جانبَي مسارِ الخِراف،

(1) بلدةٌ تابعةٌ لمقاطعة كاتانيا في جزيرة صِقِلِّيَة، وعلى هذا فالبركان المذكور، والذي تقع البلدة عند سفحه، هو بركان إتنا؛ (أ).

بدت وكأنَّها قُذِفَتْ للتَّوِّ من فكَّينِ حديدٍ لتنِّينٍ أحفوريٍّ يحضن تحت أجفانه، غيرَ منطفئٍ، بريقَ النُّور الأصليِّ.

أخيرًا، أخذنا استراحةً أطول عند سفح تلَّةٍ، داخل كوخٍ حجريٍّ غير مطيَّن الجدران، حيث قشَّر عاملُ المزرعة لنا خمس أو ستَّ صُبَّيراتٍ وتركنا نشربُ حتَّى ارتواء العروق من إبريقٍ فخَّاريٍّ ماؤه بَرُود. وبينما كنتُ أمسح فمي، فاجأني تهامسٌ خفيٌّ، تبادلٌ لكلماتٍ ضنينةٍ، مصحوبٌ بإيماءاتٍ متآمرةٍ غير ملحوظةٍ إلَّا قليلًا. تظاهرتُ بأنَّني لم ألاحظ شيئًا، ولكنَّني عاهدت نفسي على توخِّي الحذر. لم يُجدِ ذلك نفعًا. كنَّا قد استأنفنا المسير للتَّوِّ عندما بلا مقدِّماتٍ، وفي اللَّحظةِ نفسها التي رفعتُ فيها بصري مستجليًا الملامح الأولى للمقرِّ الدُّوقيِّ على قنَّةِ التَّلَّة، أعملَ رفيقا رحلتي شوكةَ الرِّكابِ في كشحَي دابَّتيهما واستدارا، ودون أن يفوها بكلمةٍ واحدةٍ غابا في وهجٍ من صيهدِ الشَّمس. ولم يتطلَّب الأمرُ أكثر من ذلك لكي يُجَنَّ جنونُ البهيمة الخائنة التي كانت تحملني، فجمحت بدورها متحرِّقةً إلى إلقائي عن السَّرج والهرب في أعقاب رفيقتيها. ولكنتُ كبحتُ لجامها، على كلِّ حالٍ، لولا ذلك الحجر المستقرِّ جهارًا نهارًا في منتصف الطَّريق، موحيًا بتآمرٍ موغلٍ في القِدَم بين حرف تلك الصَّخرة وعظم جبهتي.

استرجعتُ وعيي في مخدعٍ رحراحٍ يعبق برائحة كتَّانٍ نصيع. الوجهان المطلَّان عليَّ، من جانبَي سريري، كانا لامرأةٍ وصبيٍّ قاربَ الحُلُم.

من بين كلِّ العيون التي رأيتها في حياتي، لم أرَ عينين أحلك سوادًا من عينيها. جوهرتان خَضِلتان وفحيمتان، يمتزجُ فيهما همودُ

أشدِّ الفلزَّاتِ جمودًا بوناءِ أشدِّ الموائعِ سيولةً. عينان لو نظرتم إليهما لرأيتموهما تمرَّان في لحظةٍ واحدةٍ من رقَّةِ السُّبات الكاذب إلى ضراوةِ النَّهب الخاطف، منقضَّتين من تحت حجاب الرُّموش الطَّويلة باندفاعةِ حيوانٍ زاحفٍ إذْ ينقضُّ على فريسته.

لقد شعرتُ بهما مصوَّبتَين نحوي، تينك العينين، حتَّى قبل أن أفتح عينيَّ. تلك هي القوَّة التي اخترقتا بها جدار اللَّاوعي. وعندما رأيتُهما أخيرًا رأيَ العين، اعتراني في آنٍ واحدٍ خوفٌ وذهولٌ ونشوةٌ: الشُّعورُ نفسه الذي يعتري الحمامة، عندما يشلُّها سحرُ الأفعى.

دعجاوَين كانتا عيناها؛ متوهِّجًا وفائقَ الحُسن كان وجهُها، وإن نقَّرَهُ الجدريُّ قليلًا؛ جوعَى كانت ملامحُها، ولكن ملطَّفةً بوازعٍ خفيٍّ؛ توَّاقتين إلى لمس أيِّ شيءٍ في مرماهما كانتا يداها، لا تقنعان أبدًا بالبقاء في مأوى الأكمام... وأخيرًا، سوداءَ تمامًا كانت ملابسُها: ثوبُ حِدادٍ فاخرٌ، منه استشففتُ أخبارًا لا لُبس فيها: الدُّوق أسلمَ الرُّوح، ومهمَّتي اختنقت في مهدها. تلك كانت أرملته؛ وذلك، ذو الوجه الفائق الشُّحوب، كان وريثه الذي شارفَ الاحتلام. كان من الغرارةِ بحيثُ لم يكن قادرًا، حتَّى لو أراد، على القيام مقامَ أبيه في مؤامرتنا.

أمَّا عن الفلَّاحَين وهروبهما، فقد عرفتُ آنذاك ما يكفي. لمَّا كانا قد سمعا من ذلك التَّهامس الخفيِّ بموت الدُّوق، سيِّدِهما، شعرا بأنَّهما في حِلٍّ من واجب مرافقتي أبعدَ من ذلك، كما لو أنَّني صرتُ، بين عشيَّةٍ وضحاها، عُجرةً ينبغي بَتْرُها. لم أعد ضيفًا يستحقُّ المداراة، بل إهانةً لأصول اللَّهجة والسُّلوك التي انتهكتُها بحضوري.

ذلك أدركته وأنا مشوَّش الفِكر، خاصَّةً أنَّني كنت أشعر بنفسي غريبًا في سريرٍ ليس سريري. طوال ذلك الوقت كنتُ أعاني الأوجاع: كان رأسي يغلي تحت الضِّمادات، مع أنَّ الضَّربة الوحيدة التي غيَّبتني عن وعيي لم تُلحِق بي ضررًا كبيرًا. أسوأ بكثيرٍ كان عطشي: تجعُّدُ جميع الألياف التي أجَّجتها الحمَّى، فِعْلَ النَّار في حقل قشٍّ. ومع هذا كلِّه، منعتُ شفتيَّ بالقوَّة من طلب المساعدة، فقد اقتضت الحكمة أن أقرِّر، في موقفي الرَّاهن آنذاك، أيَّ الحزبين سأختار قبل أن أستعيد وعيي على الملأ.

فانغلقتُ على نفسي ثانيةً في الظَّلام، ليس دون أن أنهبَ بنظرةٍ خاطفةٍ، إضافةً إلى الوجهين، كلَّ التَّفاصيل المرئيَّة التي جاد بها عليَّ الجهازُ البصريُّ: سقفٌ مرتفعٌ، من قضبانٍ خشبيَّةٍ وجصٍّ، معبورٌ بعوارض داكنةٍ تدلَّتْ منها، معلَّقةً من أعناقها، دُمَى فرسانٍ من الخشب، وأكياسٌ ملأى بالألعاب، كما يليق بغرفة صبيٍّ؛ ونافذةٌ بابيَّةٌ، أمام السَّرير، مفتوحةٌ على شرفةٍ مكشوفةٍ، بروازًا لسماءٍ تفوق الوصف، انتصبَتْ في مستطيلها النِّيليِّ صبَّارةُ أغافٍ، شمعدانٌ أصفرُ الأزهار.

لم أخدع أحدًا بغيبوبتي الكاذبة، فعلاماتُ استفاقتي كانت واضحةً وضوح الشَّمس. وإذا بي أسمع الغرفةَ تتصادى بكلمة «ساليمبيني» مناديً بها من حنجرةٍ مبحوحةٍ، كلمةٍ نضحت مقاطعُها اللَّفظيَّة القليلة بحميميَّةٍ عميقةٍ، شيءٍ بين الزِّيجيِّ والأموميِّ، طابعةً بيني وبين هذه المرأة، بختمٍ خفيٍّ، كما في العصور الوسطى عندما كان ملكان غريمان يزوِّجان ابن أحدهما بابنة الآخر، قوسَ قزحٍ من ميثاق سلامٍ وآصرةِ دمٍ.

وهكذا بدأت الأسابيع الخمسة الأكثر مللًا وهناءً في حياتي. كضيفٍ ناقهٍ أُنزِلتُ وكُرِّمتُ تكرمةً فاقت كلَّ واجبات الضِّيافة، مع فيضٍ مجاملاتٍ لا تقبل المساومة ولا هوادة فيها كأوامر فرعون.

لم تتكلَّم الأرملة كثيرًا، فقد كان يكفي ـ كما قالت ـ لتكون صديقةً لي أنَّني كنتُ صديقًا لزوجها. لم تكن تعرف شيئًا عن مخطَّطاتنا التَّخريبيَّة، أو ربَّما لم تُرِدْ أن تعرف. ومع ذلك، في إحدى الأمسيات، بحجَّة أنَّها لو لم تفعل ذلك لانتهى المطاف بتلك الأوراق في النَّار، أعطتني رزمةً من الأوراق السِّرِّيَّة، مع قوائم اسميَّةٍ ومخطوطاتٍ بخطِّ الأب السَّرمديِّ من شأنها، إذا ما افتضح أمرها، أن تقلب المملكةَ رأسًا على عقب. بعد ذلك تركتني أتماثل للشِّفاء على مهلي، فلم تعد تكترث لأمري إلَّا في مواقيت الطَّعام، أمَّا غير ذلك فقد كانت تمرُّ بي في صمتٍ، كلَّ ساعةٍ، منتصبةً، نحيلةً، وعِذْقٌ كبيرٌ من المفاتيح على خصرها، في جولتها اليوميَّة على الغرف غير القابلة للعدِّ التي يتألَّف منها المنزل. متقدِّمةً بتخطيطٍ دقيقٍ من غرفةٍ إلى أخرى، هنا لتمرير إصبعٍ على قطعةٍ من خشب الماهوغانيِّ أو على زجاج نافذةٍ سُهِيَ عن تلميعه، وهناك لمباغتة خادمتين فاترتَي الهمَّة، جالستين على الأرض بساقين متباعدتين. منتصبةً، نحيلةً. أقرب إلى الأربعين منها إلى الثَّلاثين، ولكن مع تورُّدٍ عذريٍّ، كما عندما سألتُها إن كان لديها أبناءٌ آخرون فأجابتني على كُرهٍ أنَّه حتَّى هذا الصَّبيِّ لم يكن ابنًا لها بل للزَّوجة الأولى المتوفَّاة. قَلُوقًا، مهيبةً، مستبدَّةً، خجولًا. كلَّ يومٍ كنتُ أضيفُ صفةً أخرى، دون أن أنجح في تكوين وحدةٍ كلِّيَّةٍ مقنعةٍ من تلك الصِّفات، مثل رسَّامٍ يرسم وجهًا، مشكِّلًا الأنف تارةً والذَّقن تارةً وعظام الوجنتين تارةً أخرى، فيبدو له أنَّه بكلِّ قَسَمَةٍ من القسمات

بلغ الكمال، ولكنَّه على القماشةِ لا يجد الشَّبه الذي يصبو إليه. غليظةَ القلب مع الصَّبيِّ، مع أنَّه كان عليها في غضونِ سنواتٍ معدوداتٍ، وهو حدثٌ كان الخدم ينتظرونه بفرحٍ، أن تسلِّم إليه مقاليدَ حكمِ الدُّوقيَّة وفقًا لبنود الوصيَّة.

الغرفة التي شغلتُها كانت في الواقع غرفته، مُنِحتُها منه على سبيل الإعارة، وكانت لِصْقَ الغرفةِ الأخرى، حيث مهجعُ الدُّوقةِ الكبير. ولم يُحرجها في شيءٍ أنَّني، كما حدث في أكثر من صباحٍ، كنتُ ألمحها من الفُرجةِ بين دفَّتَي الباب تمرُّ غير كاسيةٍ سوى حريرٍ متموِّجٍ يجعله مرورها ينفغرُ وينطبقُ كاشفًا عن لألاء لحمٍ مشدودٍ، مزيَّنٍ برقعةِ وبرٍ أسود، وهي تشقُّ طريقها على مهلٍ إلى الحمَّام.

تَنازعني الاعتقادُ بأنَّه ما كان ينبغي لها أن تُظهر نفسها لي عزلاءَ هكذا، ولكنَّ الاحتشام الذي كنتُ أراه منها بقيَّةَ اليوم كان يجعلني أنحِّي الفكرة جانبًا. وكانت هناك، فضلًا عن ذلك، رائحتُها لكبح جماحي: رائحةٌ طبيعيَّةٌ من زبيبٍ وسفرجلٍ، رائحةٌ يبدو أنَّ طقوس الاغتسال، بدلًا من إضعافها، كانت تقوِّي حلاوتها وعلى المدى الطَّويل شراستها.

امرأةٌ مثيرةٌ للفضول، ولكنَّ أكثر ما أذكى فضولي نحوها هو تلك الكراهية التي كانت تكنُّها للصَّبيِّ. فتىً شاحبٌ ومشبوبُ العاطفة، أثبت بين النَّوبة والأخرى من نوبات الملاريا أنَّه مشَّاءٌ لا يعرف الكلل. لم أكد أستعيد عافيتي حتَّى قدَّم لي رفيقَ نزهاتٍ، عبْرَ الغابات والحقول المحيطة، مُعينًا إيَّاي على ملء ساعاتٍ كاملةٍ من الفراغ. هل قلتُ رفيقًا؟ بل تابعًا مُحبًّا ومخلصًا، دائمًا ورائي بخطوةٍ أو خطوتين.

بفضله عرفتُ أُولى نشواتِ الخمول، إن جازت تسميتها بذلك: عرفتُ التَّدويم المنوِّمَ والرَّتيبَ والأبديَّ لدوَّامةٍ كلُّ ما حولها جامدٌ في مكانه، موهمٌ بتعطُّل الوقت. تذكَّروا، في قصَّة الجميلة النَّائمة، رجالَ البلاط الذين أخذهم السِّحر على حين غفلةٍ، هذا وهو يثب مُصالبًا رجليه في رقصةٍ ريفيَّةٍ، وذلك وهو يضع كأس النَّبيذ على شفتيه، وذلك الآخر وهو يَنْشَقُ دخانَ التَّبغ نصفَ نَشْقَة... كلٌّ متلبِّسٌ بحركةٍ بريئةٍ أو ماجنةٍ، في كشرةٍ أو ضحكةٍ ثابتةٍ كالرُّخام. مثلهم تمامًا كنتُ في ذلك الوقت، مع أنَّني مشيتُ كثيرًا، كما قلتُ آنفًا، وقلَّبتُ النَّظر حولي بلا انقطاعٍ، دائمًا بتلك البلاهة البرَّاقة التي تنظر بها، من محاجرها الحجريَّة، أعينُ التَّماثيل، في الحدائق، إلى شيءٍ امَّحى منذ أمدٍ طويل. لم ينبض لي عِرْقُ عاطفةٍ، ولم تصدر عنِّي أدنى كلمةٍ، وكلُّ خالجةٍ لديَّ اختُزلت إلى خادرةِ نفسِها، مدفَّأةً بدفءٍ منسيٍّ، كذلك الذي يُبقي الثَّعابين حيَّةً في مثاويها الشَّتويَّة. حياةٌ؟ أوه لا؛ ولا حتَّى موتٌ؛ ولا حتَّى نومٌ؛ بل وهمٌ بين الصَّحو والنَّوم، خمولٌ وخمودٌ في الدَّم، مع قطراتٍ قليلةٍ متفرِّقةٍ من موجٍ يتكسَّر بلا صوتٍ على صخرة الوعي. تلك كانت حالتي. أيَّما فعلتُ، أو فكَّرتُ، أو قلتُ، كنت أحسُّه يأتي إليَّ على رؤوس أصابعه من حلمٍ بعيد. في كلِّ هذا كان أمابيلِهْ[1] (هذا كان اسمه) غوثًا لي. بصمته قبل كلِّ شيء؛ ثمَّ بقدرته الحيوانيَّة على الاستمتاع بكلِّ تفصيلٍ صغيرٍ، سواءٌ أكان مرورَ سحابةٍ أم نذيرَ ريحٍ أم لُبِّي تفَّاحتين تحت شجرة تفَّاحٍ ـ برهانًا حيًّا على أنَّ جنَّة عدنٍ كانت هنا...

---

(1) Amabile، ويعني بالعربيَّة: الأنيس المحبوب؛ (أ).

كان لديه سمعٌ خارقٌ للطَّبيعة، يدركُ به أكثر نغمات الأرضِ والماءِ والهواءِ خفوتًا: صوتُ نزول عسلوجٍ إلى قاع بئرٍ؛ حفيفُ العشب الطَّالع بين حجرَي رَصْفٍ في مخزن حنطةٍ... كانت الأذُن لعبته المفضَّلة. وقد علَّمني كيف أستخدم أذنيَّ، وعلَّمني ألعابًا أُخَر، ألعابًا كانت طفولتي العجلى قد ازدرتها أو غفلَتْ عنها. كنتُ، على الرَّغم من كوني أكبر منه في السِّنِّ، ذلك الطِّفلَ المتعطِّشَ إلى اتِّخاذ أخيه الأكبر مثالًا، مهما بقيت تصرُّفاته ومشاعره نحوي تصرُّفاتِ ومشاعرَ تابعٍ خَضُوع. بل أكثر من ذلك، تصرُّفاتِ ومشاعرَ متعصِّبٍ يتملَّكه الوجد. إذ لا بدَّ من الجهر بأنَّه أحبَّني. كنت كلَّما استفقتُ من قيلولتي على رمال الكروم أراه يبحث عن طبعةِ جسدي في الرَّمل ويستلقي فيها، وكأنَّه كان يجد في تلك الطَّبعة الدَّافئة قالبًا أراد أن يصبَّ فيه صُهارةَ صورته. حتَّى إنَّه نسخ عاداتي: الطَّريقة التي أفرك بها فَلْحَ ذقني بسبَّابتي عندما تفاجئني بادرةُ خيرٍ غير متوقَّعةٍ من شخصٍ ما؛ الطَّريقة التي أسوِّي بها شعري بأناةٍ بعد نطقي بعبارةٍ جميلة... لقد أحبَّني. أو بالأحرى أراد أن يكون أنا؛ وربَّما كانت هذه أكثر علامات الحبِّ لحظيَّةً وكمالًا. ولكنَّه، في صبابة حبِّه، لم يكن راضيًا تمامَ الرِّضا بالكمال، بل أراد ما هو أكثر من الكمال، وإن لم يكن يعرف ما هو. لم تكن لديه أيُّ فكرةٍ عن اللَّذَّة، عن وجود اللَّذَّة. كان هذا واضحًا لي. ولا أعني بهذا أنَّ اللَّذَّة هي الكمال. كلُّ ما أردت قوله هو أنَّ اللَّذَّة ترفٌ رفضه عقلُه وجسدُه، مقتنعَين بعدم كفايته. ولهذا عاش تلك السَّنوات السِّتَّ عشرة من حياته بلا ملذَّاتٍ سوى تلك المنتزَعة من دِفاف الكتب؛ دون أن يعرف أمَّه التي قضت في أثناء ولادته؛ ودون أن يعرف عن الأب سوى قبلة يوم الأحد من

شوارب خشنةٍ مبلَّلة؛ ولا عن زوجة الأب سوى الرَّائحة التي تشي بها من بعيدٍ، قبل أن تشي بها خطواتُ نعالها الحريرِ بوقتٍ طويل.

محرومًا من الأقران، وغيرَ محفوفٍ سوى بمدرِّسين متزلِّفين وخدمٍ ريفيِّين، اغتذى أمابيلِهْ ببُحران حُمَّاه الملاريَّة المتقطِّعة، بالطَّريقة نفسها التي نراقب بها نحن الأصحَّاء، بين الاستكانة والافتتان، تناوبَ الظُّلمة والنُّور.

لذلك كان عثوره عليَّ انقلابًا بالنِّسبة إليه، أنا الآتي من نجمٍ بعيدٍ، بكلماتي الغريبةِ الوقع، لأبلبلَ أبجديَّة نهاراته: أوَّلُ وافدٍ استطاع، بعد الكثير من المبارزات الفرديَّة والمناظرات الصَّمَّاء البكماء مع فرسانه الخشبيِّين، اللَّعب معه. أمَّا من جهتي، أنا الذي كنت على الدَّوام ابن مدينةٍ ولم أكن حتَّى ذلك الوقت قد تعاملتُ مع آلاف الوحوش الغامضة والصَّغيرة من وحوش الصَّيف الرِّيفيِّ، فكدتُ لا أصدِّق أنَّني بفضله بدأت آلَفُ ذبابةَ الرَّمل والصَّرصار، ذبابةَ مايو والرُّتيلاء، الجُرَذَ والأفعى... حضوراتٍ كان يحسُّ بها دون أن يراها، بالهدوء نفسه الذي كان يكتشف فيه عروق الماء تحت سطح الأرض ممسكًا بأصابعه غُصَينًا متشعِّبًا فحسب. من حينٍ إلى آخر كان يضع إصبعًا على شفتيه ويأخذني من يدي. وصامتَين، من عشبةٍ إلى عشبةٍ، كنَّا في كلِّ مرَّةٍ نباغتُ من علٍ، دون أن نخيفه أو نخافه، وحشًا جديدًا في مخبئه الحميم. كان يقول إنَّه عزلَ وميَّز اهتزازاته داخل أوركسترا الأصوات الحرجيَّة، شاعرًا بكلِّ عصبٍ من أعصابه يرتجف من باطن قدميه إلى أطراف أصابعه. بالطَّريقة نفسها كان يسمع، على عمق سبعين أو ثمانين مترًا، همس الينابيع الدَّفينة.

في بعض المغيبات كان يأخذني إلى النَّهر. كانت دونَّا ماتيلدِهْ تراقبنا من أعلى، على افتراض أنَّها كانت لها، تلك العِقْصَة السَّوداء التي سرعان ما كانت تختفي خلف زجاج النَّافذة. كنَّا ننزل عبر ممرٍّ محفوفٍ بالقصب الأخضر المنحني، نشقُّ طريقنا بالرُّكَبِ والأكواعِ والسَّكاكين، مسترشدَين بهسهسةِ الماء الجاري وهي تزداد مع كلِّ خطوةٍ قربًا ودفئًا. مرتعشةً من لمسة البرد الأولى، كانت القدم الحافية تأبى دخول الماء، مؤثِرةً الرُّكون إلى شَعَفةِ حَجَرٍ صقلته المياه، مثل مُلقىً في الموج يبلغ بأمانٍ صخرةً ناتئةً في البحر. من ذلك المكان لم تعد بنا حاجةٌ إلى التَّحرُّك؛ من هناك كان بإمكاننا التقاط الأسماك بأيدينا...

عند عودتنا، ونحن ما نزال نصعد الدَّرج، كنَّا نتعرَّض فورًا وفي آنٍ واحدٍ لهجومٍ من قِبَل ڤالس «الرَّبيع في الغابة» ومن قِبَل عبق الدُّوقة التي نُهِكَتْ أصابعُها بلا رحمةٍ على مفاتيح بيانو حَرون. كانت تتوقَّف عن العزف حالما ترانا داخلَين، فتمرِّر لسانها على شفتيها الجافَّتين، وتضع يديها مقلوبتين في حضنها. أسلوبٌ كان يحملنا على إكبار راحتيها، إذ لم يكن فيهما خطوطٌ ولا تغضُّنات. سمةٌ لم أعرف لها أيَّ مثالٍ آخر ولم تتوقَّف لحظةً عن أن تبدو لي نذير سوءٍ، مرتبطةً على نحوٍ ما بفنِّ السِّحر. فمن السَّاحرات كان لديها أيضًا نظرتهنَّ السَّاخرة الملتوية، ونَوَدَانُ الجسد كلِّه على الوركين، بما يُضفي على مِشيتها تنافرًا يُغادي بين العرج والطَّيران. كان لا بدَّ لي من الاقتناع بذلك في اللَّيلة التي صادف فيها أن استيقظتُ وأحسستُ وراء الباب الموصَد حضورًا خفيًّا من تنفُّسٍ أو تنهُّدٍ لا يوافق تنفُّسي. وكان يكفي أن أتحرَّك بغية النُّهوض،

وأن يئنَّ السَّرير تحتي، حتَّى تتلاشى بعيدًا، على امتداد الممرِّ الثُّعبانيِّ، خطىً غامضةٌ وخافتة...

في صباح اليوم التَّالي، عندما فتحتُ الباب بجهدٍ جهيدٍ بسبب حائلٍ كان خلفه، ألفيتُ ديكًا موثَقَ السَّاقين، مفقوءَ العينين، ينازعُ مضرَّجًا بدمائه وقد سدَّ العتبة في حالةٍ تدعو للرِّثاء. أكان عملًا من أعمال السِّحر؟... أضحكتني الفكرة، بل راقني أن أفكِّر بالأمر على أنَّه تعبيرٌ مجازيٌّ أو كنايةٌ عن حياتي، مع أنَّني لم أكن أعرف وقتئذٍ بأيِّ عمايةٍ أراد صاحبُ البلاغِ المجهولُ أن يتَّهمني.

كان عليَّ أن أُوْلي الأمر مزيدًا من التَّفكير، ولكن لم تكن لديَّ أدنى رغبةٍ في ذلك. تلك كانت بُحَيرة الذَّهب والخمول المستطاب حيث سبحتُ بخبطاتِ ذراعين واسعَين. وما كان ليكون هناك شيءٌ آخر يستحقُّ أن أضيفه في الحديث عن تجربة الصَّفاء والسَّكينة هذه، لولا أنَّها انعطفت لتنتهي نهايةً مرعبةً، كما سأحكي لكم الآن.

جاء رسولٌ من العاصمة يبحث عنِّي. كان خبرُ موت الدُّوق قد وصل إلى هناك، ولم يفهموا سبب توانيَّ في العودة. تلك كانت بواكيرَ المؤامرة، بواكيرَها البهيجةَ في تهوُّرها، أيَّامَ كانت البطولة لا تحتمل المساومات والمسامحات. الأبُ السَّرمديُّ نفسُه (لم أكن قد حظيتُ بالموافقة على لقائه بعد، ولكنَّني كنت أتلقَّى تعليماتٍ دوريَّةً وشخصيَّةً منه) أرسل يقول إنَّ هناك حاجةً إليَّ، فمآثر عظيمةٌ كان يجري التَّخطيط لها في القارَّة. أعلم الآن أنَّه كان يخدع نفسه، وأنَّه اختلق روايةً من رواياته التي اعتاد، بين لعبة ورقٍ وأخرى، أن يختلقها، كما فعل مرارًا في

السَّنوات العشرين التَّوالي، في هلوسات الآمال والأوهام: في اعتلاجٍ إكسيونيٍّ[1] لا يعرف الكلل، ضَهِيٍّ هذا الذي يقودنا اليوم إلى المقصلة. ومع ذلك، لم أتردَّد في الامتثال. تمامًا مثلما أنا غير متردِّدٍ الآن، اقتناعًا منِّي بأنَّ أيَّ إخفاقٍ مفيدٌ لِريٍّ بذور النَّجاح؛ وبأنَّ قضيَّتنا ربَّما تغتذي بالموت أكثر ممَّا بالحياة. وأيًّا ما كان، لطالما كان الحذر والتَّهوُّر شيئًا واحدًا بداخلي، ولم يحدث يومًا أن تخلَّيت عن المستحيل بذريعةٍ واهيةٍ تَعِلَّتُها أنَّه كان، في واقع الأمر، مستحيلًا. وفي الختام، في إحدى الأمسيات، بينما كنَّا جالسين بهدوءٍ وسكينةٍ في الهواء الطَّلق، نستمتع برائحة الأرض بعد عاصفةٍ قصيرةٍ، أعلنتُ فجأةً إزماعيَ الرَّحيل.

كنَّا على الشُّرفة، بجانب دَرابزين تُلمَحُ بين أعمدته قطعٌ من وادٍ مُدهامٍّ تموجُ فيه مشاعلُ ومَّاضةٌ: لعلَّهم ملتقطو الحلزون يبحثون عنه على حجارة الجدران. كانت برودةٌ عذبةٌ تصعد من الأرض مثل منديلٍ نديٍّ يداعبُ أرجلنا. وكان الصَّمت عذوبةً تكاد لا تُطاق.

كسرتُهُ بالقول إنِّي مغادرٌ في أقرب وقتٍ ممكنٍ، وكان الأمر كما لو أنَّني هويتُ عليهما بفأس. إن هي إلَّا هنيهةٌ وإذا المرأة تنفجر في نوبة بكاءٍ بَهَتَتْني: أوه طبعًا، آن أوان الرَّحيل، فقد كان أطول ممَّا ينبغي ذلك الشَّهرُ الذي سرقا فيه، هي وأمابيلِهْ، من حياتي ووهباه لحياتهما...

كان الكلام أمرًا غير متوقَّعٍ، من شفتيها؛ العلامة الوحيدة على حمَّى

---

(1) في الأساطير الإغريقيَّة كان إكسيون ملكًا من ملوك ثيساليا عاقبه زيوس بربطه من يديه ورجليه إلى عجلةٍ ستظلُّ تدور إلى الأبد في حقلٍ من النَّار لأنَّه تحرَّش بزوجته هيرا؛ (أ).

الغيرة، تلك التي كانت جليَّةً في الصَّبيِّ، وما كان لشيءٍ أن يحملني على الاعتقاد بأنَّها كانت موجودةً فيها أيضًا، كانت مخبَّأةً تحت أقنعة المرعيِّ من واجب الضِّيافة.

أخذتُ يدها في يدي وكانت ترتجف وتحترق، جمرةً من كور حِدَادةٍ ملتهبٍ بقوَّة عشقٍ مُعْدِيَةٍ، قوَّةٍ جعلَتْ دفقةً من الدَّم تضرب مؤخَّرَ عنقي، فالتهبَتْ فيَّ بدوري رغبةٌ بريئةٌ في امتلاكها مُرجِفَةً إيَّاي من رأسي إلى أخمص قدميَّ.

كان الصَّبيُّ من الاستياء بحيث لم يلاحظ استياءَ أحدٍ غيره، وبدأ يأكل بغضبٍ ويذرف في تلك الأثناء، هو الآخر، دمعًا غزيرًا.

استعدتُ رباطة جأشي ونهضتُ، ودون أن أنظر إلى الوراء انسحبتُ إلى غرفتي، وهناك تناهت إلى سمعي في وقتٍ لاحقٍ أصداءُ تلاسنٍ خفيٍّ.

حُدِّدَ يومُ الأحد التَّالي موعدًا للرَّحيل، وأزمع كلاهما مرافقتي، هي في عربةٍ يجرُّها حصانٌ واحدٌ والصَّبيُّ على صهوة حصانٍ آخر، حتَّى أبلغ السَّاحل حيث، بعون اللّٰه تعالى، سأركب البحر.

مُدَّ في أمد تحضيرات الرَّحيل بمكرٍ ودهاءٍ، واستسلمتُ عن طيب خاطرٍ للتَّأجيلات: مَثَلي كَمَثَل النَّزيل الذي أصبح مع مرور السِّنين جزءًا من جدران المنزل وإذْ يغادره يحدِّث نفسه بأنَّه لا محالة عائدٌ إليه في يومٍ من الأيَّام.

ولكن ليس لهذا السَّبب نهشني على نحوٍ ألطف جزعُ الرَّحيل، أنا

الذي يحدث لي دائمًا، كلَّما أزمعت النُّزوح عن مكانٍ، أن يبدو لي ذلك المكانُ الذي ما أزال فيه والسَّاعاتُ المتبقِّيةُ على رحيلي فضلاتِ حاضرٍ، شبحَ حياةٍ ينبغي قتلُها ودفنُها بأسرع ما يمكن. بهذه الخلجات انطلقتُ في رحلتي.

كان نهارًا من تلك النَّهارات الصَّافية التي في منتصف أغسطس، ههنا في الجنوب، تندسُّ على حين غرَّةٍ بين موجتَي حَرٍّ مغربيَّتَين وصفوُها ينذر بأزوف الخريف؛ نهاراتٍ لم تُختَم بعد بظلال حزنٍ رقيقٍ سينبعث لاحقًا، مع أوَّل هسهسةٍ لريح الشَّمال خَلَلَ ألواح السَّنْدَرَات المتقلقلة وفي شقوق الأشجار.

قادت ماتيلدِهْ عربتها، وتبعها أمابيلِهْ مستويًا على صهوة فرسه، وقد علت وجهه ملامحُ حزنٍ ونضجٍ جعلته أشبه بأبٍ يشيِّع جنازة ابنه. ولستُ أبالغ، فقد لاحظتُ أنَّه إلى الشَّريط الأسود، المخيطِ بالعروةِ حدادًا على وفاة الدُّوق الرَّاحل، قد أضاف شريطًا آخر حدادًا على موتي الرَّمزيِّ. وحتَّى حقيقةُ أنَّ كليهما لم يريدا أن يسير في موكبهما خدمٌ وحشمٌ تعزِّز المعنى الفرديَّ والمأتميَّ لهذا الوداع.

كنَّا قد تجاوزنا مفترقَ تشِنْتُوربي عندما جفَّلتني صرخةٌ. لقد أفلتت الدُّوقة عنان دابَّتها وكانت تنظر إلى يدها العارية. «لقد ضاع! لقد فقدتُه!»، صرخَتْ ملوِّحةً بإصبعها كما لو كانت تَكِزُ بها وجه ربيبها، وكان قد صار بحذائها، في حركةٍ قد تبدو تهديدًا ولكنَّها لم تكن أكثر من تضرُّعٍ يائس.

«عُدْ لتبحث عنه!»، توسَّلَتْ، «لا بدَّ وأنَّه سقط منِّي في حِنْوٍ من أحناء

بودِّيني حين جذبتُ اللِّجامَ جذبةً قويَّة. سننتظرك في المنزل الذي بجوار النَّاعورة».

نظر إليها الصَّبيُّ نظرةً غريبةً، ثمَّ أدار فرسه إلى الوراء وخبَّ مبتعدًا. «لا ترجع من دون الخاتم!» أمرَتْه، ثمَّ ترجَّلت عن عربتها ومشت صوب أجمةٍ من بلُّوط الفلِّين تقوم النَّاعورةُ في وسطها.

كان الموضعُ جديدًا عليَّ. كانت النَّاعورة تدور في حوض ريٍّ دائريٍّ، وبجانبها منزلٌ صغيرٌ لم يكن واضحًا ما إذا كان مجرَّد حظيرةٍ أم مأوىً لعمَّال المزارع. اكتنفتنا من كلِّ جانبٍ جمهرةٌ من شجر البلُّوط، صارمةُ الهيئة كأنَّها متفرِّجون مكفهرُّو الوجوه، جاعلةً من المكان مسرحًا ومن كلِّ فعلٍ من أفعالنا مشهدًا مسرحيًّا.

تعرفون جميعًا حبِّي للأوبِّرا. كنتُ قد قطفتُ لتوِّي بادرةً خضراء لأزيِّن بها قبَّعتي، كما في المشهد الأخير من «الأخ الشَّيطان» عندما جاء الحدثُ ليعزِّز الخيال. كانت المرأة قد أوت بالفعل إلى الحظيرة، فيما تخلَّفتُ أنا عنها لأشرب، وجثوتُ مقرِّبًا شفتيَّ من حوض النَّاعورة، عندما من بين أجفاني نصف المُطبَقَة، تحسُّبًا لصقعة النُّغبة الوشيكة، خُيِّل إليَّ أنَّني رأيت الشَّمس تحتجب بدخانٍ غريب.

حين فتحتُ عينيَّ جيِّدًا لأتبيَّن الأمر، رأيتُ صورةً أخرى بجانب صورتي المنعكسة على سطح الماء، صورةَ رجلٍ واقفٍ خلفي، ملتحيةً بقدر مرودةِ صورتي، ورأيتها تزداد وضوحًا أكثر فأكثر مع ميل الدَّوائر التي صنعَتها يداي على سطح الماء إلى الاستقرار شيئًا فشيئًا.

لم تكن هناك حاجةٌ إلى الالتفات، فوخزة النَّصل في خاصرتي أنذرتني بأنَّ آزفتي قد أزفت.

«أنا ساليبًّا»، قال صوتٌ، وكان ذلك كافيًا.

كان ساليبًّا أشهر قُطَّاع الطُّرق في الدُّوقيَّة، وحُكي عنه أنَّه كان يأكل لحم أعدائه نيِّئًا.

التفتُّ بوجهي لأنظر إليه: لحيةٌ كثَّةٌ، وجبهةٌ ضيِّقةٌ، تحت قبَّعةٍ مخروطيَّةٍ عريضة الحوافِّ، وأسنانٌ ذئبيَّةٌ في فمٍ شَبِقٍ، وأذنان كبيرتان، منفصلتان عن الرَّأس حتَّى ليمكن تحريكهما كما لو كانتا يدين إضافيَّتين. كان قد تسلَّل بخطوات شبحٍ من خلفي، ولكنَّه ما لبث أن دفعني بصخبٍ أمامه، ليس قبل أن يوثِق معصميَّ بجديلةٍ من الحبال القويَّة، مُطلِقًا في أثناء ذلك قهقهةً أشبه بالسُّعال. ومع أنَّه أوثقني، عاد يَخِزُ خاصرتي بمديةِ مطواته حتَّى زجَّ بي في الحظيرة. وما إن رأتنا ماتيلدِهْ ندخل، ولم تكن قد أحسَّت شيئًا ممَّا حدث قبل دخولنا، حتَّى صاحت صيحةً واحدةً لم تُتبِعها بأخرى، صيحةَ حيوانٍ وقع في شرك. ثمَّ تهاوت في ركنٍ من الحظيرة، ووجهها منقبضٌ انقباضَ كفٍّ قويَّة. سعلَ قهقهتَهُ وهو يضيف إلى يديَّ لفَّةً أخرى من الحبال مثبِّتًا إيَّاي إلى عمودٍ في وسط الحظيرة. كان ما يزال يضحك عندما أنشب أظافره في المرأة وقَلَبَها على القشّ.

سمعتُ عويلَ فستانها وهو يُقَدُّ، ورأيتُ زرَّين أو ثلاثة أزرار تقفز وتضيع في الأرضيَّة الطِّينيَّة. بدا نهداها، وقد برزا بعد خفاءٍ، متباينَين أكثر من المعتاد في حجمهما؛ فالأيسر كان لفتاةٍ كاعبٍ، يشبه كعكةَ اللَّوز الصَّغيرة المسمَّاة «نهد الرَّاهبة»؛ بينما كان الآخر مكتنزًا تقريبًا،

أسمرَ الحلمة، حتَّى لَيُخيَّل إلى النَّاظر أنَّه ترسٌ صدئةُ النُّتوء. بينهما تلألأت جوهرةٌ سقطت بلا صوتٍ على ثوبها المقدود والمرتخي في دائرةٍ حول قدميها. جوهرةٌ تعرَّفتُها ببهجةٍ حيرى، وكانت الخاتمَ المفتَّش عنه سُدىً، الألماسةَ غير المفقودة...

كانت قد أخْفَتْه إذن لتختلي بي! إدراكي ذلك مَلَكَ عليَّ عقلي وألهبَ فيَّ رغبتي أكثر ممَّا فعل جسدُها وهو في تمام عُريه، مع أنَّه كان محكومًا عليَّ بأن أشهد، بعينَي شاهدٍ واغر الصَّدر، هياجَ شخصٍ غيري.

لكن في هذه اللَّحظة، كما لو أنَّه قرأ أفكاري، بدا أنَّ ساليبًا قد تذكَّر وجودي. حرَّر المرأةَ المطروحةَ على القشِّ ـ هامدةً، معقودةَ اللِّسان ـ من كومة سرابيلها وألقى سربالًا منها على رأسي، معمِّيًا إيَّاي على الأثر مثل ديكِ المشأمة. حينئذٍ لم أعد أرى شيئًا، لم أعد أميِّز شيئًا، إلَّا نحيمًا أبحَّ في بادئ الأمر، وكان خارجًا من صدر الرَّجل؛ ثمَّ صوتًا آخر متناغمًا معه، تأوُّهًا أوشك أن يكون كلامًا، صلاةَ ابتهالٍ، تسبيحًا جسديًّا، من امرأةٍ غابت عن صوابها فراحت بالصَّلاة تحثُّ نفسها على ملذَّات الجسد.

وحين تمكَّنتُ، بمجرَّد أن هززتُ عنقي هزَّةً واحدةً، من الحصول على خرمٍ بين ثنايا الثَّوب، لمحتُ الرَّجل واقفًا بعتبة الباب، وقد انفصل عنها، وكان يُصلح من هندامه ويتحقَّق من أنَّ أحدًا لم يكن قادمًا؛ ثمَّ لمحتُ المرأةَ مطروحةً على سرير القشِّ، وأوَّل ما لمحته منها شفتاها، مشقَّقتين من القبلات، ومنفرجتين في انتظار المزيد؛ حمراوين حمرةَ خمشةٍ في بياض الوجه. وكانت عيناها ساهمتَين وشبعانتَين، تبحثان

عن شيءٍ ما في السَّقف، وبدا جسدها كلُّه مأخوذًا بنشوةِ استشهادٍ معكَّر القداسة.

لم يمض وقتٌ طويلٌ حتَّى قطع الرَّجل خِفارته. حينئذٍ رفعت المرأة ذقنها مومئةً إليه أن يغشاها كرَّةً أخرى، فسقط عليها لا يلوي على أحدٍ، يلفُّهما صمتٌ مُطبِقٌ هذه المرَّة، منكبَّين على عملٍ مشتركٍ: كأنَّما ينشران معًا جذع شجرةٍ، يطرقان في تناغمٍ تامٍّ على سندانٍ، يجذِّفان في قاربٍ واحدٍ... عملٍ جدِّيٍّ، مبلَّلٍ بالعرق...

للوهلة الأولى لم ألاحظ دخول أمابيلِهْ.

لا شكَّ في أنَّ فكرةً متأخِّرةً أو شكًّا أو واجسًا قد ردَّه على عقبيه؛ وفي الحال انقضَّ على قاطع الطَّريق وانهال على كتفيه ضربًا بقبضتيه الصَّغيرتين. «اخرج من هنا يا فتى!»، حاولتُ أن أصرخ وشفتاي مكمَّمتان بالثَّوب، ولكنَّه لم يسمعني، ولا حتَّى تنبَّه لوجودي.

حرَّر ساليبًّا نفسه ببطءٍ، ومع ذلك لم يكن هو، بل المرأة التي انتصبت في الوقت نفسه واقفةً، مَن صفع أمابيلِه على خدِّه بخمس أصابع مبسوطة. ترنَّح للحظةٍ ثمَّ، دون أن يرفع ناظريه عنها، اندفع إلى الباب واختفى. ولم يمكث ساليبًّا طويلًا. بريقُ وقرقفةُ أسنانه الذِّئبيَّة كانا طريقته في قول وداعًا.

تلكَّأت المرأة قليلًا عن فكِّ قيدي، فقبل أن تفعل ذلك ارتدت ملابسها بحركات السَّائر في نومه، بحسبانٍ وتراخٍ. وحين غادرنا الحظيرة، كان حصان أمابيلِهْ يشرب الماء من حوض النَّاعورة، وكان

سرجه فارغًا. كان الصَّبيُّ قد ولَّى هاربًا على قدميه، يعلم اللّٰه إلى أين.

نادیناه سُدىً میمِّمَین جهةَ النَّهر. وهناك ظهر لنا أخيرًا. كان جالسًا على صخرةٍ مشرفةٍ على النَّهر مدلِّيًا قدميه في الفراغ. عند الصَّيحة الثَّالثة فحسب، «أمابيلِهْ! أمابيلِهْ!»، تحرَّك ساكنُه، ولكن ليحدِّق فينا دون أن يرانا، ببغضٍ انطبع على وجهه، ممزوجًا بشيءٍ من الانتشاء الخبيث، كأنَّه، قبل أن يلقي بنفسه، كان يفكِّر في أنَّنا لن ننساه أبدًا بعد الآن وسنحمل تلك النَّظرة في قلبينا إلى الأبد، مغروسةً مثل سكِّين.

لزمنا الكثيرُ من الجهد لننزل الجرفَ عبْرَ الحشائش والأغصان، قبل أن نلتقط الجثمان من قاع المجرى الجافّ، حيث تمدَّد بعنقٍ تدلَّت من جانبٍ واحدٍ، مفلوعةً بحرفِ صخرة. وفي سقوطه، استقرَّت كتفه في ثنيَّةٍ من تربة المجرى، مقلِّدًا اللَّطافةَ التي بها كلَّ ليلةٍ كان يهتدي في سريره إلى شكل نومته ووسادته. الوجه غير مرئيٍّ، منكبٌّ على الحصى. وتحت إحدى السَّاقين اهتاجت نِمالٌ أفزعت شدَّة الارتطام قريتَها، وإن لم تدمِّرها. صمتٌ مُطبِقٌ لفَّ المكان. بدت ذراعاه مثل جناحَين.

XII

رميةُ نردٍ

هنا صمتَ الشَّاعر وتكلَّم الأخ تشيريلُّو قائلًا: «انظرْ، انظرْ»، وبدا أنَّه يريد أن يبدأ خطابًا، ولكنَّه سرعان ما لجمَ شفتيه.

فحثَّه ساليمبيني قائلًا: «ما رأيك بقصَّتي؟».

«لا أهون عليَّ من إفادتك عمَّا سألت»، أجاب. «إنَّها ملفَّقة. أنت نفسكَ، وبكلِّ أمانةٍ، ادَّعيتَ لنفسك هذا الحقَّ منذ البداية. مع أنَّك، والحقُّ يُقال، أفسدتَ الخاتمة فحسب. البُطْلُ في النِّهاية».

«أرفع قبَّعتي احترامًا لنيافتكم»، قال ساليمبيني متكلِّفًا ابتسامة. «ولكن قل لي: كيف اكتشفتَ ذلك؟ اسمح لي أن أعرف».

«هناك في الحظيرة»، أوضح تشيريلُّو بكلِّ تؤدةٍ ورويَّةٍ، «كنتم اثنين وليس ثلاثة. أنت هو الرَّجل الذي وجده الصَّبيُّ فوق المرأة. ما كان ليقتل نفسه أبدًا بدافع الغيرة من قاطع طريقٍ، وما فعل ذلك إلَّا لخيبة أمله فيك».

«وماذا عن ساليبَّا؟»، تساءل الآخرون.

«لم يكن له وجودٌ أبدًا»، استطردَ تشيريلُّو مُوضِحًا. «إنَّه كبش فداءٍ أفرغ فيه ساليمبيني نداماته».

«بصرف النَّظر عن ذلك، لا تقل إنَّه لم يكن اسمًا جميلًا لقاطع طريق»، قال الشَّاعر مبتسمًا. «وفي النِّهاية، إن كنتَ تريد أن تعرف، يمكن لقصَّتي أن تأخذ منحىً آخر وتنتهي نهايةً أسعد: أنَّ الدُّوقة، بعد تسعة أشهرٍ سابغةٍ من وفاة الدُّوق، أنجبت طفلًا، وهو جهدٌ يستحقُّ العجوز الثَّناء عليه، كما قالوا، جهدٌ بذله قبل رحيله ليبقى اسمه حيًّا من بعده. كما لو أنَّه تنبَّأ بالموت المبكِّر لأمابيلِهْ. ومنذ ذلك الوقت، حكمت دونَّا ماتيلدِهْ، وقد رَبَلَتْ وتراخَتْ، الدُّوقيَّةَ المتراميةَ الأطراف نيابةً عن الوريث الجديد. إلى زوجها وربيبها تحمل الزُّهور كلَّ أسبوعٍ وتذرف دموعًا حرَّى على قبريهما».

«حسنًا»، قال الجنديُّ الذي بدا أنَّه أخذ على عاتقه مهمَّة حراسة الوقت. «ربَّما لأنَّك تتحدَّث بطلاقةٍ أكثر من الآخرين، لكونك شاعرًا، أوفيتَ بالتزامك في وقتٍ أقصر؛ فمع أنَّ السَّاعة أزفت، إلَّا أنَّها لم تبلغ الخامسة بعد».

اقتربَ من دحيلةِ النَّافذة، حيث كانت بُشارةُ ضوءٍ ترتعش، بُشارةُ حلمٍ وسرابٍ أكثر من كونها بُشارةَ ضوء.

«إنَّها آتيةٌ، نعم، إنَّها آتية»، تمتمَ وهو يعود إلى مقعده، وفهموا أنَّه لم يكن يتحدَّث عن الشَّمس بل عن المقصلة، هذه التي اكتمل تجهيزها الآن، بما في ذلك سورُها الخشبيُّ وسلَّمُها الذي عند كعبهِ كان من الممكن رؤية سمِيريليو يتمايل على كرسيٍّ وهو يعطي العمَّال أوامره الأخيرة.

ثمَّ التفت البارون إلى الشَّاعر متكلِّفًا الكلامَ لمجرَّد مواصلة الحديث: «صاحبُنا بايرون الذي ذكرتَه في البداية»، قال، «لم أقرأ إلَّا له عندما كنتُ شابًّا. ومرَّةً أخرى في الأشهر الأخيرة عنَّ لي أن أقيم مقارنةً بين حال السُّجناء الثَّلاثة في زنزانات شيلون المقامة تحت سطح البحيرة، أولئك المقيَّدين بالسَّلاسل بطريقةٍ لا يمكن معها أن ينظر بعضهم إلى بعضٍ، وحالنا ههنا التي هي، بعد كلِّ شيءٍ، أقلُّ بربريَّةً من حالهم. ولكنَّني، بعكسك، مفتونٌ بالمقطع الثَّاني للشَّاعر نفسه. المقطع الذي يعترف فيه النَّاجي المفرَج عنه:

... لم أستَعِدْ

حرِّيَّتي من دون آهة.

ويا لها آهةً ملؤها الألم! يا له اعترافًا زاخرًا بالعِبَر! ليس فيما يتعلَّق بمصيرنا فحسب، بل بمصير الشُّعوب قاطبةً...».

«لا أفهم ما ترمي إليه»، قال نَرتْشِيزو.

«ومع ذلك»، قال البارون، «فهي مسألةٌ كان عليك أن تكون أوَّل من يقلق بشأنها؛ مسألةٌ يمكن التَّعبير عنها على هذا النَّحو: ما جدوى أن ينفق المرءُ دمه لأجل مَن عشق أغلاله لدرجة البكاء إن هو حُرِّرَ منها؟... حتَّى الآن كنتُ أعتقد أنَّ عشق الأغلال شِيَةُ العشَّاق وحدهم...».

«أمَّا الآن فبتَّ تدرك»، قاطعه الرَّاهبُ الحديثَ، «أنَّ بغتةَ الحرِّيَّة يمكن أن تصيب عبدًا قديمًا بدوخةٍ لا قِبَلَ له بها».

«أتريد القول»، هبَّ الجنديُّ واقفًا مرَّةً أخرى، ولكنَّه بدا متوعِّدًا هذه

المرَّة، «أتريد القول إنَّه بالنِّسبة إلى ملايين البشر الذين نضحِّي برؤوسنا لأجلهم، تبدو الهديَّة التي نقدِّمها لهم، هديَّة الرَّغبة في تحريرهم، مزعجةً إن لم نقل بغيضة؟ أهذا ما تريد قوله؟».

«نعم، هذا ما أريد قوله»، قال البارون دون أن يرفع عينيه. «وهو شكٌّ به من الأشواك أكثر ممَّا يبدو للعِيَان. لأنَّه يترتَّب على ذلك، طالما أنَّ موتنا عديم الجدوى، أنَّه يَحسُنُ بنا أن نحافظ على حياتنا، حتَّى في أشدِّ الشُّروط ظلمًا».

«أنت أيضًا يغريك أن تلعب دورَ يهوذا!»، غمغمَ الفتى، وبدا سعيدًا وغيرَ سعيد. ثمَّ قال للآخرين: «انظروا كيف أنَّ هذه النَّوائب التي يحكيها بعضنا لبعضٍ، سواءٌ أخياليَّةً كانت أم مقاربةً للواقع أم واقعيَّةً فعلًا، تتحوَّل بسهولةٍ إلى ذرائع ودوافع للاستسلام... ولذلك لستُ الوحيد الذي يرتجف هنا! مع أنَّني، وربِّي، أرتجف في دخيلة نفسي دون أن أتصنَّع رومنطيقيَّةَ التَّنهُّدات والدُّموع والخوف على مصير البشريَّة. عليَّ أن أختار بين الخيانة وعدم الخيانة، بين الحياة والموت، في أشدِّ الشُّروط وحشيَّةً... وهو اختبارٌ أتحدَّى فيه نفسي، رميةُ نردٍ الرِّهانُ فيها على الشَّرف. والحَكَمُ هو اللّٰه».

تنحنحَ آجيسيلاو ثمَّ قال: «لا أحبُّ المُداوَرَة؛ أنا جنديٌّ. لكنْ ثمَّة شيءٌ واحدٌ أراه واضحًا: أنَّنا بدأنا من افتراضٍ أن يحكي بعضنا لبعضٍ أشياء مُبهجةً لكي نحضنها في أعيننا حتَّى النِّهاية؛ أو لكي نسافر للمرَّة الأخيرة، بالكلمات، خارج هذه الجدران؛ أو بالأحرى لتزجية الوقت والاعتراف وسبر أغوار أنفسنا... ولكن، بدلًا من ذلك، يبدو لي أنَّ كلَّ

واحدٍ منَّا يطلع علينا بذكرى فاحشةٍ خارجةٍ عن الموضوع، ودون أن يعترف بها، يداعبها في دخيلة نفسه. باختصارٍ، إن كان عليَّ أن أكون صريحًا، فإنَّني أخشى أنَّنا ننظر هنا من طرفٍ خفيٍّ إلى أربعة أمثلةٍ عن الجُبن، لا أستثني منها جُبني، ونقارن بينها...».

خيَّم عليهم صمتٌ ممضٌّ قطعَه أخيرًا الأخ تشيريلُّو الذي كان يستمع وفي عينيه بريقٌ جَذِلٌ لاحَ من فُرجةٍ بين الخِرَقِ وخثرات الدَّم المتيبِّسة.

«أمَّا أنا»، قال، «فطالما أنَّني لا أعرف ذلك الاسم، لا أجدني مضطرًّا إلى الاعتراف به، وأنا فوق كلِّ الشُّبهات. لا يوجد أيُّ احتمالٍ لصدور عفوٍ عن جُنَحي ولا أيُّ سبيلٍ للنَّجاة برأسي. ومع ذلك، شيءٌ واحدٌ يمكنني أن أخبرك به من هذا الموقع المحايد: ما أنتم بأوَّل من يُضطرُّ، كما يتباهى ربَّما كلُّ واحدٍ منكم، إلى الاختيار بين سلوكين ختاميَّين. وإنَّني لمندهشٌ منك، يا آجيسيلاو، أنت الذي درستَ اللَّاهوت ولا ينبغي أن تكون جاهلًا بالعقيدة الأخلاقيَّة لِلُّويوليِّين[1]، تلك التي تنصُّ تعاليمها على أنَّه، حيثما تكون الأفكار التي تقود إلى الحرِّيَّة أكثر وضوحًا ووقوعًا في حيِّز الإمكان من تلك التي تبدو في الظَّاهر واجبًا، يجوز العمل بما يخالف الواجب...».

«حتَّى لو كان على أحدهم أن يموت بسبب ذلك؟»، قال الجنديُّ متجهِّمًا.

---

(1) نسبةً إلى إغناثيو دِهْ لويولا (1491 ـ 1556)، وهو عالم لاهوتٍ إسبانيٌّ أسَّس اليسوعيَّة وكان أوَّل قائدٍ أعلى لها؛ (أ).

«أفٍّ لك! أربع حيواتٍ في كفَّةِ ميزانٍ تفوق بأربعة أضعاف وزنَ واحدةٍ في الكفَّة الأخرى».

«واحدةٍ في الوقت الحاضر ربَّما، ولكنَّها تساوي آلاف وآلاف الحيوات في المستقبل. زِدْ على ذلك رخاء الشُّعوب وثقة المجتمع المدنيِّ...».

هزَّ الأخ تشيريلُّو كتفيه: «وترالَّالا ترالَّالا! إنَّها ترَّهاتٌ لا تساوي أونصةً واحدةً من دمك. وهذا تدركونه أنتم أيضًا، لأنَّه كلَّما اقتربت لحظة تضحيتكم ازداد شعوركم بدماء الحياة تثقل في عروقكم، وبدت لكم سحابةُ الثَّرثرة الطَّنَّانة أكثر انكماشًا وخواءً. لذلك أراكم، أمام تقلُّب كفَّتي الميزان، حيارى تقلِّبون أكفَّكم...».

«يمكننا أن نضرب قُرعةً على ذلك»، قاطعه الشَّاعرُ الحديثَ، «فإن رست العملةُ المعدنيَّةُ على الرَّأس، تكلَّمنا وأنقذنا رؤوسنا؛ وإن رست على الصَّليب، مضينا إلى صلباننا في صمت»، ثمَّ أضاف بنبرةٍ أكثر جدِّيَّةً: «هذه التَّقلُّبات في إرادتنا، أفهم جيِّدًا لماذا تكدِّرنا، نحن الذين حتَّى وقتٍ قريبٍ كنَّا رابطي الجأش شِدادَ الشَّكيمة. الحقيقة هي أنَّ الموت حدثٌ استثنائيٌّ تَوْجَلُ له القلوب حين تُشَمُّ رائحته عن قرب. ولكن من الصَّحيح أيضًا أنَّنا نعطيه من الأهمِّيَّة أكثر ممَّا يستحقُّ، لا لشيءٍ إلَّا لأنَّ مخيِّلتنا مخدوعةٌ به: مثلما في عين المسافر الوَجِلَةِ تبدو تلك الشُّجيراتُ المعلوَّةُ بظلَّة الغابة هيئاتِ عمالقةٍ وسط ظلال اللَّيل».

«وبهذا تعود المسألة إلى نقطة البدء»، قال تشيريلُّو راكبًا رأسه،

«مسألةُ إن كان موتكم مفيدًا أم غير مفيدٍ لقضيَّتكم. هنا رودُس، فاقفز هنا[1]».

«بالنِّسبة إليَّ»، قال البارون، «أوَّل ما يتبادر إلى ذهني السُّؤال الذي طرحه فارسُ مِيري على باسكال: كيف يمكن تقسيم مال الرِّهان بين اللَّاعبين إذا اضطرُّوا إلى إيقاف اللُّعبة، عندما يكون أحدهم متقدِّمًا...».

«ما علاقة ذلك بموضوعنا؟»، كانت الأسئلة الأكثر صراحةً دائمًا ما تصدر عن نَرتْشِيزو.

«أنَّ اللُّعبة التي ستتوقَّف اليوم هي حياتنا، والأمر متروكٌ لنا لتقسيم المكاسب والخسائر وفقًا لحسابات باسكال...».

«المقارنةُ متصنَّعة»، قال ساليمبيني محتجًّا، «أنا نفسي، رغم اتِّفاقي مع باسكال، أفضِّل أن أستخلص درسًا من مبدأه الشَّهير: أنَّ الضَّغط الواقع على أيِّ نقطةٍ من سائلٍ محصورٍ في وعاءٍ مغلقٍ يضغط بالتَّساوي على جميع النِّقاط الأخرى. لأنَّه، إذا سلَّمنا بأنَّ دمنا سائلٌ، وأقصد هنا دمنا الذي نحن على وشك إراقته، فإنَّه يترتَّب على ذلك...».

«أذكِّركم بأنَّ السَّاعة أدركت الخامسة الآن»، قال الجنديُّ.

«وأنا أيضًا؛ إنَّه وقت وفائنا بالوعد. لقد تداولنا الآراء بتحلُّلٍ من القواعد فيه من قلَّة الحياء ما فيه. أمَّا الآن، فليختلِ كلٌّ منَّا بنفسه دقيقةً ويقرِّر».

---

(1) في الميثولوجيا الإغريقيَّة أنَّ رجلاً كان يُباهي أصحابه بأنَّه قفز من أعلى صخرةٍ في جزيرة رودُس حين زارها في إحدى المرَّات، فأخذه أصحابه ذات مرَّةٍ إلى تلك الجزيرة وطلبوا منه القفز من فوق تلك الصَّخرة قائلين له: «هنا رودُس، فاقفز هنا» ليتَّضح لهم زيف زعمه؛ (أ).

قال البارونُ قوله هذا ثمَّ نهض، وحذا حذوه الثَّلاثة الآخرون. ظلَّ واقفًا في صمتٍ وعيناه مغمضتان؛ بينما راح تشيريلُّو، دون أن يتزحزح عن مُستلقاه قيد أُنملةٍ، ينظر إليهم واحدًا تلوَ الآخر. وبعد وقتٍ قصيرٍ، ساروا تِباعًا إلى طاولة الإقرار حيث كان إنغافو أوَّل من خطَّ بيدٍ ثابتةٍ خطًّا على الورقة البيضاء وأدخلها في الشَّقِّ. حذا الآخرون حذوه، ثابتي الجَنان، أو هكذا بدا الأمر؛ ولكن مع غيمةٍ من اليأس خيَّمت على نَرتْشِيزو وحده، أو هكذا بدا الأمر.

«الآن وقد تمَّ الأمر»، قال البارون بوقارٍ، «لم يبق سوى دورك أيُّها الأخ تشيريلُّو. بعد ذلك فليكن ما ينبغي أن يكون».



XIII

شيطانٌ من الآلة[1]

«لا، لن أحكي لكم قصَّة حياتي»، قال الأخ تشيريلُّو. «لن تعيروني آذانًا صاغيةً، أو قد تصغون ولكن مشتَّتي الأذهان. أكثر من مرَّةٍ رأيتكم، في اللَّحظات القليلة الماضية، تحدِّقون في تلك الصُّندوقة التي على الطَّاولة، الصُّندوقة التي أودعتم فيها مصيركم، متسائلين، كما يتراءى لي، إن كان **فمُ الحقيقة** سينطق؛ وإن نطق، فبصوتِ مَن؛ وإن لم ينطق، فإلى أيِّ حدٍّ كان نافعًا التزامُ الصَّمت...

ماذا أقول عن القصص التي قصصتموها؟ ربَّما لم تكن فكرةً جيِّدةً منِّي أن أقترح عليكم مثل هذه الدِّيكاميرون اللَّيليَّة، لأنَّ النَّتيجة كانت تعذيب كلِّ واحدٍ منكم وتعريته بالكامل وسط أفكاره اليائسة. الحقيقة التي لا يمكن إنكارها أنَّكم جميعًا، أيًّا تكن الطَّريقة التي للتَّوِّ حلَّ بها كلٌّ منكم المعضلة، وسواءٌ أأصبح واشيًا أم لا، قد اقترفتم، ولو للحظةٍ،

(1) في الأصل باللاَّتينيَّة: Diabolus ex machina، وهي المقابل الشِّرِّير لعبارة Deus ex machina التي يُراد بها المددَ الغيبيَّ أو المعونة الإلهيَّة التي تتدخَّل في سير الأحداث فتنقلب بها الأحوال من ضرَّاء إلى سرَّاء؛ ويعود أصل العبارة إلى المسرح اليونانيِّ القديم حين كان الممثِّلون الذين يلعبون دور الآلهة يُحضَرون إلى خشبة المسرح ويُرفعون عنها باستخدام آلة؛ (أ).

وفي وليجة قلوبكم، خيانةً ما؛ وإذا متُّم، فساخطين على أنفسكم وعلى حياتكم وعلى موتكم ستموتون. أعلم أنَّكم رفضتم البارحة كاهنَ السِّجن وعزاءات الدِّين. هل كان الأمر يستحقُّ حينئذٍ تجشُّمَ عناء الاعتراف إلى آثمٍ مجهولٍ، إلى قاطعِ طريقٍ ومارقٍ؟».

لمعت في صوته رنَّةٌ ذات جَرْسٍ مفاجئٍ وساحرٍ، وفي الوقت نفسه بطوليٍّ، جَرْسٍ أصاب الرِّفاق الأربعة بالحيرة والذُّهول لأسبابٍ ليس أقلَّها أنَّه من فوضى الخِرَقِ التي بدت، تحت الضَّوء الأوَّل لغزالة الضُّحى الآخذة منذ قليلٍ في نطح قضبان النَّافذة، مرتخيةً بشكلٍ غريبٍ عند العنق، ظهرت واحدةٌ من تلك اللِّفَافات المدمَّاة التي تُطوَى فيها الأجنَّة قبل وضعها في القمامة.

وتابعَ الصَّوت: «ليس من واجبي أن أنصِّب نفسي قاضيًا ثالثًا لكم، بعد السَّنِهدريم الأرضيِّ الذي أدانكم وذلك السَّماويِّ الذي يستعدُّ لإدانتكم. ولكن ما لا شكَّ فيه أنَّكم جميعًا، مهما تظاهرتُ إلى الآن بعكس ذلك، قد كشفتم أنفسكم لي بين خبيثٍ وضعيفٍ وأحمق، أرواحًا صغيرةً ترتجف تحت بَهْرَجانٍ فاخر. أنت أوَّلًا، مُخصٍ وقاتلُ أبٍ مهووسٌ؛ ثمَّ أنت، مُغوي أرامل ويتامى؛ وأنت، قايينٌ في زيٍّ هابيل؛ وأخيرًا أنت، نرسيسٌ عاشقٌ، غير جديرٍ بحمل اسمٍ بمثل هذه الوحدانيَّة الاستئثاريَّة والكئيبة...

أوه، لقد شعرت حقًّا بأنَّني شيطانكم الحارس في ليلة العجائب هذه، أفخم ليلةٍ في حياتي، وأنا ألعب الغمَّيضة مع عثراتكم ومخاوفكم... وأطري عليكم ولو قليلًا ـ أستطيع الآن إخباركم بذلك ـ لحفزكم على

إكمال مسرحيَّتكم منصِّبًا نفسي مؤلِّفًا لها ومتفرِّجًا عليكم. ذلك أنَّني بطريقتين متعاكستين سخَّرتكم: تارةً محرِّكًا خيوطكم بمهارةٍ، وتارةً جالسًا بهدوءٍ للاستمتاع بأدائكم؛ تارةً غريمًا، وتارةً حليفًا؛ دون أن أكشف لكم ما كنتُ عليه حقًّا: محرِّكَ دُمَىً في يديه خيوط كلِّ واحدٍ منكم... ولكن كاظمًا طوال الوقت، في أعماق نفسي، غيظي من سماعكم تخلطون، وأنتم على عتبة الظَّلام، الأسئلة الكبيرة عن اللّٰه والشَّرِّ والموت، بتلك الصَّغيرة عن صغائر الإنسان، المَلِك والدُّستور والسَّعادة والخلاص وآداب السُّلوك...».

«تريد أن تسخر من أفعالنا»، نهض الجنديُّ غاضبًا، ولكنَّ ساليمبيني سمَّره في مكانه بإيماءةٍ واحدة.

«دعه يقول ما لديه، فثمَّة بعض البلاغة في لغوه...».

في هذه الأثناء، أصبح الضَّوء أكثر جرأةً، وأصبحت خُصَلُه الرَّماديَّة الطَّويلة تتدلَّى من القضبان. من همشةِ الأصوات في الخارج فُهِمَ أنَّها بدأت تمطر مرَّةً أخرى، وأنَّ الصَّباح سيكون غائمًا.

«هيَّا، أكملْ، أنا مهتمٌّ بحديثك»، قال البارون، بينما تناهى إلى أسماعهم من أنأى تخوم الطَّبقة السُّفليَّة صوتُ السَّجين نصف المعتوه، وإن أضعفته المسافة، يردِّد للجدران صيحة الكوكوريكو المعهودة.

«لم ينتظر القدِّيس بطرس صياحَ الدِّيك»، قال الأخ تشيريلُّو، «وربَّما حذا أحدكم حذوه...».

هزَّ البارون كتفيه: «ستعرف عمَّا قريبٍ، عندما يُفتَح صندوق الاقتراع.

حتَّى ذلك الوقت، طالما أنَّك تحتقرنا كثيرًا، وتسفِّه قصصنا كثيرًا، ولا تنوي إخبارنا بقصَّتك، أمسكْ لسانك واغفُ قليلًا إن استطعت».

«أوه، لا»، اعترضَ نَرتْشِيزو. «لسنا في موقفٍ يسمح لنا بالشُّعور بالإهانة. وسيكون الصَّمت مرعبًا في أثناء انتظارنا الحاكم. تكلَّم، أرجوك، وإن لم تشأ إخبارنا بقصَّة حياتك من بدايتها إلى نهايتها، فأخبرنا نُتَفًا عن نفسك».

فهدأ تشيريلُّو، كما يهدأ طفلٌ صغير.

«بمقتضى هذه الشُّروط، أوافق. وعلى أيَّة حالٍ، أعلم أنَّني أُلقي القول إلى آذانٍ يمكنني الوثوق بها، لأنَّها عمَّا قريبٍ ستكون أشدَّ الآذان تكتُّمًا وصممًا على وجه البسيطة. طبعًا من المفترض أنَّني لست مجهولًا لكم: لقد قرأتم عنِّي ألف مرَّةٍ عند كلِّ مَفْرَقِ طريقٍ، في البلاغات المُمَنِّيَةِ بأكياسٍ من الذَّهب لقاءَ القبض عليَّ حيًّا أو ميِّتًا. ولعلَّكم قرأتم أنَّني عجوزٌ لي من العمر نِهازُ السَّبعين وأنَّ لقب الأخ قد أُلصِقَ بي من قِبَل أتباعي لشبهي بالأخ ديافولو ذي المجد التَّليد، ولكن ربَّما أكثر من هذا لولعي الشَّديد بالشَّعائر الورِعة التي رضعتُها من صدر أمِّي، دون أن أسهو عنها أبدًا، ولا حتَّى في أشدِّ المواقف شؤمًا، ولا حتَّى حين كنت أجد نفسي في شِقاقٍ مع السَّماء. لذلك لم يكن من غير المألوف رؤيتي جاثيًا على ركبتيَّ، مُشابكًا للصَّلاة أصابعَ ما تزال ملطَّخةً بالدِّماء. أمَّا كيف أصبحتُ قاطع طريقٍ، فتلك قصَّةٌ جرت على ألسنة العوامِّ وألَّفوا عنها أغنيةً تحكي كيف أنَّني في شبابي، يومَ كنتُ غنيًّا ومُولعًا بالكتب، معدودًا في عِداد الفلاسفة الخلَّاقين في نابولي، المدينةِ التي لا يُعوِزها

أشخاصٌ كهؤلاء، ذهبتُ إلى هناك لأتزوّج بالجميلة نينفا كارافا التي لم يمض عامٌ حتّى فاجأتها في أحضان أكثر مغازلي البلاط شهرةً، فأعملتُ سكّيني فيها وفيه. ثمّ كيف هربتُ إلى الجبال وانضممتُ إلى عصابة الأخوة ڤاردارِلّي، حريصًا على خوض أجرأ صولات الرُّوح والجسد؛ وكيف، بعد مقتلهم، جعلت نفسي مستخلَفًا على رأس طغمةٍ تلقّطتُها من هنا وهناك، وسلّحتُها بالمناجل والفؤوس، وطفتُ بها كلَّ أنحاء البلد، شريكًا لكم، وإن بأكثر الطُّرق فظاظةً وفظاعةً، في الهدف نفسه، ذلك المتمثّل بتقويض النِّظام الملكيّ المزدهر من قواعده. هذا، على وجه التّقريب، ما يُغنّى عنّي، وربّما لم تسر الأمور على هذا المنوال، ولكن لا رغبة لديَّ في إفشاء المزيد. لا شكَّ في أنَّ سيرتي، في نظر الآخرين، سيرة شخصٍ متكلكلٍ في الخطايا، ولكنّني لا أطلب تبرئةً منها لأنّني أبرّئ نفسي بنفسي ما دام كلُّ فعلٍ من فِعالي، خلال الأربعين عامًا الماضية، كان مدفوعًا بالفعل الذي قبله بقوّةٍ لا تُقاوَم، كصخرةٍ تسقط من قمّة جبلٍ طويلِ المنحدَرِ شديدِه ولا يمكنها التّوقُّف، حتّى لو أرادت ذلك، إلّا إذا تلقّاها وادٍ وأخمدَ في سهله مجراها، مثلما سيحدث لنا ولمجرانا في غضون ساعةٍ، ولكن ليس قبل أن أحتجَّ ملءَ صوتي على مَظْلَمة إنجابي إلى هذه الحياة، المَظْلَمةِ نفسِها التي، في قلب حيرتك، اقتصصتَ منها في أبيك، يا آجيسيلاو؛ وعلى المَظْلَمة الأخرى، الأكبر من الأولى، مَظْلَمةِ أنّه لا أنا ولا أنت ولا أيٌّ منّا امتلك هويّةً راسخةً، ذاتًا صلبةً ومنيعةً ومسؤولةً عن فرديّتها. ذلك أنَّ حياتي ـ كما حياتكم، يا أعدائي وأخوتي ـ لم تكن سوى تدفُّقٍ مستمرٍّ من الرُّؤى الكاذبة داخل ذاتٍ متعدِّدة... وربّما لم أكن أسأل اللّه كلَّ مساءٍ إلّا أن

أتمكَّن في النِّهاية من العيش قريرَ العين في اسم تشيريلُّو، في المصير المنفرد والمنقطع النَّظير لتشيريلُّو، بدلًا من أن أشعر بذلك الاسم وذلك المصير يتسرَّبان منِّي من كلِّ جانبٍ تسرُّبَ الماء من غربال. لذا فإنَّ أكثر مجازري وحشيَّةً كانت تهدف إلى هذا وليس إلى أيِّ شيءٍ آخر: أن أقنع نفسي بأنَّني أولَدُ من آلام الآخرين، الآلام التي سبَّبتُها لهم بيديَّ. بينما ها أنا الآن في اللَّحظة الأخيرة: مثلكم أنتم. ونهايتي لا تختلف في شيءٍ عن نهايتكم. فلقد سمعتكم تقعون، بعضكم أكثر وبعضكم أقلّ، في السَّيرورة نفسها، سيرورةِ تحويل وتبديل الشَّخصيَّات وتحريك وتحوير الظِّلال ولَعِبِ الغمَّيضة، السَّيرورةِ التي منها سُبِكَتْ حياتي. مشابهون كلُّنا، أنا وأنتم، لِمزَقٍ متفرِّقةٍ من قرطاسٍ مفقود. ممثِّلو أدوارٍ ثانويَّةٍ، أنا وأنتم، في مسرحيَّةٍ لا تنتهي؛ مؤدُّون صامتون في بلبلةٍ غريبةٍ ومقيتة...».

«أتريد القول»، احتجَّ نَرتْشِيزو، «إنَّ سهرنا النَّبيل كان مجرَّد سهرةِ رقص؟».

أمَّا إنغافو الذي لم يبدُ أنَّه تأثَّر كثيرًا بهذا التَّعقيب، فقال: «كان من الممكن لصديقٍ قديمٍ لي، البارون باسكوالِهْ غالُّوبي، أن يأتي بهذه التَّخرُّصات بأسلوبٍ أفضل من أسلوبنا. أذكر أنَّه، في إحدى نزهاتنا معًا، حدَّثني عن سجناء يونانيِّين حُبسوا منذ ولادتهم في كهفٍ ولم يروا سوى الظِّلال على الحائط فحسبوها حقيقةً. ولكنَّه مات، غالُّوبي هذا، كما بَلَغني...».

«كيف يمكن للمرء معرفة الحقيقة؟»، دندنَ ساليمبيني، ثمَّ أوضح: «روسِّيني، *الصُّدفةُ تصنع اللِّصَّ*، دَوْرُ بِرِنِيْتْشِهْ...».

هزَّ الأخ تشيريلُّو رأسه والتفت إلى البارون قائلًا: «أوه، لم يكن غرضي أن أتحدَّث كفيلسوف؛ كلُّ ما أردته هو أن أعبِّر عن الخليط المتقلِّب الذي أنا عليه، وكيف تضرَّعتُ بتذلُّلٍ إلى اللّٰه أن يلمَّ شعثَ نفسي في القريب العاجل ويُفنيني في وجهه الواحد الأحد...».

لم يستسلم ساليمبيني. بدا كمن يريد دَرْءَ الخوف بالثَّرثرة: «هل صادف أن سمعتم تلك القصيدة الرَّكيكة التي كتبتُها قبل سنواتٍ، تلك التي تتحدَّث بالتَّحديد عن الخلائط؟»، وأنشد:

سُدىً سوف تُنفق

الوقتَ والجهدَ

إن أردتَ صُنعَ خليطٍ

من مَفْسَاكَ ونبتةِ القرَّاص...

ولكنَّ البارون انبرى له قائلًا: «لم تكن قد بلغتَ الثَّالثة من عمرك عندما كانت هذه الأغنية التَّافهة تجري على كلِّ لسانٍ في الشَّوارع»، فأطرق الشَّاعر ولم يزد.

«ساعةٌ أخرى»، قال آجيسيلاو إذ سمع همشةَ تبديل دوريَّة الحرس. «إنَّها السَّادسة». ثمَّ غرق في أفكاره.

«المَفْسَى ونبتة القرَّاص»، قال الأخ مفترًّا عن ابتسامةٍ غامضة. «ها نحن أولاء؛ كما في ذلك المقطع المبتذل، كذلك في داخلي تسعى عبثًا أربعة أو خمسة عناصر متنافرةٍ إلى تشكيل خليط: المتعصِّب والمهرِّج، التَّقيُّ والقاتل؛ وحتَّى نصير العوامِّ في بعض الأحيان... إنَّني

أكثر استبهامًا على نفسي ممَّا هو الأب السَّرمديُّ المجهول على أفراد عصبتكم...».

«من يدري لعلَّه في هذه اللَّحظة يخشى أنَّنا خائنون...»، غمغمَ البارون مضيِّقًا عينيه، وبدا فجأةً وكأنَّه ينجرف إلى حيث لا يدري أحد.

«ألا يمكنه، في هذه الأثناء، الاختباء في مكانٍ آمنٍ على سبيل الاحتراز؟»، سأل تشيريلُّو نَرتْشِيزو بصوتٍ خافت.

ولم يمسك الفتى لسانه عن القول: «لا يستطيع؛ ليس حيث هو الآن. لا يمكنه الاختباء من العامَّة من دون فضيحة».

«طبعًا»، قال الأخ تشيريلُّو، «كلُّ غيابٍ في البلاط يلفت النَّظر...»، ولأنَّ نَرتْشِيزو أومأ برأسه موافقًا تابعَ: «ما لم يُطلب من صاحب الجلالة إذنُ خروجٍ من أراضي المملكة، لأجل السَّفر، كما يقتضي الواجب. فإن لم يكن من الملك، فمن أخيه...».

لم يكن هناك من يصغي إليه الآن إلَّا نَرتْشِيزو. بينما تحجَّر الآخرون في جلستهم، ينظرون إلى الأمام مباشرةً، مغلوبين فجأةً بغيبوبةٍ أو نعاس.

«نعم، من أخيه»، تابعَ تشيريلُّو، وبدا صوته كهسهسةٍ مغريةٍ من عينٍ سلسبيلٍ، «أخيه المولع بالسَّفر والذي لا يستنكف أبدًا عن مقابلة أحد...».

«مَن، كونتُ سَرَقوسة؟»، سألَ الفتى. ثمَّ أضاف بشرودٍ: «سيكون ذلك سهلًا، بل في غاية السُّهولة. يكفي أن يطلب الأب السَّرمديُّ من

مرآته مقابلةً رسميَّةً...»، وضمَّ في ابتسامةٍ ساخرةٍ شفتيه المتعَبتين، شفتين شقَّقهما السَّهر والصَّوم. غريبٌ كيف كان يَكْبُرُ ويَقْبُحُ بمضيِّ اللَّحظات...

«الأب السَّرمديُّ يطلب من كونت سَرَقوسة مقابلةً رسميَّةً!»، كرَّرَ واكزًا بمرفقه رفاقه الجالسين كتفًا إلى كتفٍ على السَّرير نفسه، هامدين وغافلين كحرَّاس الضَّريح المقدَّس.

«بالطَّبع، كيف يمكنه أن يطلب من نفسه مقابلةَ نفسه؟»، ضحك تشيريلُّو وضحك معه نَرتْشِيزو. ولكن ليس لأكثر من هُنيهةٍ، ولم يكن لدى الآخرين الوقت لفهم ما حدث قبل أن يسمعوا تشيريلُّو يصرخ منتصرًا: «حسنًا، يا فتى! ضحكتك هذه دليلٌ كافٍ ووافٍ. لقد هزمتُك، ولم أعد في حاجةٍ إليك بعد الآن!».

اتَّخذ صوته فجأةً نبرةً مختلفةً، ولكنَّها كانت نبرةً مألوفةً لآذان السُّجناء الذين فزعوا من سُباتهم إذ رأوا الأخ يهبُّ واقفًا على قدميه برشاقةٍ أكبر ممَّا استطاعوا تخيُّله ويقترب من الباب ويطرق عليه ثلاث طرقاتٍ ببراجم جازمة.

وفي اللَّحظة نفسها التي اقتحمَ فيها فصيلٌ مسلَّحٌ الغرفةَ واحتلَّ زواياها، ومضَ كالبرق في ذاكرة الرِّفاق الأربعة سرُّ ذلك الصَّوت. ولكنَّ الأخ كان قد بدأ يزيل عن رأسه تلك الضَّمائد الزَّائفة. شعرٌ كثيفٌ مستعارٌ، ضربٌ من جُمَّةٍ مستعارةٍ، سقط عند قدميه مع لفَّة الشَّاش الأخيرة، تاركًا شعرًا رماديًّا متعرِّقًا يبرز بين أصباغ التَّنكُّر وعينٍ عمياء جامدةٍ في زُلالها المتحجِّر. عندئذٍ فحسب، وباشمئزازٍ امتُقعت له

وجوههم، ميَّز الطَّالب والبارون والجنديُّ والشَّاعر، تحت اللَّفائف المحلولة وخِرَق الكتَّان المنزوعة، الخطمَ القبيحَ الذي لا تُخطئه عينٌ، خطمَ الحاكم.

«سبارافوتشيلِهْ!»، هتفوا في جوقةٍ واحدةٍ، ولم يكن واضحًا للنَّاظر إليهم أَذُعرًا كان الشُّعور الذي جعل عيونهم تلمع وصوتهم ينهج أم ارتياحًا.

استلَّ من طيَّات ملابسه رقعةً سوداء وغطَّى بها عينه المريضة، ثمَّ مفتاحًا صغيرًا لفتح الصُّندوقة الحديد. صمتٌ كأنَّه صمتُ الموت لفَّ الزِّنزانة. أعاد الجنود إشعال النَّار في ذُبالات السُّرُج مع أنَّ الرُّؤية كانت قد أصبحت واضحةً الآن وكانت ألسنة اللَّهب تضؤل أمام إشارات النَّهار القاسية. فتح سبارافوتشيلِهْ الصُّندوقةَ بأناةٍ، وأخرج الأوراق، ورازَها بأصابعه.

«لن أكون ملزَمًا الآن»، قال، «بعد أن عرفتُ اسم الهيدرا، ولكن بمقتضى عهدٍ غير مكتوبٍ أظلُّ عند وعدي: إن كان أحدكم قد اعترف عن طواعيةٍ واختيارٍ، فقد نجوتم جميعًا».

ذهب إلى تحت النَّافذة، وبدأ يقرأ بعينه السَّليمة.

وبعد لحظةٍ يسيرةٍ قال: «لكنتُ عضضتُ بنانَ النَّدم لو أنَّ أحدكم تكلَّم، مُحبِطًا بذلك ومُجهِضًا عملي»، ثمَّ أضاف بصوتٍ أشدَّ شحوبًا: «سأترككم ساعةً واحدةً فحسب لتتباهوا بأَيمان ولائكم هذه»، ولوَّح لهم بقصاصات الورق. «ساعةً واحدةً فحسب ليصفِّق كلٌّ منكم للآخر.

ولكن لا يراودَنَّكم الأمل في أنَّها قد تنجو وتدخل التَّاريخ»، وإذ قال ذلك مزَّقها مِزَقًا صغيرة.

«أنا لم أكتب غير كلمة خراء»، قال البارون مرتاحَ البال. «وحتَّى هذه لم تكن، بعد كلِّ شيءٍ، إلَّا سرقةً أدبيَّة».

عاد سبارافوتشيلِهْ يكركر في الضَّحك، ثمَّ قال: «لقد ابتهجتُ لأنَّني كنت متأكِّدًا سلفًا من غضبكم الجامح، وكما ترون، لقد انتهجتُ لأهزمكم أكثر الطُّرق ازورارًا ومكرًا. والآن، بعد أن عرفت أين تتوارى الهيدرا، عند أقدام العرش، ما عليَّ في هذه الأثناء إلَّا أن أقطع المخالب الأقرب وأرميها في البحر، حيث سبقكم البارحة تشيريلُّو الحقيقيُّ».

وبلا مقدِّماتٍ سكتَ عن الكلام. بعد هدنةٍ ليليَّةٍ عاد الجُرَذ يُشعره بحضوره القارض داخل جمجمته، وإن بلطفٍ كبيرٍ جعله يفكِّر في أنَّه كان يرسل إشارات وداعٍ وسلام: كما هي الحال في نهاية عاصفةٍ مطريَّةٍ عندما تضرب قطرةٌ متأخِّرةٌ جباهنا، أو عندما يسقط سهمُ فَرْثيٍّ هاربٍ عند أقدامنا.

فركَ صدغيه برفقٍ براحتيه، كما لو كانا وجنتَي ابنٍ له يحتاج إلى مواساة. ثمَّ بثقةٍ وبصوتٍ عالٍ قال لنفسه: «كلُّ شيءٍ سيكون على ما يرام»، ثمَّ ملتفتًا إلى الرِّجال الأربعة أضاف بوجومٍ مفاجئٍ: «فلنمضِ، إذن، أنتم لتموتوا، وأنا لأعيش. يعلم اللّٰه أيُّ المصيرين أفضل».

«أنا خائف»، غمغمَ نَرتْشِيزو.

«لقد انتهى الأمر»، قال آجيسيلاو وأومأ الشَّاعر برأسه.

ولكنَّ البارون قال: «مَن يدري؟».

XIV

أوراقٌ عُثِرَ عليها في ساق حمامةٍ زاجلةٍ مِن قِبَل صيَّاد

وصيَّة كونسالڤو دي ريتيس الأخيرة

أنا الموقِّع أدناه، كونسالڤو دي ريتيس، فارسُ بوتيليانو، أسمِّي وأرسِّمُ، وأنا بكامل قواي الجسديَّة كما أشعر، والعقليَّة كما أفترض، وانطلاقًا من معرفةٍ أكيدةٍ بأنَّ حياتي شارفت على نهايتها، جلالةَ الملك، مَلِكي، وريثًا عامًّا لممتلكاتي المنقولة وغير المنقولة، أيًّا تكن طبيعتها، والتي سأتركها ورائي لحظةَ تنيُّحي، ليتمتَّع بها ويتصرَّف فيها كممتلكاتٍ له، عادًّا إيَّاها كذلك منذ تلك اللَّحظة.

أوصي أيضًا بأن يُدفَن جسدي، وقد أصبح جثَّةً باردةً، في كنيسة مونتِكالڤاريو، تلك التي أترك لها، من باب الإحسان، ما قَدْرُه ثلاثون قطعةً نقديَّةً من الذَّهب الخالص.

تغمَّد اللّٰه روحي برحمته.

الإمضاء: كونسالڤو دي ريتيس

تصديقُ الإمضاء: أنْيِلُّو بالِسْترا

أنا المدعوُّ كونسالڤو دي ريتيس، فارسُ بوتيليانو، أُرفق برسالتي التَّوضيحيَّة هذه وصيَّتي الخطيَّة الأخيرة، مُصدَّقًا عليها أصولًا، كما في الوصايا التي يسمِّيها كتَّاب العدل بالوصايا السِّرِّيَّة، مِن قِبَل خادمي بالِسْترا، وإليه أفوِّض أمر وضعها شخصيًّا وبخضوعٍ عند القدمَين المهيبتَين لسموِّ جلالتك.

خوفًا، وربَّما يقينًا، من أنَّ إذايةً معوِّقةً قد تباغتُ هذا الرَّجل من يدٍ حاقدةٍ وحَسُودٍ، أعتزمُ ربط نسخةٍ أخرى بساق حمامةٍ زاجلةٍ، كما جرت العادة في الإرساليَّات الأكثر سرِّيَّةً، آملًا أنَّها، إذا ما أفلتت من جنون السَّماء ومن فِخاخ حرَّاس المنارة، قد تنجو من هذه الجزيرة وتبلغ مَقصِدَها.

المغلَّف، الذي سأصفه على أيَّة حالٍ، مطويٌّ ستَّ طيَّاتٍ ومختومٌ بالشَّمع الإسبانيِّ الأحمر، يحمل دمغة أسلحتي: جملٌ يشرب من بركةٍ مع نقشٍ يقول: *أحبُّ الإزعاج*[1]. الشِّعار النُّبوئيُّ الذي اختاره سَلَفي كوصفٍ قصيرٍ لحياتي، لأنَّني أنا أيضًا، كبهيمة الصَّحراء هذه، لم أشرب أبدًا من نبعٍ ما لم أدُسْه أوَّلًا بقدميَّ معكِّرًا ومنجِّسًا ماءه... وهنا ألوم، من ناحيةٍ، الطَّبيعة التي أورثتني طبعًا متشكِّكًا ومتعصِّبًا في آنٍ واحدٍ؛ ومن ناحيةٍ أخرى الزَّمنَ الحاضرَ، هذا المُغرِقَ في تناقضاته، حيث كلُّ مبدأٍ يهتزُّ وينزلق من أصابع من يؤمن به. ومع أنَّ ضبَّاط الحامية لا يميلون إلى قول الحقيقة... يُخيَّل إليَّ أنَّني أسمعهم غدًا، خلال قدَّاس الجنازة،

(1) في الأصل بالفرنسيَّة: Il me plait la trouble؛ (أ).

يتهامسون بأنَّهم رأوني في الأشهر الأخيرة غريبًا في سلوكي وفي هيئتي، مِهذارًا ومخربِشًا في الصَّباح، صامتًا ومتجهِّمًا في المساء. أحدهم، بلا ريبٍ، سيهمس بأنَّني خرجتُ تمامًا عن عقلي...

أمَّا إن كان عدلًا أم ظلمًا ما اغتابوني به، فلتكن جلالتك الحَكَمَ، وهذه الرِّسالةُ الشَّاهدَ. لا شكَّ في أنَّني تعذَّبتُ جسديًّا وعقليًّا. جسديًّا بسبب دُوَيبةٍ ـ ذبابةِ خيلٍ؟ صرصارٍ؟ جُرَذٍ أسمر؟ ـ دخلَتْ منذ أمدٍ بعيدٍ قمعَ أُذني، بينما كنت نائمًا تحت شجرةٍ صيفيَّةٍ، وبعد تلوِّياتٍ عمياء بلغَتْ مركزَ دماغي وجعلَتْ مُقامَها هناك دون أيِّ رغبةٍ في مغادرته. ثمَّ نَمَتْ ونَمَتْ غازيةً كلَّ عضوٍ من أعضائي، وأَلِفْتُها حتَّى إنَّني أطلقتُ عليها اسمًا، مُسْتاتْزو، متخيِّلًا إيَّاها بشوارب، وبهذا الاسم صرتُ أناديها وأزجرها وأستعطفها... دون أن أعرف ما إذا كنتُ بيتَها الأمين أم فخًّا سقطت فيه. من هنا وُلِدَت هذه السَّوداويَّة وسَورةُ الكآبة؛ هذه الأحلام السَّوداء والأفكار الممسوسة...

هنا نرى النُّقطة التي يتحوَّل عندها المرض إلى أخلاق، فلا تعود تُجدي معه لصقاتُ الخردل ودُوَيداتُ العلق ومقطَّرُ كَرَز الغار... فبعد المِيْتَة المشهورة للبارون إنغافو ورفاقه؛ وفضحي المؤامرةَ الكبرى التي حيكت حتَّى في حُجُرات العرش الحميمة؛ وحُكم الإبعاد الذي أعقب ذلك، مع كلِّ ما صَحِبَه من خزيٍ وخرابٍ، على الرَّغم من احتجاج كونت سَرَقوسة على اتِّهامه بالخيانة؛ بعد ذلك كلِّه وقعتُ، أنا الذي كنتُ محرِّكَ هذا الاتِّهام وصانعَه، فريسةَ شكٍّ سرعان ما سمَّمني بالصَّفراء وبلغ بي مبلغًا صار معه الموت، لئلَّا أعاني أكثر، السَّبيلَ الوحيدَ للنَّجاة.

غير خافٍ على جلالتك، لأنَّ ذلك تناهى إلى علمك في الوقت المناسب، كيف تسلَّلتُ متخفِّيًا إلى السَّهرة الأخيرة للمدانين وانتزعتُ بالمكر والحيلة تلك الجملةَ السِّحريَّةَ، «افتحْ يا سِمْسِم»، التي كشفت خبايا المؤامرة. ولكن يبقى خافيًا على سموُّك ما أعترف به اليوم مطأطِئَ الرَّأس: أنَّني أثبتُّ قرائن الجُرم بأدلَّةٍ زائفةٍ زرعتُها أنا نفسي، وأنا نفسي، كما لو من دون تخطيطٍ، جمعتُها من مُستَجَمٍّ صيد المتَّهَم. اجتراءٌ، وإن كنت أراه ضروريًّا، أقدمتُ عليه كُرهًا، متحصِّنًا ببلَّور حصافتي الصَّلب صلابةَ الألماس. ولكن بعد ذلك، بعد أن قلَّبتُ في ذهني مرارًا وتكرارًا ساعات الثَّرثرة تلك، نَبَتَ قُطْرُبٌ شوكيٌّ خلف صدغيَّ، واخزًا إيَّاي أكثر فأكثر كلَّما تمكَّنتُ شيئًا فشيئًا من تذكُّر بعض غمزات البارون لرفاقه، وإيماءاته الخاطفة، وغيرها من شتَّى تلميحات المخاتَلة. بتعبيرٍ أكثر وضوحًا، أخشى أنَّهم ضلَّلوني بدلًا من أن أضلِّلهم، وأنَّني تنكَّرت في زيِّ ثعلبٍ لينتهي بي المطاف في جُحر نُمُوسٍ قاتلة. أم تُراهم لم يدركوا منذ البداية مَن كنتُ وما كان هدفي؟ هل كان التزامهم الصَّمت إلَّا لكي يتهيَّأ لهم أن يغرسوا اسمَ رجلٍ بريءٍ في ذهني، معوِّلين على كوني مغرورًا بما يكفي لأعتقد أنَّني استنبطته استنباطًا؟ لذلك، بِثَلْمِي سمعةَ وليِّ العهد بأدلَّةٍ عاقِبَتُها الهلاك، حرَّضتُ جلالتك على التَّخلُّص منه بيديك، مساعِدًا بذلك على اجتثاث السُّلالة الحاكمة بطريقةٍ أفضل ممَّا لو أنَّني أخفيت قنبلةً في سلَّةٍ من الورد...

إلى هذا كلِّه يُضاف هاجسٌ لا يمنحني هُنيهةَ سكينةٍ واحدة: أنَّ الذَّنب كان ذنبي في اكتشافهم أمري، حين بزلَّة لسانٍ، وفي شخص تشيريلُّو، أظهرت لهم أنَّني على علمٍ بالعفو السِّرِّيِّ الذي وعدهم إيَّاه كونسالڤو.

منذ تلك اللَّحظة، أتذكَّر، بدأ الملاعين يتسارُّون بكلامٍ خفيٍّ، ويتبادلون الإيماءات، مداومين على فعل ذلك حتَّى وهم على دَرَج المقصلة، حيث حدجوني بنظرة سخريةٍ، قبل تقديم رؤوسهم لشفرةِ القَصْل...

ما عسايَ أن أقول أكثر؟ ربَّما كنت سأظلُّ معتصمًا بالصَّمت المعذِّب لو أنَّ التَّحقيق الذي أُجريَ داخل وخارج المملكة من قِبَل مُحامين عنِّي (ولكن هل يمكنني الوثوق بهم؟ أم أنَّهم هم أنفسهم ليسوا سوى مبعوثين يتآمرون على هلاكي؟) لم يفتح عينيَّ تمامًا وفي الوقت نفسه يشوِّش أفكاري. تقاريرهم أكَّدت لي أنَّ الذي مات في باريس، من التَّوأمين إنغافو، هو الأكبر وليس الأصغر؛ وأنَّ موته لم يكن من طلقٍ ناريٍّ في وجهه، بل من شنقه نفسه إلى غصنٍ داخل أيكةٍ؛ وأنَّ نَرتْشِيزو لم يهرب من المنزل، بل طُرِدَ لأنَّه أغوى أخته أولمبيا أكثر من مرَّةٍ على ارتكاب الخطيئة؛ وأنَّ آجيسيلاو قتلَ حقًّا ضابطًا أعلى منه رتبةً ولكن لعراكٍ دنيءٍ على امرأة... ولن أتحدَّث عن ساليمبيني الذي استشفَفْتُ منذ البداية دَجَلَ أقواله. أدركتُ من ذلك أنَّ الأربعة لم يخدعوني فحسب، بل سخروا منِّي، مقدِّمين لي في كلِّ قصَّةٍ من قصصهم أحجيَّاتٍ وألغازًا مضلِّلةً كانت لازمتُها الموسيقيَّةُ مبنيَّةً دائمًا على المواربة بين حقيقة الأمر وظاهره، تمامًا مثلما تدور وتتبدَّى على هذه الأرض حفلةُ حياتنا التَّنكُّريَّةُ التي لا نهاية لها... ليقودوني في النِّهاية، مثل طفلٍ صغيرٍ، إلى تخيُّل أنَّ طريدتي هي الشَّخص الذي أرادوه هم، بالإلماح تارةً إلى الحُبسة في لسانه وشغفه بالقمار، وتارةً إلى حرِّيَّته في دخول البلاط وشَبَهِهِ بلورنزاتْشو من آل مِديتْشي... بحيث وجدتُني، بعد إضافة القرينة إلى القرينة، أمشي بنفسي وبكامل إرادتي

إلى الفخِّ المنصوب لي. لقد كان هذا جرحًا قاسيًا في كبريائي، وإن كان أقلَّ إيلامًا من ندمي على إساءتي لمَلِكي، هو الذي أسبغ عليَّ جمائله فقابلتُها بالقبائح.

اللَّهمَّ إلَّا... اللَّهمَّ إلَّا أن يكونوا، بتخطيطٍ أشدَّ غدرًا، قد عقدوا النِّيَّة على إيراثنا الرُّعب ميراثًا أبديًّا، مختلقين، لإبعادنا نحن العصافير، خيدعًا لا وجود له، خيدعًا محوكًا بحيث لا يمكن نقضُه بأيِّ شكلٍ من الأشكال. نعم، يا جلالة الملك، هذا ما أقصده: أنَّ الأب السَّرمديَّ لم يكن له وجودٌ على الإطلاق، إلَّا في صورة بُعبُعٍ لفَّقوها في حديثهم تلفيقًا؛ وأنَّهم أعطوه هذا اللَّقب من باب الاستخفاف بالمقدَّسات لا أكثر ولا أقلَّ...

أوه، يا جلالة الملك، كيف صار كلُّ شيءٍ مختلطًا في عينيَّ كدوَّامة! الآن، وقد تقدَّمت بيَ السِّنُّ، لم يعد الموت يخيفني. ولكن يخيفني أن أجد نفسي أضحوكةً في مجرى قصَّةٍ لا أفهمها. لقد عرفتُ أولاء الرِّجال. بل إنَّني أجللتُهم كمبدعي خطايا جسورةٍ وعظيمةٍ. أجللتُهم كيف تحمَّلوا بقلوبٍ برونزيَّةٍ قساوة استجوابهم، وكيف صعدوا إلى المقصلة ثابتي الجَنان، بغضِّ النَّظر عن أنَّهم، في اللَّيلة الأخيرة، كانوا لسمةٍ بشريَّةٍ صِرْفٍ غير واثقين بأنفسهم، وميَّالين إلى الاختباء وراء توريات كاذبةٍ؛ مع أنَّهم، طوال حياتهم، كانوا مشغولي البال بعبوديَّة البائسين أكثر ممَّا بجوعهم، الأمر الذي وبَّختُهم عليه بلسان تشيريلُّو الذي، واحسرتاه، مُذ تخفَّيتُ في ملابسه، وهذا أكبر عارٍ جلبتُه على نفسي، تشرَّبتُه حتَّى صرتُ كثيرًا ما أنطق بكلماته وأتقمَّص مشاعره...

والآن، بعدما حرَّفتُ نفسي، وتشوَّهتُ لمجرَّد معاشرتي إيَّاهم، أسأل نفسي: من أكون أنا؟ نحن البشر، من نكون؟ أحقيقيُّون نحن، أم مجرَّد هيئاتٍ مرسومة؟ استعاراتٌ ورقيَّةٌ، أطيافٌ غير مخلوقةٍ، امِّحاءاتٌ تتكشَّف على خشبة مسرحٍ إيمائيٍّ من رمادٍ، فُقَّاعاتٌ منفوخةٌ من غليون مشعوذٍ يُبغِضُنا؟

إن كان الأمر كذلك، فلا شيء حقيقيٌّ. بل أسوأ من ذلك: لا شيء كائنٌ. كلُّ شيءٍ صِفرٌ، وهذا الصِّفر لا يملك أن يتحرَّر من ربقةِ نفسه. كلُّنا ملفَّقون، ولكن ملفَّقٌ أيضًا مَن يسوقنا أو يلجمنا، مَن يجمعنا أو يفرِّقنا: نكراتٌ غيبيَّةٌ متمازجةٌ بلا قصدٍ، نحن وهو، في خطأٍ لا ينفكُّ يتكرَّر؛ خطومٌ كرنفاليَّةٌ على جماجم مليئةٍ بالثُّقوب والفراغات... لقد رأيت قبل عامٍ لوحةً في باريس. كانت تصوِّر قردًا في ورشة رسَّامٍ، ومعه لوحة ألوانٍ وفُرَشِ رسم. أنكون غير هذا، نحن كائناتُ الدُّموع؟ خرابيشَ قردٍ رسَّامٍ؟ إن لم نكن مجرَّد دمىً معلَّقةٍ في صدر غرفةٍ وصورُها تنعكس وتتضاعف في مرآتين متقابلتين؟...

ومع ذلك، في هذه السَّاعة من التَّشوُّش الطَّاحن، حيث يبدو لي أنَّ كلَّ شيءٍ يغرق، وكلَّ قذيفةٍ تنحرف نحو هدفٍ من دخانٍ، لا أعرف كيف وجدتُ على شفتيَّ كلمات المسيح السَّبع الأخيرة. لا أجرؤ على لفظها من بين أسناني المرتعشة، ولو أنَّها، حتَّى في صمتها، تنفعني زادًا لرحلتي. ليس التماسًا للرَّحمة فحسب (إن كان من الممكن أن يرحم قناعٌ قناعًا)، ولكن لأعطِّر هباءَ وجودي بحزنها الودود، في هذه السَّاعة التي أطلُّ فيها على عدمي الهِلقام...

هو ذا الفجر قد شارفَ البزوغ، أتبيَّنه من خيطٍ أزرق واهنٍ حيث نصفا السِّتارة يتلاثمان. أنينُ الحمير يخمدُ الآن على طول الشَّاطئ، وعمَّا قليلٍ تعاود زمامِجُ الماء نعيقها على الجُرف الشَّرقيِّ، متلقِّطةً بقايا الطَّعام التي يرميها الطُّهاة هناك كلَّ صباح. كم كان الشِّتاء مبكِّرًا هذا العام! كم أشعر بنصله ينزلق باردًا على عموديَ الفقريِّ! عبثًا، وقد نَفِدَ الحطب، أُلقي بكتبي كَوْدَةً في المستوقَد. يتفحَّمون، ولكن لا يدفِّئون عظامي، أولئك الأمراءُ والعرَّافاتُ الذين أقاموا بين دفَّاتها يومًا: أطلس في قلعته، بروسبيرو في كهفه، سيجيسموندو في زنزانته... سأنتهي مثلهم بَصْوَةً، بين الخشخشة ورائحة الشِّياط...

قلبي يُوجِسُ صمتًا غير مألوفٍ في الهواء، كما لو أنَّ الجميع، حرَّاسًا ومساجين، ماتوا أو غادروا في مأذونيَّةٍ أو لاذوا بالفرار، وبقيتُ أنا النَّاجي الوحيد على هذا النُّتوء الصَّخريِّ المهجور... وإذا أُلقي على العالم نظرةً أخيرةً، ألمحُ بين السَّماء والبحر لطخةً مهيبةً لا أستطيع، مهما حاولتُ، تحديد هويَّتها. منطادٌ، غيمةٌ، ملاكٌ؟ يتبادر إلى ذهني الوشمُ على ذراع آجيسيلاو، الوشمُ الذي كان، على حدِّ قوله، فراشةً مطعونةً وزعمتُ أنا أنَّه منطادٌ، غيمةٌ، ملاكٌ، وأنَّ بإمكاننا أن نقرأ فيه نبوءةَ طيران.

ولكن دعنا نضع نهايةً لهذه التَّورية ولغيرها من توريات أكثر غموضًا. ليس لديَّ شيءٌ آخر لأكتبه، ولا شيءٌ آخر لأفعله، خلا شيئًا واحدًا. وليس لديَّ أملٌ في أن يأتي المعلِّم سمِيريليو ويطرق على بابي مُقلنَسًا، ومئزره ملطَّخٌ بالدِّماء، ليعرض عليَّ غِياثَ يديه.

سيجد بالِسْترا، أو أيُّ شخصٍ آخر مُناطٌ به واجبُ تجهيز جثماني لاحقًا للدَّفن، بزَّتي المرصودة لمراسم التَّشريفات مطويَّةً على السَّرير: سترتي الخطَّافيَّة الزَّرقاء، بنطالي القرمزيَّ، نياشيني، قَلْبَاقي، سيفي... إنَّها رداء قُسُوسَةٍ ألتزم جهرًا بإعلانها مقدَّسةً في آذان الجزيرة البكماء. لأنَّ كلَّ شيءٍ صامتٌ على الجزيرة الآن. لم أسمع صياحَ أيِّ ديكٍ هذا الصَّباح، ولا حتَّى صياح الدِّيك الكاذب[1]. الأمواج عند سفح القلعة صامتةٌ، وأسنان مُسْتاتْزو في رأسي صامتة...

هل كان كلُّ شيءٍ حلمًا حلمتُه؟ هل ما أزال أحلمه؟ كما لو كنتُ على وشك أن أسحب حبلَ ستارةٍ هائلةٍ من الخِرَق، أشعر بقلبي يخفق في حلقي، وبأنَّني ممتلئٌ بفرحٍ جيَّاشٍ وغير منطقيٍّ... أو ماذا إذا، في خوافي أبجديَّةٍ فوق اطِّلاع البشر، لم تكن ياءُ الظُّلمات التي أهوي فيها سوى أَلِفِ نورٍ أبديٍّ؟

في غضون لحظةٍ سأعرف ذلك، وفي اللَّحظة نفسها لن أعرف أنَّني عرفته. حين أمسك بالبندقيَّة بين ساقيَّ، قَدَمٌ على الزِّناد وفمُ السَّبطانةِ بين شفتيَّ، جبهتي ملفوفةٌ بالرَّاية البيضاء المُزنبَقة، سأسمع دويَّ الطَّلقة، مثل زعقةٍ من اللّٰه، في صمت الكون المُطبِق.



(1) يقصد ذلك السَّجين الذي يقلِّد صياح الدِّيك؛ (أ).

اللّيلة الأخيرة لأربعة سجناء حكمَ عليهم بالإعدام، هذا هو موضوع تحفة جِزوالدو بوفالينو (1920-1996) "أكاذيب اللّيل" التي فاز عنها بجائزة ستريغا لعام 1988.

قصّةٌ تدور أحداثها في مكانٍ وزمانٍ مقيّدَين إلى أقصى الحدود، فالمكان زنزانةٌ على جزيرة منسيّةٍ، والزّمانُ ثماني ساعاتٍ ليليّةٍ تفصلهم عن الإعدام المقرّر بُعَيدَ الفجر. ولكنَّ ما يفعله بوفالينو يتجاوز مجرّد سرد قصّة. إنّه يعيدنا، في أثناء انتظار بزوغ الفجر، إلى ذلك السُّؤال القديم والجوهريّ عن معنى وجودنا، سائقًا شكوكه على لسان شخصيّةٍ لم يخترها جزافًا لهذه الغاية، شخصيّةِ كونسالڤو دي ريتيس.

يستحضرُ هذا الكتاب إلى الذّهن سِحْرَ سرديّةِ "ألف ليلةٍ وليلة" و"الدّيكاميرون" معًا، ويُعَدُّ أكثر روايات بوفالينو أصالةً، ففيه من غنى السّرد ومن عمق الشّخصيّات وإتقان رسمها النّفسيّ أكثر ممّا في روايتيه الأُخريَين. وربّما لن نجد وصفًا أفضل للتّعبير عن صنعة بوفالينو الرّائعة من ذلك الذي نجده على الغلاف الخلفيّ للكتاب في لغته الأصليّة: "كلماتٌ في صِبغةٍ عتيقةٍ، مضفورةٌ متعةً وألمًا بقلمٍ مؤرّقٍ ينتظِر، بصحبة شخصيّاته، طلوعَ الشّمس".

في أواخر عام 2019 تكتشف زوجة الشّاعر اللّبنانيّ الفقيد بسّام حجّار (1955-2009) مسوّدةً بخطِّ يد زوجها، ضمّت آخر ما كان الفقيد منقطعًا إليه قبل رحيله، نقْلَ هذا الأثر إلى العربيّة عن الفرنسيّة، غير أنّ الأيّام لم تسعفه، ولمّا كان المخطوط المكتشَف غير مكتملٍ، فقد أناطت "دار الرّافدين" مهمّة إكمال التّرجمة عن لغتها الأصليّة، الإيطاليّة، بالشّاعر السّوريّ أمارجي الذي تحرّى ما أمكن التّوفيق بين الدّفق الشّعري للرّاحل ودفقهِ الشّعريّ وبين المعجم اللّغويّ للرّاحل ومعجمه اللّغويّ، فجاء هذا الكتاب ثمرةَ تضافر حساسيّتين شعريّتين خاصّتين استطاعتا بحُسن إصغائهما إلى نبض النّصّ وإيقاعاته أن تصنعا تحفةً عربيّةً لا تقلُّ سحرًا عن التّحفة بلغتها الأمّ.

لوحة الغلاف هي جزء من لوحة the storm للرسام Joseph Vernet


ISBN 978-9-9226435-7-1
www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
daralrafidain
dar.alrafidain
dar alrafidain دار الرافدين